

أسلاك شائكة



ديوان العرب للنشر والتوزيع

اسم الكتاب: أسلاك شائكة

اسم المؤلف: سعدية عبد الحليم خليفة

التصنيف: رواية

الحجم: 14 - 20

عدد الصفحات: 318

سنة الإصدار: 2025

رقم الطبعة: الأولى



رقم الإيداع: 2025 / 10868

الترقيم الدولي: 1 - 175 - 971 - 977 - 978

تدقيق لغوي: عاطف الحناوي

تصميم غلاف: منى الموجي

تنسيق وإخراج: محمد وجيه

للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com

واتساب: 01030502390

أسلاك شائكة

رواية

سعدية عبد الحليم خليفة



إهداء

إليهم هؤلاء الذين أصادفهم فيعيشون في محبتي ويلهموني حكاياهم

سعدية عبد الحليم خليفة

دوى صوت انفجار اهتزت له الجدران، وشق النوافذ وأبواب البنايات وفصل التيار الكهربائي، سكت صوت الرجل الغامض الذي اعتاد السير مبكراً في شارعنا جيئةً وذهاباً يردد مدائح وأغاني؛ ويعنف الصبية المشاكسين بصوت جهوري يصلنا داخل مساكننا في الأدوار العليا.

علت أصواتُ خوفٍ واستغاثات وصراخ، وأحاديث واستفسارات، وضجيج متوتر لا يسفر عن معلومة ولا يفسر ما يحدث.

هكذا استقبلنا ساعات الصباح الأولى في شارعنا في يوم الجمعة، وذلك لا يعني أننا نقضي الليل بهدوء وسكون في تلك البقعة، الليل هنا موصول بالنهار لا يفصلهما سوى انسحاب تدريجي للزحام والضوضاء مع اقتراب موعد الفجر، ثم عودة لمواصلة الحركة مع انتشار الضوء حتى يبلغ التكسد ذروته التي لا تنفك طوال النهار.

أن تبحث عن مصدر الخطر في رقعة تموج بالحركة وتعد معبراً للقادمين إلى المدينة والخارجين منها عن طريق دائري وطرق أخرى محورية فذلك أمر صعب.

الشارع أيضاً خليط من مختلفي الأشكال والأهواء، هكذا تشكّل منذ كان جزءاً من ضاحية بعيدة قليلاً عن وسط المدينة، جاءها بعض من أهالي

الريف في الصعيد والدلتا واشتروا أراضي بنوها بيوتًا صغيرة، كما نرح إليها بعض من المستأجرين سكان الأحياء الشعبية المكتظة بوسط المدينة، أملين أن يملكوا أرضًا تكون لهم سكنًا ولأبنائهم من بعدهم، كذلك امتلك بعض التجار قطعًا من الأرض تركوها زمنًا محاطة بالأسوار، حتى إذا نهضت حركة العمران زادت أسعارها، وفيما بعد حين تطور الشارع، ارتفعت المباني فوق تلك الأراضي، و تبدلت البيوت الصغيرة فأصبحت عمائر عالية يحتل أدوارها الأرضية معارض سلع ومخازن أخشاب ومتاجر. الناس هنا فقراء وأغنياء، مسلمون ومسيحيون، شباب وكهول، أما المستنون فهم هؤلاء الآباء والأوائل الذين رحلوا إلى العالم الآخر، أو ترحلوا فسكنوا في بيوت صغيرة بين الأزقة المتفرعة.

الصباح في شارعنا مصدر رزق هؤلاء العمال القادمين من الأقاليم والقرى، ومن حول المكان، يفتشون الرصيف الفاصل بين نهري الطريق، في انتظار طالبي خدمات العمل اليدوي، من نقل أثاث، أو رفع أثقال، أو مهن يدوية وحرفية يتقاضون أجورها فور الانتهاء منها، وشارعنا أيضًا طريق يعبره الزاهبون إلى أعمالهم يجدون فيه كافة أنواع وسائل الانتقال. أما أنا فتلك الفترة القصيرة الفاصلة بين السكون والحركة تعني لي بعضًا من تفاصيل الحياة، حددت لها يومين في الأسبوع هما صباح الجمعة، وصباح الثلاثاء، ألتقي فيهما بغالية، تأتيني عند هدوء الحركة وتظل حتى وقت ما بعد الظهر.

كم مرةً ألحْتُ غالية أن نبَدِّل لقاءَ الثلاثاء بيومٍ آخر، وأنا أوْجل من أسبوعٍ لأسبوع، ولا أدري لماذا ينتابني عنفوانُ الشهوة في يوم الثلاثاء فتنسى غالية أنه الثلاثاء، وعندما تأتِي صباح الجمعة، تتذكر أنها يجب أن تبديل يوم الجمعة أيضًا، لأنني أتركها بعد الاغتسال وأُخرج للصلاة في المسجد القريب.

كنا ملتحمين تمامًا حين دَوَّى صوت الانفجار، غابت غالية عن الوعي حتى بدا أنها ذابت فامتزجت بي، خمدت انتفاضتي وعدت للوعي فلملمت شعتي، وقفت برهة أفكر، عاد إليّ بعض الاطمئنان بعد تأكدي أن مكاني لم تصبه أضرار ولم تأت لهذا الانفجار توابع.

الآن عليّ أن أستطلع الأمر لأعرف أسباب الحادث وأرى ما خلفه من آثار، من مكاني بأعلى نقطة فوق إحدى البنايات حيث أعيش، وقفت أتابع الموقف، لا جدوى من نزولي الآن وسط تلك الجموع التي يحركها الرعب، هؤلاء الذين خبر بعضهم الحوادث منذ زلزال التسعينيات وتوابعه، وحوادث سقوط البنايات الحديثة، مرورًا بالعوبات الناسفة، والتفجيرات.

رأيت الناس يخرجون من بيوتهم بملابس النوم، فرّوا إلى الشارع وازدحموا على الرصيف الفاصل بين نهري الطريق ثم فاضوا حتى ازدحم الشارع بهم. يبدو أن البعض طلبوا أرقام النجدة، ووقفوا خارج البيوت يحتمون بالزحام بلا أسقف ولا جدران يخشون سقوطها على رؤوسهم، في انتظار أن يسفر بحث الشرطة عن أسباب الحادث، وكالعادة في مثل تلك الظروف تكثر

الآراء والتأويلات التي سرعان ما تتحول لشائعات يرددها البعض، حتى إذا لم يُسكِتها تصريح حقيقي عقب التحقيق، صدقها الناس وظلوا يتداولونها حتى تُنسى.

تشكل الناس مجموعات ودوائر، واصطف بعض كبار السن جلوساً على الأرصفة، تكدست السيارات العابرة ذهاباً وإياباً فأحدثت ارتباكاً مرورياً في شارعنا المتوتر دائماً بحوادث السير.

وهو يعد طريقاً حيوياً منذ أصبح موصولاً بالطريق الدولي، بعد سنوات من العشوائية وبرك الماء الآسن التي كانت تحتل مجراه، تغير تدريجياً منذ نهايات التسعينيات وبداية الألفية الثالثة، حتى أصبح يتسع لكافة وسائل النقل.

ومنذ اكتسائه بطبقة الأسفلت وتقسيم مجراه إلى نهرين، ارتفعت أسعار أراضيه وبنائاته، وانتشرت فيه المعارض التجارية، واختفت البيوت الصغيرة التي كانت تتناثر فوق رماله في زمن مضى، شغل سكانها بعض وحدات من تلك البنايات التي ارتفعت، بعد أن شاركوا المقاولين بأراضي بيوتهم الصغيرة ليضمنوا فيها سكناً لهم ولأبنائهم الذين كبروا وكونوا أسراً جديدة.

لم يحدد أحد بعد أسباب صوت الانفجار ولا مصدره، لكن الشرطة حين جاءت أغلقت الشارع من منبعه ومصبه، وقاموا بتنظيم تحويل مسار السيارات العالقة، وانتشرت قوات البحث والتحري تجوب الشارع وتقف

أمام المحال والمعارض، وأوقفوا المارة لفحص هوياتهم، بينما اندس بعضهم بملابس مدنية كالعابرين يلتقطون أطراف الحكايا. رغم كل التحفظات والبحث والتحريات؛ فتفاصيل الزحام يخترقها الضياع، ذهول المفاجأة يأخذ وعي الناس نحو بؤرة الخوف، التي تلهيهم عن أشياء قريبة.

بعد مرور ساعتين بلا توابع للحدث، صعد بعض ساكني الأدوار القريبة إلى بيوتهم، بعضهم اصطحب معه أسراً أو أفراداً من الجيران يكملون مناقشات وأحاديث، بينما ظل البعض بالشارع، مقللين من الحذر والخوف، فالأطفال الذين كانوا يتمسكون بأيدي ذويهم، تركوها لينطلقوا، وغاب الناس في نقاشات جماعية، واحتمت بعض النسوة بمدخل البيوت دون الصعود لبيوتهن.

العجائز من الرجال والنساء ظلوا تائهين في المشهد، يسرون مبتعدين قليلاً ثم يعودون، أكثرهم حركة وذهاباً ومجيئاً كان الجدّ إسماعيل، ذلك العجوز الذي لا يخلو يوم من ضجيجهِ وصياحه وهو يشاكس بائع، أو يجالس أحد أصحاب الدكاكين الصغيرة هادئاً يحكي نواته وبطولاته.

لا أدري ما الذي دفعني لمتابعته من أعلى، حين وقع عليه بصري؛ لأراه يسير مبتعداً لا يتبعه أحد ولا يهتم لأمره أحد.

ولأنني أعمل صحفياً في صفحة الحوادث، فقد منحتني متابعتي حساً بالخطر، كحاسة الشم أو الاستشعار لدى بعض الكائنات، كنت أود أن

يظل عم إسماعيل تحت بصري، لكن سيارات الشرطة التي مرت بسرعة مصدرة صوت إنذار يفسح الطريق، حجبت عني الرؤيا فلما غابت بعيداً، عدت أتحقق فلم ألمحه بالمشهد.

حثني غياب عم إسماعيل على النزول إلى الشارع فبدلت ملابسي وعدلت من هيئتي، ونزلت الطابق الفاصل بين السطح ونهاية طوابق المصعد الذي وجدته لا يزال متوقفاً بسبب انقطاع التيار الكهربائي، أكملت النزول على قدمي حتى وصلت الشارع، سرت أتفقد الناس بهدوء ويناديني بعض الذين يعرفونني من الجيران كي أنضم إليهم، فأعدهم بالعودة بعد قليل، درت حول المكان من الشوارع الجانبية وسألت عنه الدكاكين الصغيرة في الأزقة المتفرعة من الشارع حيث كان يجالس أصحابها من كبار السن، لم أجده. عدت إلى الزحام في الشارع الكبير ولا يزال بعض الناس متوقفين، أغلبهم من العاطلين عن العمل وأصحاب المعاشات، وربات البيوت، بينما انصرف الذين لديهم مشاغل لا يملكون تركها لوقت آخر.

اصطدمت في طريق عودتي ببهاء، فيوم الجمعة موعد عطلته الأسبوعية من العمل بالصيدلية، حيث يمضي وقته بالشارع ينتقل من مكان لمكان، وما من شيء يحدث إلا وتجده لديه معلومة عنه، مهما صغرت فهي ذات فائدة تعود عليه في وقت ما، كدت أمسك به لأعود ألملم منه التفاصيل الصغيرة، لكنه انفلت من بين يديّ وقفز في الهواء ملوّحاً أنه سيعود إليّ.

لمحت غالية تسير مبتعدة، كيف استطاعت الخروج وسط الزحام وهل لاحظ أحد خروجها من عمارتنا أو سألها أحد أين كانت؟ وحين رأيته تسير بهدوئها المعتاد أيقنت أن الأمر مرّ بسلام.

الحقيقة أن وهج المشاعر قد أحمده الحادث، ولا رغبة لي اليوم في لقاء حميم، كل ما أرجوه أن أختلي بنفسي حتى ينتصف اليوم، ويعود بهاء بعد أن تكون شمس النهار قد أنهكته، وثقلت عليه حمول الحكايا، مع فراغ أمعائه، يأتي ليعطي بعض ما لديه فيشبع نهبي للأخبار ونتقاسم معاً بعض ما لدي من طعام كنت قد أعددت له لخلوتي مع غالية.

.....

مرت أيام...

عادت الحياة لشارعنا كما كانت عليه من قبل، وظل بعض الناس يتذكرون الحادث حين ينفجر إطار سيارة بالصدفة، أو وقت إطلاق الأعيرة الاحتفالية عند مواكب الأعراس، ولا تزال الشرطة تتكتم أسباب الحادث، وقد ترك بعض الأضرار، تهدم واجهات بعض المعارض والمحال، وموت طفلين توأمين لرجل بسيط يسكن بقايا الطابق الأرضي في عمارة عالية احتلت المعارض والمحلات واجهتها ولم يتبق من الطابق الأرضي سوى غرفة داخلية وحمام كانت سكناً للرجل وطفليه.

لم تؤنّبني رئيس التحرير بالجريدة التي أعمل بها على تأخري في إرسال تحقيق صحفي أو خبر مؤكد أو موضوع أتناول فيه الحادث، وأنا لا أطمئن لهذا الهدوء من جانبها بشأن هكذا حادث، هذه السيدة التي تهتم بتفاصيل الأحداث مهما صغرت أو كانت عابرة، فتضعها تحت مجهر الكشف، وتعدّها قضايا كبرى حتى تثبت من حقيقتها، فهي التي نهرتني يوماً بسبب حادث كنت قد تركته حتى أجمع خيوطه كاملة فيبدو قصة واقعية.

ورغم خشونة معاملتها وطريقتها المتعالية فإنني لا أنسى لها أنها من اختارتني للعمل في الجريدة، كمحرر صحفي أعطي أخبار الحوادث في

مدينتي، ولم أكن أتوقع أن يقع اختيارها عليّ فترسل في طلبي، حين أرسلت قصة من وحي حادث مررت به، لينشر في صفحة كتابات الهواة. منذ تخرجي من قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، وأنا أحلم بالعمل في حقل الإعلام، وبخاصة في مجال الحوادث على تنوعها، أنا أيضاً شغوف بالبحث عن الأسرار الكامنة خلف الأحداث.

ومنذ كنت طفلاً أَلعب أمام بيتنا الصغير، بصحبة رفيقي مهاب ابن جارتنا الوحيد، لم يكن شارعنا مزدحماً كما هو الآن، والأمهات حينها كنَّ يأمنَّ أن يتركنا نلعب خارج البيوت.

لم نكن قد التحقنا بالمدرسة الابتدائية بعد، ربما التحقت أنا بعد عام واحد من فقدان صديقي، حين كنا نلعب أمام البيت، نركض ونختبئ ويفتش أحدنا عن الآخر حتى إذا وجده تبادلا الأدوار، لعبة نسميها (عسكر وحرامية)

أغمضت عيني حتى يختبئ صديقي، ولم أكن دائماً أميناً تماماً في حجب الرؤية، حتى يتسنى لي أن أجده بسهولة، فلمحته يختبئ وراء باب بيت ولمحت جسداً آخر يرتدي جلباباً وعلى رأسه غطاء أبيض، لم أحدد وقتها جنسه هل كان رجلاً أم سيدة، وقد أخفى وجهه بطرف الغطاء مفتعلاً أنه يتقي الهواء والأتربة، مرّ ولم أتحقق منه ولم أسعَ لذلك كنت أتعجل ذهابه حتى أسرع بالإمساك بصديقي، لكنني حين دخلت البيت أبحث عن مهاب لم أجده.

ناديته مرات، صعدت درجاتٍ من السلم، عدتُ مرةً أخرى أبحث في الشارع، طرقت باب بيته وسألت أمه، في البداية حسبت اختفائه جزءاً من اللعبة، طال الوقت ولم يظهر، مرت ساعات، أيام، شهور.

أبلغت أمه الشرطة في حينه، ولم يسفر بحث الشرطة عن شيء، أطلقت أمه رجلاً ينادي في الحي والأحياء المحيطة، من هؤلاء الذين كانوا يعملون بهذه المهنة حينها، وقد أضافوا إليها استخدام مكبر الصوت.

السنوات أيضاً تمر ولا يعود، فسر بعض هواة الغيبيات ضياعه بانتقاله إلى عالم آخر تحت الأرض وأنه سيبقى غائباً هكذا زمناً ثم يعود، نصحوا أمه أن تذهب للعرافين ربما استطاعوا فعل شيء ليظهر، لكنها بقيت تحمل حزنها صامتة.

تبدل الحي والشارع تماماً ودبت فيه حركة عمران وتجارة، بعد تحوله لطريق عام، وربط الجهة القبلية بالجهة البحرية عن طريق نفق يمر أسفل خط السكة الحديد الذي يصل وسط المدينة بشرقها حتى خليج أبي قير.

غابت علامات شارعنا الفارقة التي عرف بها زمناً، البيوت الصغيرة المتناثرة وسط الرمال، المقاهي الصغيرة وأصحابها الجنوبيون، المركبات المتهالكة التي تنقل بها الناس زمناً من أول الشارع حتى بيوتهم، لم يبق في شارعنا علامة من تاريخه القديم سوى اسمه، شارع خمسة وأربعين، يقولون إنه تسمى بقيمة اتساع عرض الطريق فيه من ضفة لأخرى.

ربما لا أحد يتذكر مهاب الآن سوى أمه وأنا، حتى علاماته الفارقة أحفظها مهما وضع الزمن علامات أخرى غيرها، تظل ذاكرة وقائع الخدوش والجروح، وعلامات تطعيم اللقاحات ضد الأمراض المميزة لكل جيل، تظل تلك العلامات التي كشفها كل رفيق لرفيقه باقية، تظل بعض الحباه تحمل علامات مميزة يعرفها من عايشها وضمدها بجنو طفولي.

حين نشطت حركة العمران في شارعنا وجاء من يساوم أم مهاب على استبدال البيت الصغير بعدد من شقق في عمارة عالية تحل محله وافقت، كان بيتها آخر البيوت الصغيرة التي انضمت لقافلة الارتفاع الأسمنتي، لم يكن بالبيت سوى أنا وهي، من بعد موت أمي التي كانت كل أسرتي، وقد اتخذتني الخالة رضوى بديلاً عن ولدها، ورغم أننا لم يكن لنا عقد إيجار رسمي، كنا نسكن بالاتفاق والثقة فقط، ونسدد الإيجار، لكن السيدة الطيبة حين استبدلت حصتها بعدد من الوحدات، منحتني تلك الشقة الصغيرة الكائنة فوق سطح البناية المرتفع خمسة عشر طابقاً، أبلغتني أنها تطمئن لوجودي قربها، وأني سأظل على عهدي في البحث عن صديقي، أنا حقاً لم أنسه يوماً، وكلما رأيت وجهاً يقاربه أتأمله لأتحقق من علاماته الفارقة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي نتحدث فيها عن ولدها بعد سنوات من ضياعه وتذكرني أنها تعهد لي بمواصلة البحث عنه وهي تعلم أنه حي

يرزق، وقد عهدت إليّ أيضًا بسرّها المحفوظ في وصية تركتها في خزانة بيتها، طالبتني بتنفيذ وصيتها حال موتها.

جاء ذلك السكن ليناسبني تمامًا، شقة صغيرة بأعلى مكان في البناية، لا يجاورها أحد، تفتح على براح مفتوح، ومن حسن الحظ أن جاء وضع الأطباق اللاقطة الخاصة بالثفضائي من الجهة الأخرى، فتركت المساحة حول شقتي فارغة، جمعتها بشجيرات صغيرة ووضعت فيها بعض المقاعد البلاستيكية وطولة، حولتها لجلسة أستمع بها أيام الصيف ووقت تحسن المناخ شتاءً.

لم يعد بهاء ليحدثني عن الحادث في حينه وكلما التقيته في الشارع فرّ متذرّعًا ببعض الحيل، وأنا صرت أؤجل موعد غالية من يوم لآخر لا أدري ماذا اعتراني فأصبحت زاهدًا في لقاءها.

ظهر عم إسماعيل بعد عدة أيام، وكأنه لم يغب يومًا، عاد إلى عاداته كما كان؛ يمزح ويغضب ويجالس الناس.

أشاع بعض الفضولتين من الجيران أن لعم إسماعيل زوجة جنية، قضى تلك الأيام معها تحت الأرض، وزاد بعض الجهلاء أن سبب الانفجار هو الشق الذي فتحته تلك الجنية ليمر عم إسماعيل إليها، يبدو أن هذا التعليل وصل إلى مسامع عم إسماعيل وراق له فأقره، أصبح لدينا قصتان للحادث قصة عم إسماعيل، وقصة أخرى تذكر أن الرجل والد الطفلين هو من تسبب بوقوع الحادث الذي أودى بحياة طفليه، ومفاد تلك القصة أن

هذا الرجل يجمع المعادن القديمة من حديد ونحاس وقصدير لبيعها خردة ليعاد تشكيلها من جديد، ويذكرون إنه وجد تشكياً معدنياً بين قطع المعادن التي يجمعها بالانتقاء من قمامة المنازل ومخلفات الأدوات المستهلكة، أو يشتريها من الناس الذين يعرضون تلك الخردة، ثم يبيعها أو يستصلح بعضها ويعيد تشغيله وما حدث كان ناتجاً عن تسخين تلك القطعة المعدنية التي يحاول الرجل اكتشافها وفصل معادنها، بعد أن ظن أنها تحتوي في تشكيلها بضعة جرامات من الذهب.

لم يصدر أي تصريح رسمي أو تفسير للحادث يؤكد تلك الرواية، وغاب الرجل أبو الطفلين فلم يعد موجوداً في سكنه ولم يظهر بالشارع أو المقهى مرة أخرى، ولم يكن له أسرة نعرفها ولا زوجة، فأغلق سكنه ولم يشغله أحد.

هؤلاء الذين يغيبون بعد الحوادث يدفعونني دوماً للبحث والاستقصاء، منذ ضياع مهاب، وكلما ذهبت لمتابعة حادث كي أكتب عنه، أجدني أبحث عنه في وجوه المحيطين، ورغم مرور السنوات وتبدل الشكل والتحول في مراحل العمر فأنا أحفظ شكله، هذا الجرح الذي شق جبينه من الجهة اليسرى وقت كنا نركض فتعثروا وسقطوا على حافة الرصيف، يومها خاطوا له الجرح بست غرز ذابت منها ثلاث غرز وبقي ثلاث بارزة فوق حاجبه.

مهاب الذي تركه أبوه جنيئاً في بطن أمه وسافر إلى العراق ضمن من سافروا ثم لم يعد، ظل يرسلهم سنوات من بعد مولده، ويحول لهم أموالاً، فاشترت

أمه حينها البيت الصغير لتسكنه وجاءت بصديقتها المقربة لتسكن معها، تلك الصديقة كانت أمي وهما تتشابهان في ظروف حياتهما، أنا ومهاب أبناء ظروف متشابهة.

أمه وأمي يحملان من التعليم شهادات متوسطة، وقد منحتهما النشأة ثقافة مختلفة، ذلك ما جعلهما تصمدان للأحداث الجسام.

ضاع هو دون أن يرى أباه، وعشت أنا وكبرت فلم أعرف أبي الذي سافر ثم عاد جثماناً في تابوت، ولا أعلم كيف مات هناك، وهل جاء مع جثمانه ما يخبرنا عن حياته وأسرار غيابه؟

هل كانت تلك التي تصلنا رسائل أبي أم أنها وسيلة اصطنعتها أمي كي تجعلني مكتملاً، وأنا لم أشعر يوماً أنني مكتمل، فلا أنا عشت زمن هؤلاء الذين يفخرون دوماً بانتصاراتهم، أو زمن هؤلاء الذين يناضلون بالكلمة والوعي، ولا أنا عشت ضمن قافلة زمن الثراء المفاجئ.

في مذكرات أمي تكمن الأسرار والحكايا، وأنا لا أدري لماذا كلما بدأت تصفحها أشعر برهبة، فأتركها ولكني دائماً أعود لأواصل قراءتها من جديد.

حين بدأت أعمل على كتابة موضوع عن الأحداث التي تنسب للمجهول أو للقوى الخارقة أو يكون الفاعل محتلاً عقلياً، حينها دخل بهاء من باب السطح إلى مكان جلوسي، قطع استرسال الأفكار في رأسي بهمجيته وضحكه وجلس في مواجهتي، في الوقت الذي أعتقد أنني لست بحاجة له،

فقد مضت الأحداث ونسيها الناس، تركته وتشاغلته بحديث إلكتروني مع فتاة تقول أنها قريبتى من ناحية الأب، لا أعرف إن كان ذلك حقيقة أم لا، لكنه راقني أن تتقرب إليّ أنثى وتحديثي، لذا وددت لو انصرف بهاء وعاد لاحقًا، ولكنه قام ودخل المطبخ لصنع كوبين من الشاي كما اعتاد عند زيارتي وعاد بهما ويبدو أنه أحس انشغالي فتركني وحمل كوب الشاي الخاص به وتمدد على الأريكة وغاب في النوم.

بهاء يعمل بالصيدلية ليلاً، بعد تخرجه من كلية التجارة بجامعة الإسكندرية ظل عامين يبحث عن عمل، ولما لم تتوفر له فرصة عمل مناسبة، كان عليه أن يقبل العمل بالصيدلية، في البداية كان مساعداً لصاحبها يضبط حسابات الصيدلية مع موردي الأدوية والمنتجات التي تعرض بها، كما يقوم بترتيب الأرفف، وجرد المنتجات واستلام الأدوية الواردة، وتنظيف المكان، وبمرور الوقت تعلم قراءة الوصفات الطبية وصرفها، صار يدير الصيدلية لبعض الوقت وحده.

العمل بالصيدليات في شارعنا محفوف بالخطر، ويبدو أن اختيار صاحب الصيدلية لبهاء كان مبنياً على دراسة نفعية، ذلك لكون بهاء مولوداً في تلك البقعة، ابن الشارع، يعرفه الناس مختلفو الأهواء، ورغم إنه يصغرنى بسنوات، لكنه خبر الحياة وعلمه الشارع وصقلته الأحداث التي مرت بأسرته.

أسوأ ما يمكن أن يصادفه صيدلي أو شخص يدير صيدلية في مثل شارعنا هم هؤلاء الذين يأتون لطلب دواء بلا وصفة طبية، فبعضهم من هؤلاء الذين يتعاطون العقاقير كنوع من الإدمان، وبعضهم لا يملك قيمة دفع زيارة الطبيب فيأتي ليصف له الصيدلي الدواء، وآخرون من الذين يظهرون بين فترة وأخرى يغيرون على بعض المحال التي يمتلكها المسيحيون من سكان وتجار ذهب وصيادلة أيضًا يسلبون أموالهم.

ما صادفه بهاء في مسيرته من أحداث ومشكلات جعله يترك كل حدث لحينه، وهم هنا في الشارع يشيرون أنه أبرم معاهدة مع المدمنين ألا يقربوا المكان الذي يعمل به وقت حاجتهم للجرعات، كيف قبلوا ذلك وكيف يدركونه وهم في ذروة الألم والحاجة لجرعة من العقاقير؟ لا أحد يدري، لكن الواقع أن بعض هؤلاء كانوا رفاق طفولة له، وقد انخرط بهم مسار الحياة، وكذلك كان له من هؤلاء المتشدددين التكفيريين رفاق دراسة وطفولة أيضًا.

بهاء هو الأشهر في عائلته التي انقرضت، كان له من الإخوة اثنان طوتهم الغربة فلم يعودا وضاعت أخبارهما، وثلاث من البنات ماتت منهن واحدة، أما والده عم جمعة فهو أحد الأبطال الذين خاضوا الحروب وعركتهم التجارب، حتى إذا تقاعد بعد انتهاء الحروب وإبرام اتفاقيات السلام، عاش يجالس الرفاق في مقاهي شارعنا الصغيرة حتى غيبه الموت، لم يعد من جيل عم جمعة ورفاقه المناضلين سوى عم جابر مرارة، وعم

إسماعيل بغدادى الذي بدله الحادث القريب فأصبح محاطًا بغموض مصطنع.

لا يزال بهاء نائمًا وقد أنهيت أنا حديثي مع الفتاة التي تواصلت معي عبر شبكة الإنترنت زاعمة أنها قريبتى، وأبلغتني في نهاية الحديث أن أنتظر منها مفاجأة، حينها سأعرف المزيد عنها وعن صلة القرابة بيننا. تململ بهاء في نومه فوجدتها فرصة وقد تفرغت للحديث معه، فأعددت بعض الأطعمة، وتجهزت للاستماع له، جاء حديثه مخالفًا لتوقعاتي، حين بادرنى بالحديث عن غالية:

- أنا شفت غالية يوم الحادث.

لم أجد ما أعقب به، فاتخذ دور الناصح يحذرنى من الاستمرار في علاقتي بها، هو يعرف بعض تفاصيل حياتي، وأنا لا أرغب الآن في إضفاء أهمية على ملاحظته، فأومأت له بلا معنى، وتركته يستفيض في حكاياه.

- تعرف يا حسين إن أنا وأنت في بيتنا حاجة مشتركة؟

هكذا تدرب بهاء على شد انتباهه من يحدثه، أن يجد عاملاً مشتركاً يربطه به. بهاء الابن الاصغر لعم جمعة المحارب القديم، الذي ثقف نفسه بنفسه، وعاش بين أقران يماثلونه ويجمعون معاً في بيته أو في مقهى عم جابر مرارة، وهما من معالم شارعنا التي انقرضت فما بقي منها سوى مقهى مرارة محتفظاً باسمه أما بيت عم جمعة، فقد ارتفع عمارة عالية و تم تقسيم وحداته بين المقاول والورثة، لبهاء شقة سكنية به.

كنت أعرف التفاصيل المتشابهة بيني وبين بهاء دون أن يذكرني بها، ولا أدري ما دوافعه لجذب تركيزي وتعاطفي بما سيحكي، لكنه بدا متأثراً وحزيناً حين بدأ حديثه عن أسرته.

بهاء بحياته المتشعبة وحبه للشارع والناس ومرحه الدائم يبدو رجلاً بلا مسؤولية، والحقيقة أنه يحمل تركة عم جمعة بثقلها في الحفاظ على بقايا الأسرة مترابطة، بعد أن غاب حسام مهاجراً إلى أوروبا في منتصف التسعينيات، ومن قبله كان أشرف قد خرج مع من خرجوا إلى العراق، وتباعد تدريجياً حتى غابت أخباره، فرحل أبوهم عم جمعة ورحلت من بعده والدتهم دون معرفة شيء عن ولدهم الغائب أشرف وفي غياب الابن الأكبر حسام، وانتقل بهاء إلى موقع ولي الأمر لأخواته وبناتهم.

- كلمني عن حادث يوم الجمعة

يصمت بهاء قليلاً، ثم يواصل حديث ذكرياته كأنه لم يسمع طلبي، يذكر تلك السيدة التي كانت حبيبة لأخيه أشرف، وكيف أنها انتظرت طويلاً فلم تتزوج، والآن هي في خريف العمر وحيدة ربما لا تزال تنتظر، كنت أعرف تلك السيدة الوحيدة فهي لا تزال تشغل وحدة سكنية من العمارة التي أسكنها.

- إيه الي ييفكرك بيها دلوقت؟

- قابلت يوم الحادث شخص كان يبسأل عن حسام أخويا، وعلشان المستجدين على الشارع ميعرفوش حسام، الراجل مشى من غير ما يستدل

علينا ورجع بعد أيام كان يدور عليّ، قابلته ع القهوة، و بلغني إنه يعرف أشرف قابله مرات في بلدان مختلفة من دول الخليج.

- إيه الجديد في الأمر يابها؟ أنت عارف إن أخوك بيعيش في العراق من زمان، وربما استدعت ظروف شغله إنه يتنقل لبلد غيرها.

كنت أحتاج لصفاء ذهني حتى أرتب أفكاري في تلك الأوراق التي يلقيها بهاء أمامي، ما الذي يقصده، حين يتحدث عن ظهور أخبار عن أخيه وقت زحام الحادث، ازدحمت الأفكار في رأسي، وساد بيننا صمت ثقيل، قطعه بهاء بقيامه للاستعداد لعمله ليلاً بالصيدلية.

غبت ليلتي أقلب الأفكار وأستعرض الأحداث، وقمت لأكتب عن حوادث المركبات الصغيرة (التوكتوك) وما يصنعه بعض الذين اتخذوها وسيلة لأعمال مخالفة للقانون، اتخذت لها مدخلاً من جريمة خطف حقيبة سيدة بواسطة أحد هؤلاء الصبية المارقين، فتحت بريدي الإلكتروني وأرسلت الموضوع إلى الجريدة، وغبت أعبت بمحادثات على الشبكة العنكبوتية، حتى إذا انتصف الليل، فاجأني رد السيدة رئيس التحرير برفض الموضوع، دون إبداء أسباب أو طلب موضوع تقترحه هي، أو سؤال عن حادث الجمعة، بعد طول سهر قررت السفر بنفسني إلى القاهرة، أقضي يومين أزور الجريدة، وأقابل الأصدقاء في مقر نقابة الصحفيين بوسط المدينة، و ربما أفاجئ تلك الفتاة بدعوتها على فنجان قهوة بنادي النقابة المطل على القاهرة من أعلى حيث يلتقي الزملاء والأصحاب والرفاق، وبهذا أكون قد

سبقتها بالمفاجأة، حرصت على البقاء يقظًا حتى الصباح كي أتمكن من اللحاق بقطار الثامنة المباشر إلى القاهرة، فلم تزعجني المهاتفات الليلية من الأصدقاء واتخذتها وسيلة لتمضية الليل واعيًا.

قبيل الفجر جاءني على الهاتف رسالة من بهاء:

- أنت صاحي؟ عايز أتكلم معاك

طلبتَه على الهاتف، كان كعادته يود لو تحدثنا معًا ليأتنس بي ويمضي ساعات العمل الليلي الذي يكون هادئًا أحيانًا رغم استمرار الحركة التي لا تهدأ بالشارع، بدا حديثنا ذو شجون عن الراحلين والباقيين من الأهل والصحبة والرفاق، لا يخلو من مزحة أو طرفة عن أحدهم، وجدتُها فرصة لأبلغه أنني متوجه إلى القاهرة صباحًا وسأغيب يومين، أعاد عليّ قولي للتأكيد:

- أنت كده من بدري هتكون على الطريق، لو قلت لي كنت جهزت نفسي وجيت معاك؛ بقالي كتير مزرتش القاهرة.

كنت أستعد لتوجيه دعوة له بالذهاب معي في المرة القادمة لولا أنه قطع حديثي بسبب شخص يتوقف عند باب الصيدلية ينصت للحديث بيننا، أسرّ إليّ بهمس أن الرجل الذي يقف منتظرًا يبدو حريصًا على سماع ما يقول، ولذلك توقف قبل أن يدخل لطلب دواء، داعبته بسخرية من شكه في تنصت الرجل على حديثنا

- يتصنت على إيه؟ هو حديث عاطفي؟، متكونش فاكر نفسك بنت خالتي ولا صاحبتى؟

أنهيت المحادثة وراح هو يقوم بعمله في صرف دواء أو تلبية طلب الرجل، أعددت ملابسي وحقيبة يد صغيرة فيها قليل من احتياجاتي الضرورية، ضبطت منبه الهاتف، وتركت نفسي لإغفاءة على المقعد، اختلطت فيها أحلام اليقظة بهذيانات النوم، كنت أحاول رسم شكل للمفاجأة لفتاة الحديث الإلكتروني، فتدخلت مع لقاء السيدة رئيس التحرير، وما أتوقعه من تأنيب، أو تجاهل، ثم تدخلت الصور مع يوم الحادث وما تبعه، ولم تخلُ مشاهد النوم من حضور غالية بهدوئها الماكر وغوايتها المتسلطة، لم تكن اليقظة كاملة منذ دق منبه هاتفي حتى وصولي لمحطة القطارات. لا أدري منذ متى يجلس هذا الرجل في المقعد المجاور لي، وأنا منذ ناولت بطاقة حجز المقعد المخصص لي لعامل التذاكر ففحصها وأعادها لي، استغرقت بعدها في نوبة نوم من الدرجة الخامسة التي تقترب كثيرًا من النوم العميق.

فلما صحت تشاغلته عنه بمتابعة الطريق حيث سهل لي ذلك جلوسي بجوار النافذة الزجاجية، وظل الرجل يدفن وجهه بين دفتي كتاب، ثم يقوم يتشاغل بعيدًا بحديث هاتفي، ويعود بعدها لا ألتفت إليه.

العاشرة وثلاثون دقيقة صباحًا وتلك أبواب الحديد الفاصلة بين محطة القطار والمدينة المزدهمة ليلاً ونهارًا، أن أستقل وسيلة مواصلات في هذا

الوقت إلى الفندق الذي اعتدت ارتياده فذلك يعني أن تستغرق ضعف الوقت الذي يمكن أن أصل فيه سيرًا على قدمي، رغم أن السير محفوف بزحام باعة الأرصفة وعبور الطرقات بلا إشارة، لكنه بالنسبة لي عمل محفز للخيال كونه مفعماً بالمشاهد المتناقضة والحركة والأحداث الحية ونماذج من الناس لا تجدهم في الأوقات العادية، القاهرة كلها مدينة جمال عادي مدهش، ورغم أن الفندق الذي أنزل به من فنادق الثلاث نجوم، لكن وجوده بوسط المدينة يجعله أكثر من رائع.

شغلت بتفاصيل الزحام حتى قاربت المكان أمام دار القضاء العالي، بضع خطوات وأنحرف يمينًا قليلًا لأصل إلى وجهتي، ألتفت للتأكد من علامات المكان فوجدت نفس الرجل الذي جاورني في القطار متوقفًا خلفي، قفز إلى ذاكرتي رفيقي مهاب، لكنني الآن أمام رجل يبدو أكبر مني سنًا، حسمت أمري وعدت خطوات لأفتعل حديثًا معه، أسأله عن عنوان ما أين أجده، عن متجر، أو حتى عن وجهة معينة كيف أصلها، حينها مرت حافلة ركاب بالأجرة، أسرع يستقلها ليمضي.

تفاصيل ملامحه، وجهه الذي نحته العمر، عيناه الضيقتان، ذقنه التي غطاها شيب خفيف، جبينه العريض بعلامة جرح خيط بدون تجميل، ناديته باسم مهاب مرات وركضت قليلًا على الرصيف بمحاذاة المركبة التي استقلها، وقتها انسابت حركة المرور فزادت سرعة مرور السيارات وغاب.

لا تزال الأيام تحفر داخلنا علاماتها، ونبدو وكأنه لم يصبنا جرح.
تلك الكلمات التي صادفتني، وأنا أفتح الحقيبة التي جمعت بها أشياء
القليلة حين فاجأني عطر أمي، وجدتي قد تركت المذكرة الأولى لها بحبيب
الحقيبة التي حملتها.

مذكرات أمي مقسمة على عدة دفاتر، ميّزتها بالأرقام، وهذه التي معي هي
أكثر الأوراق التي ألامسها كلما قررت القراءة، لذا فربما وضعتها في
الحقيبة في وقت سابق وأنا أراجع عن كشف ما بها.

الآن لا يزال أمامي ساعات حتى أتمكن من لقاء السيدة رئيس التحرير،
ولا أرغب في إرهاق ذهني بتوقعات الحديث معها، سأترك كل شيء لحينه،
وأجرب الغوص في تلك الأوراق لأعيش تلك الحيات التي وثقتها أمي في
سطورها هكذا كما تقول:

تملك الأوراق حيات متعددة ومختلفة، تحملها بين طياتها، وكلما لامست
سطوراً بُعثت وانتفضت كائنات تعيد سيرتها، وأنا أعلم أنها حين تبعث
ستكون جسور وصل بين ما كان وما سيحدث فيما بعد، ولعلك يا ولدي
تكملها لتكتمل لديك الصور.

حين جننا صغارًا بصحبة أسر تبحث عن مأوى متواضع بتكلفة قليلة،
أذكر الفضاء المترامي أمامنا رمالاً حين نزلنا من قطار أبي قير وولينا
وجهنا شطر الجهة القبليّة، نسير وأقدامنا تغوص في الرمال، أركض وأنا
أمسك جلاباب أمي وهي تركض خلف أبي حاملة على رأسها سلة من
الخصوص تحوي ما نملك من ثياب وبعضاً من طعام جاف.

انتهى بنا السير قرب سقيفة من سعف النخيل والغاب، هناك استضافنا
رجل قوي البنية، علمت بعدها أنه يدعى جابر مرارة، صعيدي الأصل،
قوي الشخصية.

قادنا بعد أن استرحنا إلى بيت صغير من طابقين، أحدهما أرضي وهو الذي
استأجرناه، والطابق العلوي يسكنه أصحاب البيت، وتترامى البيوت
الصغيرة من حولنا، شأنها شأن البيت الذي استأجرناه، ولعم جابر مرارة
بيت مواجه لنا وفيما بعد جاء عم جمعة واتخذ له قطعة أرض واسعة وبني
بيتاً صغيراً في نهايتها وأحاطها بسور، وجلب إليها الطمي والسماد وزرعها،
فنما فيها الشجر وأحواض الخضرة وبعض من نباتات الزينة والعطر.

عم جمعة الذي خرج من قريته في محافظة البحيرة حين تطوع في الجيش،
فكان يغيب كثيراً ويعود في إجازات قصيرة، وكما يفعل كثير من الأسر
الريفية التي تجور على حقوق بعض أفرادها الغائبين لسبب ما، عاد جمعة
بعد وفاة والده ليجد إخوته قد سلبوه حقه في الميراث، حين انتهزوا فرصة

مرض والده، ووقعوا معه عقد بيع ممتلكاته لهم، دون أن يختصوه بنصيب منها.

يغيب الأبطال في الحروب وينهش الطامعون حقوقهم، لكن الطعنات لا تكسر الأشداء، الذين خبروا كل صنوف المخاطر، وسلكوا الطريق الصعب وعادوا أبطالاً، هؤلاء أمثال عم جابر وعم جمعة اللذين جمعتهما سنوات التجنيد التطوعي.

بلادنا يولدي خاضت حروباً، أبطالها يعيشون الآن بيننا يجترّون ذكرياتهم، وربما لا يجدون من يستمع إليهم، فيكتفون بنياشينهم المعلقة على حوائط بيوتهم، يستعيدون معها شريط الأحداث.

جاء عم جابر بعد سنوات الخدمة والحرب حاملاً مكافأة نهاية خدمته بالجيش وبعضاً من أموال ميراثه، واشترى قطعة الأرض التي أحاطها وغطاها بالخوص وجعلها سقيفة يستظل بها عمال البناء المنتشرون في هذا المكان لتعميره يأكلون ويشربون الشاي والقهوة في وقت الراحة، ويجمعون تحتها في أمسيات الصيف يتسامرون.

وحين أصيب عم جمعة وتقاعد لحق بصديقه، وعمل في مهن شتى حتى تمكن من شراء قطعة أرض بنى عليها بيته.

غدت سقيفة عم جابر مرارة مقهى يجمع الكادحين وأبناء المهن، والعائدين مساءً من أعمال في وسط المدينة، يلتفون في حلقات يتحدثون كل في شأنه.

بداية الثمانينيات، كبرنا وكبر المكان أصبح الصبية رجالاً يشاركون الآباء في الجلسات، وتميزت حلقة للرجال كان نجمها عم جمعة أبو ناصر، ولعم جمعة أبناء يشاركونه الجلسة، وأنا وبناته نتابع الحديث من غرفة مجاورة ونمدهم بالشاي والقهوة، تكبر الجلسة وتنض القلوب.

ثلاث صديقات لا يفترقن، وفيه وساء ورضوى إلى جانب بنتين لعم جمعة تزوجتا في سن مبكرة من شقيقين هما من أقارب عم جمعة.

لم أكن أعرف أباك جمال حين تقدم لخطبتي، لكنه بدا شخصاً مقبولاً ارتضاه أبي زوجاً لي، وأحبت رضوى عليّ والد مهاب وتزوجته، أما سناء فلم تكتمل قصة حبها لأشرف الذي عشق السفر والترحال من بعد تخرجه من كلية الحقوق، يغيب ويعود ليستقر قليلاً ثم يعاود السفر، وسناء لا تملّ من الانتظار، حتى غاب ولم يعد.

تلك مرحلة ياولدي أخذت من عمر النساء الفرحة، وتركتُ لهنّ ليّلات الوحدة فتساوين جميعهن، من تزوجت ثم سافر زوجها، ومن هجرها حبيب وسافر.

ولعلك حين تقرأ مذكراتي هذه ربما تكون شغوفًا لمعرفة ما كان، وربما يصيبك الملل فتتركها، لكنك ستجد فيها بعضًا مني، يقودك للكثير مما تبحث عنه.

لذا أنا أهتم بتسجيل تفاصيل المكان والناس وأعرف أنني سأرحل يومًا ولن أترك سوى الذكريات والصور والحكايا، حين لا يكون هناك الكثيرون ممن يعرفون المكان والناس كيف كانوا وكيف أصبحوا.

.....

أوشك النهار على المغيب وأنا شارد في مذكرات أمي، وإشعارات هاتفي، طلبت الجريدة كي آخذ موعدًا لمقابلة السيدة رئيس التحرير، حددوا السادسة مساءً، كتبت رسالة على البريد الخاص لسمية التي تزعم أنها قريبتي، أبلغتها أنني في القاهرة لو شئت نلتقي في نادي النقابة، وقمت أستعد لموعدي.

غرفتي المتواضعة بالفندق تطل على شارع جانبي تحول إلى سوق من كثرة ما به من دكاكين وباعة على الأرصفة، ومطاعم شعبية، جلبت إلى الشارع القطط والكلاب التي لا تكف عن النباح كلما حدث ما يستفزهم، كانوا في بداية زيارتي لهذا الفندق يقلقون نومي.

توارت مداخل البنايات خلف الزحام، لدرجة أنني أتشاغل بالبحث عنها من خلف النافذة حين ألمح حركة أحد السكان في الأدوار المواجهة.

ارتديت ملابسني ووقفت ألقى نظرة على الشارع قبل نزولي، أختبر الحركة والزحام، رغم معرفتي بأن الشارع لا يهدأ ليل نهار، وحين التفتُ لأتحرك واجهتني صورته على زجاج النافذة أمامي، دققتُ النظر حتى أتبينه، كان ثابتًا وكأنه صورة معلقة، هل كان يراني؟ هل جاء لمتابعتي؟ أم تصادف وجوده في المكان نفسه؟ هل هو حقًا هو أم شُبّه لي؟

ألقيت بنفسي على مقعد قريب ووضعت رأسي بين كفّي ألملم ملامح مهاب الغائبة بقدر سنوات الافتقاد، الوجه تتبدل بتطور مراحل العمر، تبرز الجباه أحياناً، تجحظ العيون، و تفعل السمنة أو النحافة فعلها بالأجساد، لتبقى الأرواح شاهدة على أول صيحة في الدنيا، تمنح نبر الصوت علاماته، وتعطي لغة الجسد علامات الترقيم، كان رأسي يموج بالأفكار، واختلطت ذكريات أُمي بتفاصيل الحياة في طفولتي.

منتصف الثمانينيات حين قرر أبي السفر ليلحق ببعض رفاقه الذين أتعبتهم تكاليف الحياة، تقول أُمي أنني كنت صغيراً أعرف بالفطرة موعد عودة أبي في نهاية اليوم، فأقف خلف الباب، واعتاد أبي أن يدفع الباب برفق منذ أول مرة انتظرته فوقعت، حتى كان اليوم الذي عاد من عمله فلم يجدني في انتظاره، قالت أُمي إنني شغلت مع أبناء الجيران بمشاهدة التلفاز الجديد لديهم، لم نكن نملك جهاز تلفاز، كان الراديو الصغير فقط هو تسلية أُمي، ويتوقف عمله حين عودة أبي منهكاً في المساء، والوقت كله مكرس لراحته ورعايته.

عاد أبي في اليوم التالي حاملاً جهاز تلفاز قديم، اشتراه بالتقسيط، وذلك أغضب أُمي كونه سيقترض من مخصصات المعيشة لدفع قسط شهري، لكن فرحتي بالشريك الجديد في البيت ذلك الذي ينقل لي عوالم أخرى، تلك الفرحة كانت كافية كي تمسح أي تأثير بنقص في حوائج الحياة، مضت الأيام الأولى بفرحها، حتى كان ذات مساء فاجأ أبي والدتي بقرار السفر.

نحن جيل ولد في الثمانينيات من القرن العشرين؛ ولم يشهد من حياته الأسرية الكاملة لأبوين سوى سنوات الطفولة الغضة؛ بل ولد بعضنا في غياب أبيه، تربينا على رسائل الآباء البريدية ورسائلهم الصوتية التي يسجلونها ويرسلون بها مع القادمين في زيارات، صار الآباء كتابات لم نكن ندرك قراءتها، وأصوات تأتينا عبر جهاز جديد أضيف لمقتنياتنا؛ نضع فيه الشريط المرسل فنسمع الصوت القادم من بعيد، وكذا كانت لنا الأموال أيضاً التي ننفقها ونعيش منها.

الآباء ضيوف يأتون مرة في العام، ثم يغيبون، كنت أبكي في البداية، ثم اعتدت غيابه حتى أصبح حضوره ثقیلاً كونه يبدل نظام حياتي ويأخذ من وقت أي ویشاركني في نصيب من رعايتها، ويفرض عليّ التزامات وقيوداً. صرت لا أحسب لموعد حضوره ولا أتلهف لرؤيته، تلاشت صورته من ذاكرتي، حتى غاب تماماً، كيف؟ لا أدري، لم تحك لي أي بل حرصت على ألا أشعر بحزن أو فقدان، ولم تتركني أعيش طقوس رحيله النهائي وسط ضجيج العزاء، بل أرسلتني حين جاءها الخبر إلى بيت عم جمعة، وهناك لم يكن أحد يهتم بوجودي لانشغالهم في حدث قادم، كنت ألهو في حديقة البيت حين علا صياح المولود الجديد بهاء، مضت أيام ثلاثة حتى جاءت أمي لتأخذني، لا أدري إن كان جثمان أبي قد جاء ودفن هنا أم أنه لم يأت وبقى مغترباً.

لا حاجة بي أن أعيد قولاً مكرراً في مثل حالتي أن أمي أصبحت أمّاً وأباً، كذلك كانت والدّة مهّاب صديقي المفقود، وأنا لا أعلم كيف غاب زوجها، لكنهم قالوا إنه قتل بأرض العراق، مرت سنوات حتى جاء من زعموا أنهم عرفوه هناك وقد تزوج من سيّدة عراقية كان يدير لها تجارتها، لذا كان يغيب طويلاً دون زيارات لأسرته هنا، حتى الآن وبعد مضيّ سنين، فالسيّدة رضوى لا تعلم حقيقة غياب زوجها عليّ، ويبدو أنها موصومة بغموض غياب الأحبة.

أوجعتني الذاكرة وأثقلت رأسي كيف أنهض الآن للخروج وللحاق بموعدي، وكيف أترك المكان وخلف الزجاج المواجه لي يتحرك شبح قريب من الحقيقة؟

قمت بتكاسل وألقيت نظرة سريعة على النافذة المواجهة لي، وجدتّها مغلقة بالزجاج والخشب، فمضيت أحمل توترات يومي.

لا أحد يستطيع التكهّن بحال السيّدة منال، ولا أحد يملك لك نصيحة الزمالة وأنت قادم لمقابلتها، فربما كانت منذ قليل تستقبل من سبقوك ببشاشة، ثم تغيب عنها بشاشتها في استقبالك، سيّدة من طراز عجيب، قد تسمع ضحكاتها رنانة وأسطورية مع محدثها على الهاتف ثم تفاجئك بوجه عبوس حين تطل عليها زائر عمل.

أسير بين ردهات المكان، تطالعني وجوه الزملاء العاملين في الجريدة، إداريّون، بعض الصحفيين، وكتاب الأعمدة، وهناك أيضاً الفنيون

والعمال، كل يسير لشأنه، تراهم يلهثون في الطرقات الضيقة، ويتشاغلون عن رؤيتك، يفتعلون الانشغال بأمر مهم، لا تستطيع أن تلتقط من أحدهم إجابة تحية أو سؤال ألقيته عليه فيرد وهو يسرع مبتعدًا، لا شيء يوحى بما ينتظري هنا.

أدق الباب وأسمع صوت السماح بالدخول، تشير لي بالجلوس أمامها، وتظل تقلب الحاسوب والأوراق، وأنا أقلب في رأسي الاحتمالات، كوني قادمًا في زيارة طارئة بلا مبرر سوى رفض موضوع صحفي تقدمت به، ولا أحمل مقترحات لموضوعات قادمة.

أجلس أمامها صامتًا، بيد أن عقلي يجيش بالأفكار، أفكر أحيانًا في قوة شخصيتها، ثم تأخذني الأفكار إلى كيف تعيش هذه السيدة هكذا بين الناس، هل لها وجوه أخرى غير هذا الوجه المتجهم الذي نراه أمامنا حين نواجهها، كيف يكون وجهها حين تطلق ضحكاتها عبر الهاتف، وحين تهمس بهدوء لمحدثها، قادني خيالي الماجن إلى تجريدها من كل ملامح القسوة والغلظة، فألبتها دلال غالية ومكرها المستفز للغرائز وأحطتها بمشهد غرفتي، وتركتها تتحرك أمامي، وأغمضت عيني، وسبحت في خيالاتي.

- هات له قهوة وهات لي لمون

- حاضر يا أفندم

انتبهت من خيالاتي فوجدت العامل ينظر لي بحسد ويسألني:

- بتشرّبها إيه حضرتك؟

كنت أدرك أن العامل يتعجب، كيف تطلب السيدة منال قهوة لمراسل صغير مثلي، وهي التي تقضي يومها تأمر وتنهاي وتتحدث بغلظة وتعامل المرؤوسين بتعال، ورغم حاجتي لفنجان قهوة مضبوط فقد أفقدني طلبه نعومة الحياة بخيال ماجن في وقت التجهم والعبوس.

- كنت نايم؟

- لا لا يا أفندم...

أعددت نفسي لسماع توبيخ ولوم تلحفت بالصبر ولبست قناعاً بلا انفعالات، وعيوناً غابت عنها التعبيرات، كانت أصابعها لا تزال تعبث بالأوراق، وأنا لا أجرؤ على فتح باب الحديث.

- أنت مراسل كسول

- يا أفندم أنا أرسلت ...

- الأيام الجاية مشحونة بالأحداث ولازم متابعة دقيقة

- يا أفندم حادث الانفجار عدى كحادث عابر، كنت منتظر تطلبي مني تفاصيل أكثر

غابت تدق على زجاج مكتبها بحركة عصبية ثم قامت تتحرك جيئة وذهاباً في المساحة المتاحة أمام المكتب فأصبحت رهن رؤيتي، بقوامها المشوق في إباء، وشعرها المعقود، وملابسها المحتشمة تبرز التفاف قوامها في هدوء متوثب.

هذه هي المرة الأولى التي يخونني وعيي المتعقل في حضرتها ويسلمني لخيالات جنوني.

- إحنا داخلين على مرحلة فاصلة

هذه العبارات الرنانة أسمعها دائماً، في كل المناسبات والأحداث، صارت تبريراً لكثير من المواقف، نحن بانتظار أحداث سوف تغير كثيراً من الثوابت، هكذا يقال وهكذا أسمع الآن، فمنذ خرجت للحياة في بداية الثمانينيات من القرن الماضي حتى الآن وقد دخلنا الألفية الثالثة لم يشهد أحد تغييراً، وتمضي الحياة ونحن نعاني من تبعات ثوابتها، كان من الممكن أن تمر تلك العبارات عليّ مروراً عابراً، لولا حادث شارعنا وما أحاطه من تفسيرات واهية وغيبية وغموض، والآن تقولها هذه السيدة الجادة والتي لا تفوت خبراً أو حدثاً حتى لو بدا عابراً أو بسيطاً.

عادت إلى مكتبها وتأملتنني برهة ثم فاجأتني بسؤال:

- لمن الخيالك؟

لم أكن أدرك مغزى سؤالها، فقلبته في ذهني في لحظة صمت، لم أكن أدري أي الإجابات ترضيها، وقبل أن أقرر إجابة حيادية، سألتني:

- بتكتب لمن وإيه هدفك؟

- أكتب عشان أوثق الحدث

- لمن؟

- سيدتي أنا بحب المهنة دي وأكتب للناس على اختلاف طوائفهم وعقائدهم، ومش منضم لفئة بعينها، حضرتك عارفة أنني من عامة الناس، ومكاني بينهم في شارع مليون بالأحداث ليل نهار حتى وإن كانت الأحداث تبدو عادية.

- ده الي أنا عايزاه، دلوقتي تروح وتوعدي إنك متسبش حدث بدون كتابة، اكتبه زي ما أنت عايز، وابعته، مش كل الأحداث قابلة للنشر في موعدها.

كنت أهم بالتحرك حين باغتني بمفاجأتها:

- انتبه أنت مبقتش صحفي بالقطعة، أنت معين معنا بالجريدة براتب شهري، وهيتم تخصص عمود أسبوعي لك تكتب فيه عن الناس وقصصهم.

فاجأني الخبر وأسعدني لكن عبارات الشكر تلعثمت على شفتي، فتمتت بحروف غير مفهومة، وأومأت برأسي تحية ومضيت، لم أنس أن أمرّ على الحسابات لأتقاضى أجري عن الفترة الماضية.

.....

في الطريق إلى النقابة، هاتفت سمية كي أؤكد لها الموعد فلم ترد، المسافة بين مقر الجريدة والنقابة ليست طويلة، والسير مهما تعرقل في زحام الطريق أسهل من الجلوس في مركبة تحمل ركابًا آخرين، وتتوقف كثيرًا بسبب التكدس.

شعرت بالجوع ومنيت نفسي بوجبة ليست كما الوجبات السريعة، فأنا أفضل أن يكون طعامي مطبوخًا في البيوت.

استراحة النقابة بالدور الثامن في مبنى قديم بوسط المدينة، ترى الكثير من معالم القاهرة، يلتقي فيه الصحفيون الأصدقاء، ويقابلون ضيوفهم أحيانًا، ويستريحون فيه من عناء يوم بين الطرق والمواصلات، أسعار الخدمة والطلبات هنا مقبولة بالقياس للمقاهي والمطاعم الخاصة.

طلبت أرزًا ولحمًا، وخضارًا متبلاً طهيًا على البخار، كنت آكل بشهية جائع، رفعت ملعقة الأرز إلى فمي مع ارتفاع وجهي وعيني، وجدتها تقف أمامي، سمراء قاربت الثلاثين، عيناها تفيضان بالجرأة، وشعرها المجدد تطلقه عجزياً، انتظرت أن تبادرني بسؤال أو طلب، لا يبدو عليها أنها من موظفي المكان أو العاملين بالمطعم.

- شكلي جيت في وقت غير مناسب

- اتفضلي

كانت قد جلست فعلاً في المقعد المواجه لي، وراحت تعبت بأوراق أخرجتها من حقيبتها، وأنا متوقف عن تناول طعامي الذي اشتهيته، ساد صمت قطعته بمد يدها بصورة ناولتها لي.

الصورة قديمة لشابين مجندين بزي عسكري، أحدهما أسمر وسيم وطويل، والآخر متوسط الطول بشعر أسود ناعم، تفحصت الصورة فلم أفهم شيئاً.

- عارف مين الاتنين دول؟

دققت النظر في الصورة، كنت أشعر بخيط يربطني بهذا الرجل ذي الشعر الناعم، ملامحه التي غابت في أغوار الذاكرة بدأت تطفو من جديد فينقشع عنها الضباب وتتضح معالمها.

- ده... أبويا؟

- وده والدي

- سمية؟

ابتسمت، وطلبت طعاماً مثل طعامي لتشاركني، أما أنا فلا أدري ما الذي جعلني أشعر بالامتلاء، فقط كنت ألتهم ملامحها هذه التي قالت إنها قريبتي، كمن يتلذذ بفك مكونات الطعم وإرجاعها إلى عناصرها الأولى، أنفها الدقيق يشبه أنف أبي، عيناها الواسعتان، لمن إذن شعرها المجعد؟!

- أنت قريبتي من جهة الأب؟

كنت أسألهما بشغف الذي وجد له أهلاً بعد طول توحيدٍ، بفرحة المغترب العائد إلى وطنه، وأنتظر إجابة تشدّ وثاق القرب، وهي صامتة منهمكة في تناول طعامها حيناً، وحيناً تتركه وتقلب أوراقاً وصوراً ثم أخرجت صورة أخرى، تجمع أبي وأباها مع رفاق مجندين وهم يعتلون دبابة ويشيرون بعلامة النصر.

- دي صلة القرابة بيننا.

تأملت الصورة وأيقنت أنني أمام أنثى مختلفة، هل تقصد أن فترة التجنيد التي جمعت بين أبوينها هي صلة القرابة، أم أنهما كانا على قرابة حقيقية؟ تركتني قليلاً في افتراضاتي حتى تأكدت أنني أرغب في تأكيد فهمي، بادرتني:

- أبويا وأبوك ضمن جنود حرب النصر في أكتوبر، دي صورة لهم بعد العبور، أبويا أصيب وقت قيامهم بعملية تطهير حربية، أبوك نقله للمستشفى الميداني، كان أبويا قرب يموت لما إداله أبوك من دمه.

شعرت بالالاكتفاء ولم أرغب في المزيد من معرفة نوع القرابة التي تربطنا، قررت ألا أسألهما مرة أخرى وأكتفي بأننا أقارب دم دون نبش في التسلسل العائلي لأي منا.

مرت ساعة وأنا أجلس في حضرة تلك الأنثى المتفردة، حكّت كثيراً واستمعت، خاضت في تفاصيل شتى عن عائلتها، أمها التي رحلت مبكراً،

نساء عائلتها اللاتي تولين رعايتها، عمتها التي هي أحب الأقارب إليها، والدها الذي يعتبرها سنده بعد أن غاب شقيقها الذي لم تره ولا تعرفه. أن تجلس في حضرة أنثى مثلها لا يمكنك مقارنتها بغيرها من النساء، فلا شيء يعتريك مما قد يحدث لك وأنت تجالس إحداهن، في الحقيقة مرت غالبية بخيالي مرور الومض الخاطف، كما راودتني خيالاتي باستدعاء منال رئيس التحرير، ولم تلبث أن غابت، كنت لا أجرؤ على تخيلها كأنتى مشتة، تعبت بها خيالاتي الماجنة.

- ربما تتساءل إزاي وصلت لك وليه؟

الحقيقة أنني من غرابة الصدف في يومي هذا غابت عني التساؤلات، وتركت للوقت تفسيرها، فهناك الرجل الذي جالسي في القطار ولم أنتبه إليه، وحين تبعني اكتشفت علامته الفارقة، وقد غاب ثانية حتى إذا أطل علي من نافذة أربكني وأنا لا أملك الوصول إليه كي أتأكد، ثم مفاجأة رئيس التحرير لي، ثم لقائي بتلك التي قربتني إليها بوشائج الدم، كلها صدف ساقها القدر إلي فتركت لها فضاءات تفتريتها لتتضح معالمها.

لاحظت سمية أنني لم أعقب فأكملت موضحة:

- وصاني أبويا إني أبحث عن تاريخي، أعرف صلاتي بالناس وأصنع منهم صلات قربي، بس ما قاليش منين أبدأ.

بهدوء أستمع لحكاياها إذ تكمل تفاصيل التعارف بيننا:

لي عمة وحيدة تعيش بالإسكندرية، كانت تزورنا بين الحين والحين، أخبرني أبي أنها جاءت في صباحها لترعاني بعد رحيل أمي؛ ثم ما إن كبرت حتى عادت لمكانها، أبي أيضاً سكندري النشأة، أصوله صعيدية.

لذا بحثتُ على شبكة التواصل عن أناس سكندريين ذوي صلة بماضي أبي، ولما جاء بحثي باسم أبيك وجدتك وتأكدت بالصورة أنني وصلت.

سكنت في انتظار أن أعقب على حديثها وحكاياها الفارقة، كيف لهذه السيدة أن تضع نقطة مفصلية على خارطة حياتي في وقت قصير كهذا اللقاء، تجعلني أعيد ترتيب نفسي؛ أنا الرجل الذي قارب الأربعين، ولا يزال يراوده اللهو وتلهو به الغرائز، كيف أجلس في مواجهة أنثى تشغل عقلي وتعطل شهواتي رغم جمالها وقوة شخصيتها.

سأعود إلى الإسكندرية إنساناً آخر غير الذي جاء بالأمس، سأحكي لخالتي رضوى عما صادفته في يومي، لن أخفي عنها أنني رأيت صدفة من أعتقد أنه ولدها، ربما تلومني على إفلات فرصة ملاحقته، وربما تصمت كالمعتاد وهي تسقط حبات المسبحة بين أصابعها وتتمتم.

- بتزوري إسكندرية؟

سألتها وهي لا تنتظر سؤالاً بقدر ما تنتظر حكايا، فاجأتني انها ربما تأتي لتقيم في الاسكندرية.

كنت أنظر إليها وأنا أحزن نوع الوظائف التي يمكن أن تشغلها، ربما تكون مهندسة، أو طبيبة، وقد تكون مرشدة سياحية، مرت بخيالي صورتها في وظائف شتى.

- أنا مدرسة موسيقى ومراسلة صحافية، أنا دخلت مبنى النقابة بسهولة كوني أحمل بطاقة عضوية؟

- نعم إزاي فاتني إن إحنا زملاء مهنة بشكل ما.

قضيت ساعتين بصحبته حتى استأذنت في الانصراف، اجتاحني شعور بالوحدة بعد انصرافها، فكرت أن أخرج لليل القاهرة، أمضي ما تبقى من ليلي في مقهى بوسط المدينة حيث يلتقى الكتاب والمثقفون والصحفيون، تركت المكان وخرجت للشارع، لم أجد في نفسي شغفاً لمواصلة البقاء وسط زحام الناس.

فتحت لي سمية أبواب الماضي، وتركتني لاختياري، هل أنبش تاريخي الذي تجاهلته زمنًا منذ تركنا أبي وسافر، ثم مات دون أن أعرفه، هذا الأب الذي قدمته لي سمية في صورة تذكارية تربط تاريخه بتاريخ الوطن، كنت أراه مجرد أب يخرج صباحًا ويعود مساءً كي يستحوذ على اهتمام أمي، كنت أغار منه، حتى إذا رحل مسافرًا كان يعود إلينا يقضي معنا شهرًا ثم يغيب شأنه شأن رفاق كثيرين له حاربوا وانتصروا ثم سافروا بحثًا وراء الرزق لإعالة أسرهم.

انتبهت بعد حديث سمية إلى أنني لم أكن أجدد ذاكرتي، لم أبحث فيما وراء هذا الجفاء الذي أكنه لأبي، لماذا لم أتعرف عليه حقيقة، وركنت إلى الطريق الأسهل وهو أنني ابن لأب غاب ولم أعرفه، الآن فقط أبحث عنه، وهو بين يدي في أوراق أُمي.

عدت إلى الفندق الذي أقيم فيه، مكتفياً بما صادفته من مفاجآت بعد أن ازدحم يومي بالصدف.

فاجأني موظف الاستقبال بالفندق عند عودتي أن شخصاً ما سأل عني، ذاكرًا اسمي ثلاثيًا، وانصرف مؤكدًا أنه سيعود لمقابلتي حينما أصل.

لم أعد أتوقف بقلق أو دهشة أمام المفاجآت، لذا لم أبدأ أي تساؤل عن هوية هذا الذي سأل عني ولم أسأل عن اسمه، من أراد أن يراني لأمر مهم سيبحث عني مجددًا، ولو قدر له أن يلقاني سيلقاني.

انصرفت صاعدًا إلى غرفتي محتضنًا كل ما صادفت في يومي؛ لا أرغب في تشويش بهجة أوقاتي، ولأترك لنفسي فضاءات خالية من المنغصات كي أرسم فيها لوحة أيامي القادمة بعدما أضيفت لها تفاصيل جديدة.

فتحت لي زيارة القاهرة نهم الكتابة مدفوعًا بوصايا رئيس التحرير السيدة منال، ورغبتني في توطيد مكانتي في عملي، ذلك أنني لا عمل لي سوى الكتابة، أنا أيضًا محظوظ في هذا الشأن كوني أمتلك ثروة من ذاكرة أيام لم أعشها تركتها لي أُمي بتفاصيل دقيقة وصدق فطري.

لماذا لا أدون أنا أيضًا تداعيات ذاكرتي، ووقائع يومي، بتفاصيل أحداثها وصورها، حتى إذا ما احتجت إلى الاستعانة بها في عملي وكتاباتي رجعت إليها، تلك التفاصيل مالم أدونها سيطويها النسيان.

أنا رجل قدرتي رغم انغماسي أحيانًا في العبث، وعيت لأرى الرجال هكذا، يفعلون المتناقضات في العلن ولا حرج؛ يتعبدون ويلهون، يظلمون ويحتكمون إلى الدين، يتجبرون وحين يضعفون يلجئون إلى الله بالدعاء والقرآن، لا أعرف إذا ما كان أبي واحدًا من هؤلاء أم لا؟

قررت أن تكون الليلة لأبي، أستدعي من ذاكرتي أحداثًا جمعتنا، لعلها تشد وثاق الروابط بين ما فتحته سمية أمامي وما وقر في ذاكرتي من صور. استرخيت على الفراش متناسيًا نباح كلاب الشارع الخلفي الذي اعتدته هنا، وددت لو أنني استغرقت في نوم يسلمني إلى أحلام تغوص في الماضي، لعلها تفتح لي بابًا أبدًا منه.

أخذتني غفوة خفيفة حملتني وحلقت بي بين غيوم تنسحب كأبواب تفتح كي أمر من بينها، طفل يلهو مطمئنًا بوجود أم تغزل ثوبًا من خيوط على إبرتين، أدفع كرة الخيط في لحظة انشغال أمي، أحملها أقذفها ثم أعيدها متشابكة، تفك أمي تشابكها، لأعيد الكرة من جديد.

خالتي رضوى تدور في دوائر من غيوم كالمتاهة، ليس إلا ثلاثتنا، نكرر ذات الفعل، وكأنني فوق براق يحجب بي عوالم مدهشة، وبينما أنا أدور بكرة الخيط قذفتها للجهة الأخرى فغاصت بين الغيوم، انتبهت لغياب

صديقي مهاب عن المشهد حيث لم يلتقط الكرة، وقفت بحزن وخوف من عقاب أُمي مفتقدًا كرة الخيط وضياح رفيقي، حينها انطلقت أصوات نباح الكلاب من جديد، لا أعرف أكانت تلك الكلاب خلف المشهد في رؤيائي، أم هي في الحقيقة كلاب الشارع الخلفي أيقظتني من غفوتي.

لا تتساقط أحداث الماضي من الذاكرة عند استدعائها، وإنما هي تتسلل في غفلة منا تتراس على السطور لتصنع مركبًا يبحر بنا عبر الزمن، ولم يأت أبي حينما أردته، كما غاب مهاب ولم يكمل المشهد وقت حاجتي، فرت بعض السطور لتكمل في تفاصيل أخرى، ترى في أي اللوحات يكمل مهاب تفاصيل مشهدها.

أعادتني اليقظة إلى صدفة معرفة سمية فاستعدت تفاصيل حديثها عن أبي وأبيها، يراودني جدال نفسي، ينبش في داخلي عن أسبابه؛ كيف لها أن تحتفظ بكل ما حكته عن أبيها بتفاصيله وصوره، من أين تأتي بمشاعر العزة والتفاخر، وأنا لا أذكر كيف توفي أبي؟ ولا أعرف له قبرًا أزوره، هل كان لخوف أُمي من الفقد وحرصها على حياتي وبقائي دور فيما أنا عليه؟

مالذي فعلته بي تلك الأنثى الاستثنائية؟ هل هي حقًا هكذا؟ أم إنني مغرم بحكايا الأميرات التي تبعث الدفء في فراش نوم البراءة بما تحمل من إبهار ومفاجآت وغرائب، ثم ما نلبث أن نغوص في الأحلام ونحن نحتضن وسائدنا.

الآن وأنا على مشارف عقدي الرابع، أحاول أن أصنع لنفسى ذاكرة تستحق أن أستلهم منها زاد أيامي القادمة، ذلك ما صنعتُه فتاتي بي، أنا الذي يكتب عن غيره بصدق عفوي ويترك خزانة تفاصيل لم يدركها واعياً، ولا يعي منحة الله التي بين يديه في تفاصيل ذاكرة أمه، فيهملها كلما فتحتها، وحكايا تأتيه طازجة مما تصنعه الصدف.

جُنِدَ أبي حين تجاوز عامه الثامن عشر، بعد انتهائه من دراسة متوسطة، جمعه بوالد سمية جوار الحي من قبل أن يجمعهما التجنيد بمكان واحد، لم يكونا صديقين من قبل، لاختلاف الحالة الاجتماعية ومستوى التعليم، فوالدها وريث ممتلكات تحولت إلى عقارات ومتاجر، ووالدي كما ورثت حالته؛ رجل مثل كثيرين ممن جاءوا مع أسر تبحث عن سكن متواضع، وما ورثته أنا عنه هو حصاد سنوات سفره وتعويض ضئيل عن فقدته أصبح لا يكفي إعانتي على بعض تكاليف الحياة.

لم تحك لي سمية عن لقائهما الأول في الخدمة العسكرية، وربما اكتفى والدها في حكاياه لها بالأحداث التي وثقت الروابط بينهما فصارا قريبين، تمنيت لو عشت زمنهم؛ هؤلاء الذين يملكون ذاكرة ثرية.

نحن جيل تخلو ذاكرتنا من أحداث توثق روابطنا، ليس سوى انتماءاتنا للفرق الرياضية. وخلافتنا وتعصباتنا، وانحيازاتنا ليست سوى لهو ولعب، لا أزكي نفسي، أنا ابن جيلي الذي لم ير إنجازات كبرى، ولم يشارك في حدث فاعل.

جيل الانتظارات المتتالية، صغارًا ننتظر عودة أمهاتنا من عمل أو زيارة، ننتظر عودة آبائنا من سفر، ننتظر التخرج، ننتظر دورنا في التجديد، ننتظر فرص العمل، ننتظر المصادفات التي تنقلنا إلى الأفضل أن تحدث ولا تحدث، نغرق في مسابقات غير مجدية لعلها تأتي بشمار ذات جدوى.

هل كان أبي أفضل مني حالاً؟ لا أدري، ولكني أرى هذياناً عم إسماعيل، وأحاديث بطولاته التي يجترها على المقاهي وفي جلسات المسنين، كما أرى حكمة عم جابر مرارة صاحب المقهى الذي يجلس في ركن منها، زاهدًا في أمور الدنيا، تاركًا كل ما عمل من أجله بيد ورثته؛ وهم على اختلاف أعمارهم وطبائعهم لا يشبهونه في شيء، الآن أسأل نفسي، هل أنتظر أنا أيضًا حدثًا فارقًا ينقلني من اللاشيء إلى سطور ذاكرة يقرأها الأبناء بفخر؟

أفيق من شرودي على صياح هاتفى المزعج، وددت لو بدلت جرس التنبيه الذي وضعه بهاء لي ذات مزاح بيننا؛ فتركته كصوت سيارة طوارئ النجدة.

- أيوه يا عم هايص أنت في القاهرة وناسيني

- انجز عايز إيه أنا راجع بكرة

- كده بسرعة

- أصلك وحشتني وحشاني رذالتك

- طب يا رذل جت لك رسالة ورق في ظرف مغلق سلمها لي ولد صغير

- تعرفه؟

- هو مين؟

- الولد الي سلمك الرسالة

- لا... قال دي رسالة لعمي حسين وسابها وجري، بقيت عم ياعم

- مين الي يسبب لي رسالة مكتوبة على ورق؟

لم أترك نفسي لتكهنات من يكون صاحب الرسالة الذي لم يشأ إرسالها على أي من وسائل التواصل المتوفرة على الهاتف المحمول، وإنما ركنت إلى تفسيراتي المنطقية، ربما تكون مقلباً من مقالب بهاء المعتادة، حتى إذا عدت فاجأني بمزاحه، ولو صح أنها رسالة ورقية فعلاً، فلا أحد يمكن أن يفعل ذلك سوى غالية، أنا لم أخبرها بسفري المفاجئ، ولم ترني في الشارع، ولا أنا تواصلت معها عبر هاتفها منذ حادث الجمعة، هي لا تجرؤ على المجازفة بالمجيء دون موعد سابق، وذلك مما سيمهد لي طريق الانسحاب الذي انتويته، هذا ليس أمراً سهلاً، لكنه ضروري في الأيام القادمة.

سامحك الله يا بهاء نقلتني من دائرة أي إلى حديث غالية، كيف أفسر هذا التحول الذي طرأ على مشاعري بعد الحادث، لا أنكر أنني لم أكن أحب تلك المرأة هذا الحب الذي يصنع القصص، ولا أنكر أن قلبي يخلو من بعض المشاعر لها، هي امرأة هادئة وماكرة، تملك المقدرة على الاستحواذ تعيدني طفلاً تستمتع بمداعبته فيلبي رغباتها المشتعلة، عرفت كيف تنسلل إلى حياتي بعد موت أمي، وهي التي تكبرني بخمس سنوات، لكنها

تبدو أصغر، وجهها الدقيق الملامح، عيناها الملونتان تبدلان ألوانهما حسب المكان والضوء، قدها المشقوق.

أذكر حفل زواجها من غانم تاجر الأخشاب الذي يملك عقارات ومتاجر بشارعنا، كنت طالبًا أنهيت المرحلة الإعدادية، وهي قد أتمت تعليمها الثانوي والتحقت بأحد المعاهد فوق المتوسطة، حيث لم تؤهلها درجاتها للالتحاق بإحدى كليات التعليم العالي.

هي من أسرة فقيرة تسكن بأحد الشوارع الضيقة المتفرعة من شارعنا، تمر بشارعنا ذهابًا وإيابًا مما أتاح للتاجر غانم رؤيتها مرارًا.

يعرف الناس أن الست مفيدة زوجة غانم دأبت على تنظيم دروس دينية وجلسات مشاور في المشكلات الأسرية للنسوة وتفسح لتلك الدروس مكانًا في بيتها، كما أنها اعتادت أن تخطب لزوجها وتزوجه كل عام فتاة بكر، تمضي معه العام، ولا تنجب فتحصل على مؤخر صداقها، وبعض من مشغولات ذهبية هي هدايا قد وهبت لها بحسب ما تركت في نفس الزوج من رضا وترحل مطلقة، أو إن شاءت بقيت مع غيرها من النساء اللاتي خصصت لهن الست مفيدة سكنًا متواضعًا في واحدة من شقق العقار نفسه، ليقمن على خدمتها وخدمة النساء اللاتي يحضرن الدرس، وهؤلاء النسوة يخشين بطش الست مفيدة، كما يخشين العودة إلى قراهن، فيكتفين بالدرس الذي لقنته لهن الحياة في المدينة.

لم ترغب الست مفيدة -من قبل- في بذل جهد لإقناع أهل واحدة من بنات المدينة بما تفعله، وهي التي تجد المبرر الشرعي سهلاً كلما راحت تخطب لزوجها فتاة جديدة؛ ذلك أنها تعف زوجها عن المحرمات، كلما هفت نفسه للعلاقات النسائية، فكانت تأتي له ببنات أبقار من القرى الفقيرة.

هي تعيش في واحد من عقارات زوجها تشغل طابقين كاملين متصلين من الداخل بسلم داخلي، وحين تأتي الزوجة الجديدة ينتقل زوجها ليسكن شقة في نفس العقار أيام الزواج الأولى.

واحدة من هؤلاء الفتيات المتزوجات من التاجر ماتت صبح اليوم التالي لزفافها، جاءوا بها من قريتها بعد ليلة عرس كبير، حتى إذا ضمها بيت مع الرجل، صرخت كلما اقترب منها، حينها طلب غانم زوجته الست مفيدة، فصعدت إليه، وقيدت له الفتاة ليدخل بها عنوة، ثم تركتهما والفتاة تنزف حتى فارقت الحياة، أشاعت المرأة بعدها بين النسوة أن زوجها فحل، وتلك فتاة مريضة، أخفى أهلها عنها خبر مرضها، تلقى أهل الفتاة أموالاً أسكتتهم.

تتهامس سيدات الحي بأن غانم ملّ الريفيات، وتاقت نفسه لمذاق مختلف بتوابل غنج بنات المدينة، واشتعلت شهيته عندما رأى غالية تقف أمام المتجر بانتظار حافلة تنقلها للمعهد الذي تدرس به، لا أحد يدري كيف يستطيع زوج أن يقنع زوجته بأن تخطب له وتزوجه من أنثى يشتهيها،

بعض الرجال في حينًا يحسدونه، والنساء ينكرن على زوجته ما تفعل، ثم يغضض الطرف عن تلك الأحاديث خوفًا من بطش مجهول. لا أحد يدري هل كانت بعض الأسر تتمنى لبناتها زوجًا كهذا التاجر؟ هل توافق واحدة من العائلات على تزويج بنت من بناتها بهذه الطريقة؟ تلك تساؤلات كنت التقطتها وأنا عائد من مدرستي، حين أمر بين السيدات الزاهبات للتسوق وقد توقفن يثرثن أو من حديث هامس بين الشرفات والنوافذ المتقاربة، أو من على حواف الدكاكين حيث يجلس بعض الرجال يتسامرون.

حدث أن كلف غانم زوجته بخطبة غالية، فسعت الست مفيدة لاجتذاب والدة غالية لجلسات الدرس، كلفت سيدة من مرتادات الدرس بهذه المهمة، التقطتها تلك السيدة في طريقها إلى السوق، وحدثتها عن جلسات الدرس وفوائد لقاءات النسوة معًا للتشاور، وتبادل الخبرات في كل شيء، في المعاملات والطبخ، وحتى في أمور الحياة الزوجية، حدثتها عن حفل الإنشاد بالدفوف ومائدة الضيافة والترفيه الذي يعقب الدرس، ألفت إلى سمعها بالمغريات حتى جاءت بها إلى الجلسة.

التقت الست مفيدة بوالدة غالية في الجلسة التي تضم بعضًا من نساء الحي جئن يتزودن بمعارف دينية ويسألن المشورة والفتوى أحيانًا، وبعضهن جئن يبحثن عن فرص زواج لبناتهن وأخريات مطلقات أو أرامل يبحثن عن أزواج لهن من أقارب سيدات الجمع.

لم تكن أُمِّي واحدة من هؤلاء السيدات اللاتي يرتدن تلك الجلسات منذ انتشرت في أواخر الثمانينيات ولا خالتي رضوى ولا السيدة سناء صديقتهما، هؤلاء كن ربيبات الحماسة الوطنية لعم جمعة أبو ناصر وعم جابر مرارة، وهن في هذا العمر بتن يحرصن على أداء الفروض الدينية ويتزودن بمعارفهن من القرآن والسنة.

لا أحد يدري كيف وافقت والدة غالية حينها على تزويج ابنتها من رجل كهذا، والخطابة زوجته الأولى، بل كيف وافق والدها وأتم الزيجة، وكيف رضيت هي وعاشت في كنفه، بل أغنته عن تبديل الزوجات كل عام، واكتفت بالحياة معه، دون إنجاب، مرتدية نقابًا لا يظهر سوى عينيها، لم تكن تسير بالشارع كما اعتادت بل كلف غانم لها سائقًا ينقلها حيث تشاء حتى أنهت تعليمها فوق المتوسط.

فقدت الست مفيدة واحدة من وظائفها التي تربطها بزوجها، وهي تبديل الأبقار له، وربما كان يكافئها بالأموال والذهب، كما فقدت التجديد في جمع النسوة المطلقات اللاتي يخدمنها بإضافة واحدة تثير تنافس النساء في الخدمة، لم يبق لها سوى الجلسات النسائية ودروسها، التي غابت عنها غالية ووالدتها بعدما احتلت غالية مكانة في نفس الزوج، واطمأنت فلم تعد بحاجة للتقرب للست مفيدة.

بذلت الست مفيدة محاولات كثيرة لرحضة غالية عن مكانتها، انتظرت حتى ينتهي العام، ويتوق زوجها لمذاق جديد؛ لكنه بدا مستقرًا في زيجته،

مرت شهور حتى قاربت العام الثاني، وفي كل مرة تطلب من زوجها تبديل غالية بعروس بكر، كان يطلب منها أن تؤجل الأمر، أما النسوة فكن يثرثرن معاً في شأن العروس التي احتلت مكانة لا ينافسها فيها أحد، حتى أكلت الغيرة قلوب الزوجات السابقات، فتمردت بعض النسوة على العمل كوصيفات للست مفيدة، حين بدأت إحداهن بتقليب الأمر في رأسها:

- ماذا لو تركت الست مفيدة وراحت تعمل عملاً حرّاً؟

ستبيع بعضاً من الذهب الذي حصلت عليه من زيجتها، وتستأجر غرفة فوق سطح بيت صغير في شارع جانبي تعيش فيها وتبدأ منها مشروعها الضئيل، تشتري ملابس ومستلزمات شعبية تبيعها للنساء الحي.

في البداية تابعتها النساء في وجل، حتى نجحت تلك المرأة في عملها، فتشجعت أخريات، اخترن وسائل متعددة للتحرر، منهنّ من استأجرت دكاناً صغيراً تبيع فيه الحلوى والسجائر، وأخرى تقوم بشراء لوازم العروس للأسر، وتأخذ قيمتها مقسطة بالفائدة، وهناك سيدة صغيرة بحثت عن عمل بعد أن وضعت أموالها القليلة في البنك لتستفيد بعائدها، وراحت تعمل في مصنع صغير للملابس الجاهزة، و تلك كانت الرابط بين كل من تحررن من قبضة الست مفيدة حين أمدت زميلاتهن بالملابس يتاجرن فيها، وتستفيد هي بهامش ربح وتروج للمصنع الذي تعمل به.

أثار ذلك حفيظة الست مفيدة، وفكرت في الكيد لغالية التي تسببت في تمرد النسوة عليها، ولا يزال لديها قلة من المطلقات يأتمرن بأمرها فتجزل

لهن العطاء، حتى تضمن بقاءهن في طاعتها يعملن على خدمة جلسات الدرس، المتنفس الباقي لسلطتها.

لم تكن الست مفيدة تظهر غيرتها علناً من ضررتها التي طال مكوثها في كنف الزوج، تلك المرأة التي تعرف كيف تدير أمورها فتحول هزائمها وسائل تستفيد منها.

أبقت على الدرس وراحت تروج له في الأحياء المجاورة، حتى أشارت إليها واحدة من اللاتي يأتين الجلسة؛ بأن تأتي بشيوخ اشتهروا بعد أن استضافتهم بعض القنوات التلفزيونية، كانوا في بدايتهم خطباء في الزوايا والجوامع المكتظة بالمصلين البسطاء.

من قبل كانت الجلسة والدروس تقتصر على النساء، يجالسن بعضاً من النسوة ممن يحملن صفة مرشدات دينيات، وهؤلاء المرشدات كن أحياناً يشطحن في التحليل والتحريم ويتشددن أحياناً، وأحياناً كن يقمن بالترويج لبعض أعمالهن المجتمعية الأخرى كعمل خيري، يجمعن من خلاله أموالاً يعيدون توزيعها على أوجه الاستحقاق المختلفة كما يرونها، وأحياناً يروجن لمنتجات يدوية للتكسب من ورائها.

لم يكن أحد -من قبل- يعرف تلك الفتاة التي نبهت الست مفيدة لضرورة تطوير جلسات الدرس، فشارعنا الذي لا يزال يبدل سكانه كل حين، كلما علا بناء جاءه سكان جدد، يتعارفون بتكرار الظهور

والتعاملات في الشارع والسوق ووسائل المواصلات، هذا الشارع يتقبل الوجه الجديدة وتتمازج مع نسيجه باستمرار بقائها.

أما أنا فأتذكر وجه تلك الفتاة قبل أن يخفيه النقاب، أيامها الأولى في الشارع وهي حائرة تختبر الطريق ووسائل المواصلات كي تصل إلى المعهد الذي تدرس به، وأنا لا أزال طالبًا بالثانوية العامة حين سألتني ذات صباح عن وجهة الحافلة القادمة من الجهة القبلية، أجبته وادعيت إنني متوجه لنفس المكان فصحبته في ركوب وسيلتها حتى إذا نزلت، عدت فبدلت مساري مرة أخرى، يومها تعرفت عليها عن قرب، وتحدثت معها طوال الطريق، كنت آمل أن نبقي على تواصل، لكننا لم نتواصل ثانية ولم نلتق أو نتحدث، بعض العلاقات هكذا تقف عند حدود اللقاء الأول دونما سبب.

شاهدتها مرات في الشارع، وانشغلت بدراستي الجامعية، وكثرة الفتيات من حولي، فلم أعد شغوفًا بفتيات الشارع، خصوصًا وأنا في مجتمع الكليات النظرية المتسع المتصل ببعضه في نفس الرقعة المكانية، يفتح أمامك أبواب التواصل والتعارف، لكنني شاهدت تحولات تلك الفتاة منذ اختلف أسلوب حياتها حتى جاءت جلسة الست مفيدة.

عملت الست مفيدة بنصيحة الفتاة؛ لأول مرة تقبل أن يكون لها أحد يشير عليها بفعل أو عمل.

منذ فرضت سلطتها المادية والدينية على النسوة المتعاملات معها، وهن يخضعن لها، كي يحظين بمعارف تقربهن من الله وتضمن لهن حسن الخاتمة.

قامت هدى -وهذا هو اسم الفتاة الذي أعلنته بين الناس- قامت بترتيب اللقاءات مع الشيخ الذي اختارته وتحديد موعد أسبوعي له، كما أوصت الست مفيدة ببعض التعديلات على الجلسة؛ ذلك أن استضافة شيخ معروف تختلف عن جلسة النسوة مع سيدة من المرشدات.

لا بد من تنسيق الجلسة مع الحاضرات قبل حضور الشيخ واختيار النساء اللاتي سوف يوجهن الاسئلة، كما أشارت عليها بتغيير نوعية الضيافة من طعام وشراب وحلوى.

كنت أعرف تفاصيل اللقاءات من فتاة زميلة معي في الجامعة كانت صديقة هدى وتمت لها بصلة قرابة، ويبدو أن حاسي الصحفية في تتبع الأخبار كانت قد بدأت تتبلور، بعيداً عن أنني عرفت تلك الفتاة معرفة اللقاء الواحد.

انشغلت الست مفيدة بتفاصيل تطوير جلساتها، لكنها لم تكن غافلة عن موضوع غالية التي أصبح لها مكانة عند التاجر وباتت تقوم على مراجعة حساباته في متجر الأخشاب وتراجع المحاسبين الآخرين في المتاجر الأخرى، كما أنها توسطت لبعض من أقاربها للعمل لدي زوجها.

أفقنا ذات صباح على أصوات سيارات الحريق والإسعاف، تقف أمام البناية العالية التي يسكنها التاجر وزوجتيه، لا أحد يعرف ماذا حدث، كنت متوجهاً لشراء بعض متطلبات البيت، حين لمحت جسد غالية محمولاً على محفة سيارة الطوارئ، قيل إن حريقاً شب في الشقة التي تسكنها مع زوجها، تمت السيطرة عليه، وغابت غالية في المشفى، لا أحد يعلم حجم إصاباتهما.

حكّت النسوة أن الست مفيدة حاولت التخلص منها بطريقة ماهرة، فصعدت متسللة لشقة التاجر، وفتحت غاز الموقد وتركته، حتى تبدو حادثة طبيعية، اشتعلت النار وحين تصاعد الدخان لم يكن أحد يعرف من الذي طلب سيارات الإطفاء والإسعاف، ولم يكن أحد ينفي أو يؤكد المكيدة التي أدت إلى الحادثة، لكن النسوة يتهاמשن معاً ويتناقلن الأخبار الحقيقية والمفتعلة ويضفن إليها من توابل تفسيراتهن وملاحظاتهن على الأحداث والأقوال.

غالية هذه بسبعة أرواح مثل القطط، ما كان لواحدة أن تنجو من كيد الست مفيدة وتخرج بمكاسب مثلما حدث لها، فلم تخرج بإصابات تذكر، بل هي التي طلبت النجدة قبل أن تغيب عن الوعي بفعل الدخان بعدما فرت من البيت باستخدام الدرج، هكذا أخبرتني فيما بعد.

لم تعد غالية إلى بيت التاجر بعد الحادثة، ولا يعلم أحد هل تركها غانم متعللاً بإهمال تسبب في الحادثة؟ كما أشاعت الست مفيدة بين النسوة،

أم تركته هي خوفًا على حياتها من مكائد النساء؟ لكنها كانت أوفر حظًا ممن سبقنها من النسوة، فهي التي نالت الحظوة عند التاجر، فحملت مؤخرها وذهبها وأموال كتبها لها؛ ورحلت إلى بيت خاص؛ كتبه التاجر باسمها مكافأة لها أثناء عملها في مراجعة حسابات متاجره، فلم تعد للحياة مع أسرته التي قبضت الثمن مقدمًا.

ترك التاجر السكن في الدور العلوي وانتقل للجهة الأخرى من الشارع، الجهة البحرية التي يفصلها النفق الذي يعبر من فوقه (قطار أبي قير) عن الجهة القبلية، ويضع علامة بين طبقتين من المجتمع، كل منهما تعيش في جهة، وهو كخط القطار ليس حدًا فاصلًا تمامًا، فبعض الميسورين قليلًا من أثر سفر أو بيع وشراء أو ميراث؛ يسكنون الشارع الواسع من الجهة القبلية وبعض الفقراء يعيشون في شقق صغيرة بالأزقة البحرية، أو يعملون على حراسة المباني ويسكنون أديارها الأرضية في جحور خصصت لهم، وبين هؤلاء وهؤلاء يأتي للجهة البحرية المستأجرون المتبدلون بقوانين الإيجار الجديد، والمصطافون في موسم الصيف.

لا أحد يدري عن الصفقة التي تمت حتى تحررت غالبية من التاجر، وبات لها عملها الخاص وتجارتهما، لكنها لم تنتقل من شارعنا بل ظلت تتابع عملها وتروح وتحجى، مستعينة بفتاة تدير لها متجرها الذي امتلكته، لبيع الحقائب النسائية، والملابس.

أعادت غالية تشكيل نفسها، فلم تشأ تكرار تجربة الزواج مرة أخرى، لا أدري كيف كانت تتدبر شأن رغباتها الجسدية قبل التعرف عليّ، وهل كان مصادفة، أم حدث بتدبير منها حين التقتني في أحد محلات البقالة أشتري لوازم العشاء.

.....

سألني يومها عن والدتي كأن لم تكن تعلم بوفاتها، واصطنعت الحزن الذي يختصر المسافات ويصنع القرب، ثم تكررت اللقاءات الخاطفة، تلتها الزيارات السرية، والمتع السريرية.

لا أدعي أنها أغوتني حتى وقعت في شباكها، فأنا أيضاً استسلمت لإغوائها، لم أكن قبلها جربت العلاقات الجنسية، كل ما قبلها كانت علاقات صعبة أو إعجاب تبدأ بالقرب وتقف عند الاعتياد في اللقاءات والأحاديث، حتى إن إحداهن جاءت تسألني عن صديق يتقرب إليها.

لم أكن أسعى إلى تطوير علاقتي بالجنس الآخر؛ فمرت بعض العلاقات كمراحل قصيرة، وبعضها كان موسميًا، تجيء في مواعيد مناسباتها، أما غالبية فجاءت في وقت كنت أعاني الوحدة بعد وفاة أمي، وتقوقع خالتي رضوى ملتحفة أحزان الفقد التي تلازمها.

أشيع عن غالبية أنها قبلت زواجها بالتاجر غانم بعد غدر حبيب، تركها ليتزوج من ابنة عائلة ميسورة تملك عقارات في شارعنا وتخصص لأبنائها وبناتها وحدات سكنية عند الزواج، ولم يكن أحد يؤكد أو ينفي ذلك، ولم يحدد شخص هذا الحبيب الغادر، لكنها فعلتها وتزوجت غانم، فتغيرت حياتها، وربما لم تكن تنوي الخروج من تلك الزيجة، لكن المخاوف أجبرتها، فاكثفت بإعادة ترتيب حياتها كما تشاء وعاشت لنفسها، وكان أن صادفتني، وتغلغل في حياتي، كانت تعلم أنها وحدها تملك مشاعري الجنسية فأشبعني وكفاها ذلك الإشباع مني.

لم تكن تسألني عن الحب، ولا أنا جربت من قبل أن أجد إجابة للسؤال! هل علمتها مصاعب الحياة درس المال والجسد؟ وهل أرادت هي أن تعلمني درس المتغيرات في الحياة والجسد والرغبات؟

عادت الست مفيدة لدورها في حياة زوجها، بعيداً عن شارعنا، فكانت تعيش أياماً بشارعنا من الجهة القبلية وأياماً بالجهة البحرية حيث استقر زوجها، وهو يأتني إلى الشارع لمتابعة مخازنه ومتاجره.

لم يعد أحد هنا يتحدث عن تبديل الزوجات الأBKار، وتبدلت اهتمامات الناس وأحاديثهم عن زوجات التاجر بأحاديث أخرى حول تلك السيارة الفخمة التي تأتي أسبوعياً، حاملة الشيخ ضيف الفضائيات فتزله أمام البناية، يلتقي مجموعة النسوة اللاتي يأتين طلباً لفتوى أو معلومة، وبعضهن جئن بدافع الفضول فكن يحكين لجاراتهن عن لقاءاتهن بالشيخ وانطباعاتهن عنه ويتفاخرن أنهن التقينه وجهاً لوجه، بل إن بعضهن اكتسبن ثقة الجارات في إبداء الرأي والمشورة، وتقديم النصح والمعلومات الدينية بعد عدة جلسات في الدرس مع الشيخ، كتلك السيدة ذات التعليم المتوسط التي كانت تأتي إلى الدرس من الشوارع الضيقة المتفرعة عن شارعنا، ولما كانت هناك نسوة جارات لها لم يحظين بحضور الدرس نظراً لكثرة العدد، فإنها وبعض النساء من الحاضرات كن يخصصن وقتاً في بيوتهن، يجتمعن بنساء ويُعدن عليهن بعض ما فهمن من أحاديث الشيخ ودروسه، ولم يكن الأمر يخلو من تحريف أو وجهة نظر شخصية،

ومنهن من شطحت وكونت لنفسها مجموعتها الخاصة ودروسها التي لا تخلو أيضًا من بيع وشراء وعقد صفقات وزيجات، وحل مشكلات عائلية واجتماعية.

ذاع صيت الشيخ في الحي وأصبحت النساء يتبادلن المعلومات عن مواعيد أحاديثه في القنوات الفضائية وينتظرن ظهوره. ذات صباح كنت أجالس عم جابر مرارة، أستمع لحكاياته التي لا يسأم من تكرارها، حينها ودونما سبب أخبرني عن سيرة هذا الشيخ الذي صار نجمًا.

- عارف ياوادي حسين الشيخ ده ممثل
- ممثل؟ ممثل يعني مش بيتكلم جد وحقيقي
- لا.. ممثل ممثل.. كان غاوي تمثيل زمان
- تمثيل؟
- أيوه كان زمان بيشتغل في شركة الغزل والنسيج ويمثل في الفرقة المسرحية لمسرح العمال
- سبحان مغير الأحوال يا عمي
- حكى لي العم جابر مرارة عن تاريخ الشيخ كيف تقلب من ممثل بفرقة عمالية، إلى رجل نقابي، ثم تحول إلى رجل يؤم الناس بالصلاة في مسجد الشركة، حتى انتهى إلى الخروج بمعاش مبكر بعد خصخصة الشركة التي يعمل بها، فاقتنى بمكافأة نهاية خدمته دكانًا صغيرًا يبيع فيه العقود و

السبح والمشغولات الفضية، لم تكن عوائده تكفي نفقات حياة أسرته، فسعى للسفر حتى حصل على عقد عمل في واحدة من دول الخليج غاب هناك سنوات، عاد بعدها ببعض الثراء، فاشترى بيتاً قديماً أقام مكانه عمارة واختص الطابق الأرضي منها بمسجد صغير استقل فيه بالأحاديث والدروس الدينية لسكان حيه، إلى أن استضافته واحدة من القنوات الفضائية عبر معارفه في بعض الدول فذاع صيته، هكذا أخبرني العم جابر مرارة عن الشيخ حينها.

مكث الشيخ في جلسات بيت الست مفيدة سنة كاملة، ثم شغلته كثرة التنقل والسفر للحديث عبر القنوات الفضائية، فرشح أحد تلامذته ليحل محله في جلسة بيت الست مفيدة.

طالت ليلتي وأنا استرجع الحكايا فأدون بعضها، أكتب على الأوراق نقاطاً أود تذكرها وأسرده في المتن ما استقر في سياقه من الحكايا، حتى غلبنى النعاس ونمت على وضعي وسادة خلف ظهري والأخرى على حجري فوقها أوراق وجهاز حاسوب صغير أحمله معي أينما ذهبت.

استيقظت في العاشرة على صوت تنبيه رسالة استقبلها على الهاتف، نفضت بقايا نعاس واستقبلت يقظة اضطرارية حيث لا وقت يسمح بمزيد من النوم؛ فعلي أن ألمم بأشائي وأخلي الغرفة قبل الثانية عشرة حتى لا يُحسب يوم جديد من الإقامة، كدت أنسى الرسالة التي أيقظتني.

- سرق هاتفي المحمول أمس وفقدت بعض المكاتبات والموضوعات كما فقدت أرقامكم، برجاء إرسال آخر المكاتبات والموضوعات ممهورة بأسمائكم وأرقام هواتفكم.

تلك رسالة السيدة منال -رئيس التحرير- أرسلتها على رسائل موقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك) لكل المضافين على موقع الجريدة من الصحفيين والكتاب والمتعاونين، وعلى الفور قمت بإرسال رقمي على رسائل الصفحة، انتبهت إلى أنني يجب أن أفكر في الموضوع الذي سوف أبدأ به الكتابة في تلك المرحلة الجديدة من عملي بالجريدة.

.....

الولد الذي غرق بين أمواج ودوامات؛ لم يركب البحر يوماً، ولم يسافر أبعد من حدود بلاده، ولا عبر المسافات على سطح الماء، بل ظل يتأرجح على وجه الحياة يحاول أن يللم أشياء مبعثرة من حوله، والتفاصيل تتماوج كأمواج البحر كلما أغمض عينيه.

برواز يؤطر صورة رجل يغوص في القاع، دراجة أطفال، تلفاز وغسالة نصف أتوماتيك، سيارات حمراء وبيضاء وآليات متآكلة بفعل البحر، حقائب مغلقة كتب عليها رحلة سعيدة.

صفحة جريدة نشرت صوراً لحادث عبارة غارقة، وأحاديث تجئ متأخرة للناجين من الحادث، ممرضة العبارة، ورجل من سوهاج، أكلتهما الكهولة ولا يزال مشهد قيامة السفينة لا يفارقهما، نساء تلتقيهن القنوات التلفزيونية فيحكين عن فقدان ولد أو عائل، رجال أدركهم الكبر فبهتت تفاصيل الأحداث من الذاكرة، بينما تظل وسائل الإعلام تلاحقهم. في سوهاج تمتد عزاءات وتلاحم، بعضها بلا نعوش ولا أجساد توارى التراب، وهناك تختلط الأحداث القاتلة، بين حصاد التفجيرات، وقتل الحرائق، وضحايا الغرق، أمهات ثكلى وزوجات ترملن، وأبناء تيتموا،

أطفال بيد أمهات، لا يدركون معنى الفقد، وقد اعتادوا غياب العائل،
تلك الصور يجترها الطفل الذي صار شاباً.

طفل وحيد بيد أمه، مغترب في موطن أجداده، مختلف في ألوان ملابسه،
لكنة حديثه، غريب في التصاقه بأمه.

وهناك الأطفال رجال صغار، يتقبلون العزاء، لم يكن حينها يعرف معنى
العزاء، هو الذي قضى يوم موت أبيه بعيداً عن حضن أمه، هاهي تحمله
لموطن أبيه وسط طقوس لم يعرفها من قبل.

بالأمس نقلوه إلى بيت قريب قبل إعلان الخبر، في بيت العم جمعة أبو
ناصر يوم ميلاد بهاء، طفل لا يعرف ما يدور من حوله، يجتشد البيت
بنساء العائلة، بعضهن قادمات من الريف، هكذا توحى ملابسهن، وقد
جئن يصطحبن طفلات ذوات ضفائر وفساتين ملونة، كن يقبعن في ركن
يتهامسن ويضحكن، حينها أدرك أنه الذكر الوحيد في هذا المكان، وقد
غاب الرجال عن البيت، حتى علا صياح المولود الجديد لاستقبال الدنيا،
وتهاامت النسوة بصوت مسموع:

- ولد... جالنا ولد

اختلطت مشاعره، بين الفرحة بقدم مولود جديد في محيط معارفه، وبين
مشاعر مقتضبة أفقدته مكانته في البيت الخالي من الذكور إلاه، لم يعد هو
الولد الوحيد في المكان الآن، لكنه لم يفقد تدليل النسوة اللاتي كن يجلبن
له قطع الفطائر والعسل والحلوى، لم يدرك حينها أن ما يحظى به من

تدليل، سببه الفقد؛ هو الذي فقد الأب وانتقل الرجال للميناء البعيد بحثاً عن الجثمان.

مثل طريقة تبدد الصمت والسكون يصيبه بكاء الوليد بنشاط مفرط، راح يركض يميناً وشمالاً في البيت حتى عثر على دراجة قديمة مركونة في زاوية، يبدو أنها تخص واحداً من أولاد العم جمعة الكبار، ركبها وراح يجاهد صداً تروسها حتى تتحرك، فلما تحركت مالت به وأوقعته وحين قام، وجد نفسه وسط زحام العزاء.

هل جاء إلى هذا المكان من قبل؟ هل حضر عزاءات الذين قتلهم غول التطرف قبل عزاء أبيه وعزاءات الغرقى؟ هؤلاء الذين لا يزالون يدفعون الدماء ثمناً للتهميش والفقر، هل ماتوا ضحايا أحلام الولدان؟ الولد الذي غرق بين ركام الاستفسارات والأسئلة، لا يزال يتقاذفه الموج، وتصدمه الصخور، وتسيل جراحه فتكتوي بالملح.

.....

متى أخذني النوم على مقعد القطار العائد إلى الاسكندرية في الثانية من بعد الظهر، ورغم أكواب الشاي التي شربتها على المقهى في الوقت الفاصل ما بين إخلاء غرفة الفندق وموعد القطار، فقد غلبني النوم، لا أدري كم من الوقت مر حتى استيقظت فرغًا من كابوس كنت معلقًا على سياج أتشبث به كي لا أسقط في البحر فأغرق.

لا يزال أمامي بعض الوقت حتى أصل؛ حاولت الانشغال بمشاهد الطريق، المساحات الخضراء التي تتقلص، البيوت الصغيرة تشبه بيتنا قبل التبديل، العمارات العالية على حواف الأراضي الزراعية في مواجهة الطريق العام السريع، لاقطات البث الفضائي فوق الأسطح وعلى حواف الشرفات، الترع والقنوات ذات المياه الراكدة يغطيها لون الفطريات؛ الأطفال الذين يسرون حاملين بعض الأجولة لا أدري إلى أين يذهبون، الرجال الذين يقفون عرايا يستحمون على حواف الترع؛ لحظة من مشهد حصاد أو نقل محصول، لا تمكنني سرعة القطار من متابعة مشهد متكامل.

كنت أحمل مذكرات أمي خارج حقيبة أشياءي منذ طالعت صفحات منها على المقهى، تركت مشاهد النافذة ورحت أغوص في الأوراق، فاختلطت أضغاث الأحلام بالحياة، ووجدتني أطالع الجرائد التي عادت تنشر صورًا

للعبارة التي غرقت أثناء عودتها من ميناء جدة إلى السويدس بمصر قبالة سواحل سفاجا في منتصف ديسمبر من العام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين ميلادية، بين الأوراق المحفوظة وسرد أمي؛ يمتزج الواقع بالحكايات، أسترجع كلمات أمي تقول:

- الموت يذهب لصاحب الدور أينما كان، وهاهو يخطف رجلي في غفلة مني، فلا جسد نواريه التراب ولا قبر نزوره.

لم أكن من قبل أعرف تفاصيل موت أبي ولا هي دلتني على قبر له، ولا أحد من المحيطين بنا كان يذكر لي تفاصيل موته، ويبدو أنني تواطأت مع هذا التعقيم واستعذبتة، فكنت أكتفي باستثنائي بحنان أمي، وحرصها على سلامتي وإبعادي عن كل ما من شأنه أن يؤذيني نفسياً أو جسدياً، شَارَكْتُهَا في ذلك خالتي رضوى فقد صرت رجلهم المنتظر.

استيقظت الاستفهامات من سكونها تدق عقلي ووجداني؛ كيف كان أبي لحظة الكارثة؟ كيف استقبل خبر موته وهو على قيد الحياة؟! كيف واجه الموقف؟ هل كان سبباً في نجاة أحد؟ هل ساعد أحداً للبقاء على قيد الحياة؟ هل راودته ذاكرة الحرب ومشاهد الاشتباك بين الموت والحياة؟ هل تذكر صديقه الذي رعاه وبث فيه من دمه؟

ما الذي كان يحمله معه ليأتينا به؟ ترى هل كانت تلك الدراجة الصغيرة لي؟ ما الذي تحويه حقيبة الأمنيات الغيبية برحلة سعيدة، كيف تطل علينا

من مكنمها بعد الفقد لتذكرنا بمن حَمَلوها بعض محبتهم لذويهم فلم تصل ولم يصلوا في موعدهم.

أسئلة كثيرة ومناوشات ذهنية أرهقتني حتى وجدتني أحاول الهروب منها، فأطوي الصفحات، لكنها تعود تطاردني عبر ذاكرتي ومناوشات أسئلتني.

الآن وأنا في هذه المرحلة من عمري لا يزال لدي جوانب خافية من حياتي، كيف لرجل في سني لا يعرف عن موت أبيه سوى أنه يومٌ مر مختلفاً عن سياقه الذي اعتاده، كيف لم أفكر من قبل في نبش ذاكرة أمي.

ويل للرجال من التغاضي والتناسي، ويلهم من استبعاد ما يؤرقهم للاستئثار بمباهج يومهم، الذي يُطوى ويتبعه يوم لا نسيان فيه ولا تلاء.

انتابتنني حالة جلد الذات وشعرت برغبة في التدخين، تلك الرغبة تملكني كلما استغرقت في شيء يؤرقني ويسلب راحتي، مررت من قبلها بحالة كنت أقضم أظافري، وهي حالة لازمتني منذ اختفاء صديق طفولتي مهاب، كانت أمي تنبهني كلما رأيتني أفعل ذلك، ولم أكن أستجيب لها، كنت أختفي من أمامها لأستغرق من جديد في قضم أظافري، لا أدري متى توقفت عن تلك العادة، ربما انشغلت بنفسي وبالحياة من حولي، وربما وجدت طريقة بديلة، ها أنا الآن أرغب في التدخين، لست مدخناً بصفة دائمة ولكنني أدخن كلما استغرقتني هموم تؤرقني، أو رغبت في الهروب لو لم أصل لحلول عَقْدٍ تصادفني.

انتقلت إلى عربة البوفيه، طلبت فنجان قهوة وأشعلت سيجارة هناك حيث التدخين مسموح به، وللعجب أنني تابعت سحائب دخان سيجارتي في استمتاع ولم يراودني هم من همومي، ولم أستغرق في التفكير لحل مشكلة، ولم تمنحني السيجارة سوى شرود في اللاشيء.

.....

رأس الصبي الذي يقود (التوكتوك) أمامي مخطوطة من الجانبين، شعره يرتفع من المنتصف مثبت ببعضه كعرف الديك، حاجبه الأيسر يحمل شقًا خاليًا من الشعر في ثلثه الأخير.

كنت أسأل نفسي وأنا أركب معه ليوصلني إلى بيتي من مكان وصولي إلى بداية شارعنا بعد عودتي من القاهرة: كيف انتشر كل هؤلاء الصبية في شوارعنا يقودون تلك المركبات الصغيرة ذات العجلات الثلاث، ورغم أنه في كل الأحيان نشهد تسرب نسبة من الأطفال من التعليم إلى سوق العمل مبكرًا، لكنهم من قبل كانوا يتوزعون بين ورش المهن، وصبية للتجار، ولكن منذ بدايات القرن الواحد والعشرين ظهرت تلك المهنة مع انتشار تلك المركبات؛ أصبح لهم أسلوب حياة خاص بهم مختلفون في أشكال ملابسهم وطريقة حديثهم وحتى مخارج ألفاظهم ولكنهم حين يتحدثون، كما صارت لهم أغانيهم وإيقاعاتها المزعجة، ومشاركاتهم في حفلات تخص رفاقهم برقصات تسير إيقاع طبول أغانيهم التي تسربت فأصابت المجتمع وانتشرت في احتفالاته.

في البداية جاءت تلك المركبات طريفة بذلك المسمى (التوكتوك)، عاثت في البلدات الصغيرة والقرى، وسيلة توصل الحاجيات للناس وتوصل راكبًا

من محطة القطار أو سيارات الأجرة إلى بيته، ثم جاءت إلى المدن وانتشرت تدريجيًا حتى باتت كأسراب الجراد في شوارعنا، فاستغنت النساء عن السير إلى الأسواق، وبدا السير لمسافة قصيرة مرهقًا حين يراودك هذا السائر ذي العجلات الثلاث بالقرب منك، صار من الصعب الاستغناء عنه، بل و من المخيف أيضًا أن يتم حظره فيعيث هؤلاء الذين يعملون عليه بلا عمل، ويمارسون السطو وغيره من أعمال الهدم والتخريب.

أصبح بيننا جميعًا عقد اتفاق غير معلن لتطبيع العلاقة بين الناس والشوارع وأرباب (التوكتوك) وغيره من الوسائل العشوائية، حتى أنا العائد من جلوس بالقطار طال لأكثر من ثلاث ساعات، ومواصلة أخرى بجافلة ركاب حتى بداية شارعنا، اختار وصولًا سريعًا وسهلاً؛ أستبدل به السير لمسافة ليست بعيدة، لا أنكر أن لي فيه مآرب أخرى، حين يمنحني فرصة التمعن في وجوه هؤلاء الصبية والشباب عن قرب.

التمعن في الوجوه والخصال وطرائق الحياة عادة أكسبني إياها الفقد، أبحث عن وجه رفيقي، عمن يشبه أي من الرجال، أعرف وجوه القادمين من أحياء أخرى إلى شارعنا، ثم يمتزجون فيصبحون من سكانه.

- قهوة مرارة يا غالي (تلك علامة المكان الذي يجاور بيتي)

المقهى الذي يملكه الجد جابر مرارة، أصبح علامة لمن يسكنون قربه، هناك علامات أخرى بعضها جاء مع بدايات تعمير الشارع الذي كان مساحة مترامية من التلال والرمال كتلك الكنيسة المعروفة في الثلث

الأخير من الشارع، وبعضها جاء بعد الطفرة العمرانية كتلك المعارض والمطاعم التي احتلت الطوابق السفلية من العمارات العالية. أرفع صوتي بقدر استطاعتي لأخبر الصبي الذي ركبت معه عن وجهتي، فلا يكاد يميز قولي وهو يستمع لصوت الأغاني الشبحية، لم أكن في بداية تعاملتي مع تلك الوسيلة أعرف من أين يأتون بتلك الأغاني، التي تحمل في كلماتها أسماء مناطق وشوارع وأسماء شخصيات من أبناء الحي بل ومسجلين خطر وأشقياء، وتلك الأغاني تضفي عليهم الكثير من صفات الجدعنة والكرم والبطولة.

يبدل الصبي أغنيته بلمسة من إصبعه فينطلق ضجيج أغنية بكائية بصوت أجش تُعَدِّدُ غدر الأهل والصحاب، وتصف الجراح وأوجاع الزمن والوحدة؛ ثم ما تلبث أن تتحول لدقات وطرقات عالية تكرر جملة واحدة. غفلت عن وجهتي وأنا شارد في ضجيج الأغنية وكلماتها، سألني الصبي بصوت شبه ناعس وإيقاع بطيء:

- قررربنا نوصل آخر الشارع أباشا...إيه، مكمل؟!

أفقت وطلبت منه العودة قليلاً، وسوف أعطيه ما يطلب؛ هؤلاء ليس لديهم مشكلات في الدوران والعودة، هم لا يتبعون أي ضوابط أو قواعد مرورية.

قبل أن أترجل أمام بيتي سألته عن اسمه ورقم هاتفه، أخبرته إنني ربما احتجته كوني أتحرك كثيراً في أماكن مختلفة من الحي، أعطاني رقم هاتفه المحمول وتقاضى أجرة التوصيل ولمس بإصبعه زر مشغل الموسيقى فغير أغنيته، ومضى بضجيجه وسط ضجيج المركبات الأخرى، فذاب في الزحام ولم أعد أميزه عن غيره.

.....

الضوء يجاهد كي ينفذ من بين فواصل الستائر، يصدمه ضوء المصابيح البيضاء فيمتزجان كاشفان لتفاصيل أنهكها الاعتياد وليس من جديد سوى وجوه تغيب ووجوه تحضر.

طرقات شاحبة وخالية إلا من خطوات قلة من الزائرين، ورجال يتكئون على عصي تأكلت نهايات حوافها المرنة بفعل الزمن، يصطك الخشب بالأرض بإيقاع منتظم إلا من وقفات استراحة موقوتة، يملؤها صوت الأنفاس المتقطع، ونشيج سعال مزمن شاخ في الصدور، ودبيب أقدام وأسرة بيضاء يكدر صفو بياضها بقع غائبة في ثنايا النسيج.

كأن بقايا الحياة حكايات هذيان؛ نستنسخها ونعيد صياغتها، بلا تعديل إلا من أحلامنا التي لم تتحقق، نجتزها بلا حذر أمام المقربين والعابرين، وهم لا يصغون، لا يعيرون الأسرار اهتمامًا كما اعتادوا، تعبرهم وينسونها، يتخففون من أعباء حمل الكلمة، ويعيذون أنفسهم من عاقبة العجز وخرافات الكبر.

في الغرفة أربعة أسرة، مقعد واحد بجانب كل سرير، ودولاب صغير، وخزانة صغيرة بارتفاع السرير عليها الماء وبضعة أشياء.

تتداخل الأصوات الواهنة، النداءات التي لا تصل، الحكايا المبتورة، النقاشات بين الأسيرة، أتلمس الأصوات لعل أصل إلى غايي.
 فور عودتي من القاهرة أبلغني بهاء هاتفيًا؛ أن عم إسماعيل نقل إلى دار للمسنين، جاء ابنه وابنته من سفر، أقاموا معه أيامًا ثم نقلوه وأغلقوا شقته التي كان يقيم فيها بشارعنا، لا يعلم أحد بمكانه، لكن بهاء الذي لا تفوته شاردة ولا واردة تمكن من معرفة المكان بواسطة صديق له يعمل سائقًا في أحد مكاتب تأجير السيارات، وجدتي مدفوعًا لزيارته والتحقق من وجوده سالمًا، ومحاولة تعويضه عن عزلته بعيدًا عن مجتمعه الذي اعتاده.

ميزت صوته وحديثه من بين الأصوات المتداخلة بالحكايات، وها أنا أقف بجانب سريره، أستمع بخشوع لرجل تمتلئ خزانة ذاكرته بأوراق التاريخ المتداخلة، وهناك على الطرف الآخر رفيق ثالث يتداخل بمجل مشوشة.
 عم إسماعيل الذي تجاوز السبعين عامًا من عمر ملئ بالوطنية، وحكايا البطولات التي كانت زادًا لأيامه، يحكيها لرفاق العمر والجيران في جلسات المقاهي وعلى جوانب الدكاكين، حتى يوم حادثة الجمعة، التي غاب بعدها وعاد بذاكرة مختلطة، وحديث غريب عن جنيات جميلات، وحياة تحت الأرض وعوالم خفية.

أهي الشيوخوخة التي جعلته يهذي؟ أم أنها الوحدة التي تصنع الخيالات الجاحمة، وتحرك شخوص الوهم في حكايا غرائبية.

في النزل المؤقت ليس للنزلاء حكايات متشابهة، وإن تشابه بعضهم في ظروف اللقاء، هناك حيث تبدأ اللقاءات بحبات عقود منفرطة، تجتمع عشوائياً بلا خيط يربطها، لا نعرف من جاء باختياره، ومن جاء مرغماً أو أُجبر على هذا الخيار، لكنهم يلتقون ويجتثرون حكايات أعمارهم، وحكايا من جاوروهم لعلمهم يستعيدون لذة أوقاتهما، حتى وإن بدا بعضها حاراً أو مرّاً، فهناك لذة اجتيازه وقوة الانتصار على صعوبته.

ونحن نقف خارج الإطار نرى ذلك في بريق العيون، وانفراجة الشفاه، وتمتمات الهمس للنفس، ونبض الحياة ينعش وهن الجسد لبعض الوقت، ثم ينطفئ تدريجياً، حين تغشاه حوادث أخرى.

في انشغالهم الشجي بالحكايات وشغفي بمتابعتهم وقفت دون أن أقطع حديثهم، وهم أيضاً لم يلتفتوا لوجودي ولم يعيروني اهتماماً ومضوا في أحاديثهم وحكاياتهم، تلك الحكايا التي ساقتها الصدفة لي ربما تصبح يوماً زاداً لأوراق.

إنه أمر ليس هيناً أن تحاول التقاط خيط البداية، وسط الجمل المتداخلة من الأفواه، لتتابع حكاية مترابطة، ذلك ما يحتاج لقدر عالٍ من الإنصات والتركيز، وسط هدير الذاكرة لرجال سلكوا طرقاً مختلفة فالتقوا عند نهاية السباق.

الحب والحرب، الزواج والسفر، هذه نقاط مفصلية في تداعيات الهذيان، والناس والمدن حضور، مابين بغداد والشام وطرابلس الغرب، ونيويورك،

ألتقط أسماء العواصم التي أخذتهم ولا أدري من أين أبدأ فأترك نفسي لطريقة متفردة في إيقاع أحاديثهم.

أقف متشابكًا بين خيوط الجمل والكلمات، ثرثرة الألسنة ونشيج صدور أتعبها العمر ودخان التبغ؛ سعال وسكوت ثم حديث يقاطع حديثًا؛ يطرق سمعي بيت شعر لأبي علاء المعري:

فيا دارها بالحزن إن مزارها

قريب ولكن دون ذلك أهوال

أشعر أن هذا البيت من الشعر يحمل رسالة، لا أدري لمن، هكذا يكون هؤلاء المثقلين بأحمال الذاكرة، كمن يفرغ بعضًا من حمولته وينبش فيها عن أشياء مبهجة، يحدث نفسه بها، ولا أعرف هل يكون الهذيان هكذا؟ أهو الحنين لتفاصيل الوقت الضائع يستعيدها الإنسان بعد أن أضاعها.

أفقت على صوت عجلات عربية العلاج تدفعها ممرضة، جاءت لمتابعة القياسات الحيوية للنزلاء، رمقتني بنظرة فاحصة تسألني:

- حضرتك جاي تزور مين؟

تلعثمت قبل أن أجيبها:

- جيت لزيارتهم جميعًا، عرفت أن الدار تسمح بالزيارة الودية، جبت لهم بعض الحاجات الضرورية من أدوات نظافة وتعقيم ومناديل ورق وعلب البسكويت سلمتها في الإدارة.

- شكرًا لك

- عايز أقضي معاهم بعض الوقت، ممكن؟
هزت رأسها بالموافقة، وهي تقف أمام عم إسماعيل تقيس له النبض وضغط
الدم ودرجة الحرارة، ولم يُبدِ هو أية معرفة له بي، كان يمعن النظر إلى
وجهها، ويبتسم، انتهت من قياساته، وتحركت لزميله في الغرفة،
فاستوقفها:

- اسمك إيه يا جميلة؟

- جميلة

- نعم هكذا أراك

- أعرف ولكن...

- تعرفي أنك جميلة

ابتسمت ابتسامة محايدة، فتعلقت عيناه بها وانفرجت شفتاه عن ابتسامة
أعادت بعضًا من بريق عينيه الذي خبا، سارت في الغرفة فتبعها بعينين
تتفافزان خلفها.

انتابتنى أنا أيضا دفقة نبض، كادت تخرجني مما أنا عليه، وتعيدني فتى
يلهث خلف نظرة إعجاب، لولا أن اجتاحني طيف سمية لحظة ثم مضى.
هنا لا يسمحون لنا بحمل أجهزة الاتصال المحمولة، ولا أجهزة التصوير
أثناء الزيارة، هم لا يسمحون بتصوير النزلاء في الغرف، ولولا هذا المنع ما
تركزت هذه النظرات بين عم إسماعيل وتلك الفتاة تمضي عبثًا.

هل أظن هكذا واقفًا لا أتناول بالحديث؟ فأهرب للأحداث طزاجة الحياة، وأضيف إلى لوحة خياله رتوشًا تنعشها.

وهل تضيف مداخلتي شيئًا يجمل الواقع؟ لا أدري، ربما لو انتزعت من خيالات ذاكرته أكون قد أفسدت عليه لحظة جملة أيامه الماضية، هؤلاء الذين تجاوزهم الزمن لا متعة أشد لذة لديهم من استمتاعهم باستعادتها بالخيال، هكذا يصبحون بيننا أجسادًا ثقلت فاجتذبتها الأرض، وأحاطتها بتشابكات عقدها، وكلما استكانوا راحت توخزهم بأشواك حدائق الورد التي زرعوها، هكذا يتركون الجسد للشوك ويرتفعون بأرواحهم لعوالم الوجد، يخلقون لعلهم يصلون.

يشرد عم إسماعيل ويدندن:

على بلد المحبوب وديني
زاد وجدي والبعد كاويني

أي محبوبه تلك التي تملك فؤاده وتعاود ذاكرته في شيخوخة عمره ويمني نفسه بزيارة ديارها؟ أهى بغداد المدينة التي تسكنه؟ ويحدث عنها رفاقه كثيرًا حتى لقبوه باسمها عم (إسماعيل بغدادي) أم هي تلك الجنية التي يحكي عنها منذ غاب بعد حادث الجمعة؟

لا أزال أقف مستمعًا لعي أجد إجابات، ولا يزال هو يشرّد في أحاديث الشجون:

- الرصافة وما أدراك ما كان للرصافة من جسور، أنت الجسور الذي عبر السياج لا يخشى أشواك ولا يقف أمامه سور؛ الآن أنت مكبل بألف قيد، ضاع السبيل. يصمت لحظة ثم يفاجئني بسؤاله:

- أنت تعرف الرصافة؟

لا أدري لمن يوجه سؤاله، فانتظرت ربما يرد أحدهم، لكنه أشار إليّ بإصبعه السبابة محدّدًا وجهة سؤاله:

- أنت تعرف الرصافة؟

- أنا؟ لا... نعم... عايز حاجة من هناك؟

- أنت بتتهرج يا ولد؟ أنت تقدر تروح الرصافة وترجع بالي أنا عاوزه؟ فاجأني وعي عم إسماعيل وإدراكه لوجودي وحديثي؛ أنا الذي كنت أظنه يهذي، وأشعّرنى بأنه لا يتذكرني وقت وجود الممرضة.

غريبة أحوال الكبار، وما تضيفه لهم خبرات الحياة وأحداثها؛ انتبهت من شرودي على إعادة استفساره، ولم أكن أعلم أي صعوبة تلك التي يراها ستواجهني في الذهاب لمنطقة الرصافة لجلب ما يريد، أجبته بسذاجة التلقي السطحي لما تحدث به:

- نعم يا عمي؛ الرصافة مش بعيدة، وأنا باحب أروح هناك عند أقاربنا في حي محرم بك.

- روح هناك واسأل قريبك محمد عراق عن ذكرياتنا في الرصافة.
فاجأني ذكره لقربي محمد عراق، وهو واحد من أبناء عمومة والدي الذي انقطعنا عنه بعد وفاة أبي وغاب ذكره حتى نسيناه؛ هو أيضاً لحقه لقب من جراء التعلق بمكان وتكرار ذكره، ومن الغريب أنني في طفولتي كنت أرى العم محمد عراق وعم إسماعيل بغدادي مختلفين لا يجمعهما شيء سوى تكرار الحديث عن تجربة السفر والحياة في العراق؛ إذن هو يقصد الرصافة في بغداد، وهو أحد جسور بغداد الثلاثة عشر فوق نهر دجلة ومن أقدمها عمراً.

عليّ إذن أن أبحث في كتيبي حول جسر الرصافة لأعرف أكثر قبل أن أتجاوز مع عم إسماعيل.

كيف تصورت أن زيارتي لعم إسماعيل هنا سوف تكون مثل عيادة المرضى والمسنين، بلا شيء سوى حديث عن الأحوال، ومحاولة لكسر الوحدة وخلق الجو الأسري.

سأعود له في المرة القادمة بمعارف ومعلومات عن بغداد تكفي للتجاوز معه وفتح أبواب لاهتمامات مشتركة.

اقتربت منه أكثر، أمسكت يده بحنو، ولا أعرف بأي كلمات أبدأ، كيف أشعره إنه قريب، ولن تفصله عنا أبواب هذه الدار، لم يكن من المناسب أن أتحدث بشيء عن أحوال دخوله الدار، وكيف حدثت، ولماذا جاءوا به

إلى هنا، عم إسماعيل لم يكن عبئًا على أحد، وباستثناء اختفائه يوم الحادث فلا يذكر أحد أنه كان مصدر إزعاج لمن حوله. ما الذي يأتي بولده وابنته سويًا في زيارة اضطرارية عاجلة ليودعاه دارًا للمسنين، وهما اللذان يزورانه مرة كل عامين وقت وجودهما في مصر، ولا يحملانه ليعيش معهما شهرًا، فلا عبء عليهما من وجوده وحيدًا يأنس بمن تبقى من رفاق الماضي.

يبدو أنني أطلت الوقوف بجانبه، وأثار ذلك شجن هؤلاء الفرادى المقيمين معه في نفس الغرفة، فسكتوا عن حواراتهم وتداعيات أشجانهم وصوبوا إليّ أنظارهم.

كدت أفقد تماسكي وبرقت في عينيّ دموع رأيت أن أحبسها قبل أن تفيض، ربت على كتف عم إسماعيل، وشددت على يده، ووعدتهم جميعًا بدوام زيارتي لهم ما دمت حيًا.

.....

صوت اصطدام يكدر ساعات النهار الأولى قبيل الظهر، يتبعه تداخل أصوات الرجال في شجار لا تميز من خلاله جملة مفيدة، أترك أوراقى وأطل من مكاني.

زحام من الناس في مكان الحادث، يُعَرِّق حركة السير، تداخلت التفاصيل التي أراها بصعوبة من أعلى، أميز مركبة من ذوات العجلات الثلاث منقلبة على جانبها، كما ميزت الشاب الذي أوصلي يوم عودتي بنفس ملابسه وطريقة تصفيف شعره، يقف بجوار مركبته المقلوبة، نصف وجهه مغطى بدم من جرح بجبهته، أهرول مسرعاً إلى الشارع.

أحمله إلى المقهى أغسل جرحه وأربطه بعد وضع بعض المطهرات، يتعجل الصبي العودة حيث مركبته المنقلبة أثناء قدومها من شارع جانبي، فتسببت في تصادم سيارتين معاً كانتا قادمتين من الطريق الدولي تعبران بشارعنا حتى البحر.

تعنيف من صاحبي السيارتين وغضب لما أصاب السيارتين من أضرار، وتدخل من أصحاب المتاجر والمارة، واحدة من السيارتين فاخرة يركبها شخص لا أتبين وجهه حجبته نظارة شمسية وقبعة رياضية تصل حتى حواف نظارته ليكمل إخفاء الوجه من أعلى، استمراره جالساً على مقعد

القيادة يقف حائلاً أمام فضولي لتفحص وجهه عن قرب، الرجل الآخر يكيل السباب للصبي ويتوعده، يبدو من حديثه أنه يتحصن بقوة تسانده. اكتفيت بمساعدة الشاب سائق (التوكتوك) وربط جرحه دون التدخل في الشجار، لكنني وقفت متابعاً عن قرب، تدخل رجال الشارع لفض الشجار قبل أن تأتي الشرطة.

الناس في شارعنا يخشون تدخل الشرطة، التي لا تنهي مشكلة دون خسائر لأطراف قريبة من مكان الحادث، كأصحاب المقاهي والمحال والباعة الجائلين والمتوقفين بعرباتهم الخشبية، والمارة من العاطلين والذين لا يحملون بطاقات هوية.

دفعني حاستي البحثية لمعرفة الشاب صاحب التوكتوك عن قرب، ساعدته في رفع مركبته وإعادتها إلى وضعها، أدارها فدارت، حركها بقرب مقهى مرارة، فاستضيفته لتناول الشاي، كان الرجلان صاحبي السيارتين المتصادمتين قد خرجا من المشهد.

لم نكن من قبل نعرف أن للست مفيدة وزوجها التاجر غانم ولداً، لم يظهر لهما ولد طوال وجودهما وحتى قبل حادثة غالية، والناس هنا لم يتحدثوا من قبل عن أسرة للتاجر، ربما شغلهم عن ذلك أحداث الزواج، وأحاديث الدروس الدينية في بيت الست مفيدة.

وهي تشيع أن لها أهلاً ونسباً بمحافظة البحيرة، تزورهم كلما رغبت في انتقاء عروس جديدة لزوجها، ومؤخراً أشاعوا أن لها ولداً تربى في حجر أخواه، وسافر لاستكمال تعليمه بالخارج، لذا لم نره يزور والديه بالإسكندرية.

الآن تعود تلك الإشاعة من جديد مؤكدة، تتحدث بها النسوة مرتدات الدرس، وبعضهن يؤكدن رؤية الشاب ابن الست مفيدة وزوجها غانم، حين جاء بصحبة شيخ الفضائيات في زيارة لجلسة الست مفيدة بعد عودة من جولات عربية، تحدث فيها عبر كثير من البرامج التلفزيونية، وأقام ضيفاً على بعض رجال الدول، قيل إنه تعرف على الشاب خارج مصر ثم عاداً معاً.

الست مفيدة ليست كما نساء شارعنا، يمكنك أن تراها، أو يتصادف وجودها معك في مكان واحد، كالشارع، أو المتاجر، حتى النسوة اللاتي كن يلتقينها في الدرس، لم تكن إحداهن تصفها لأحد، لذا لم أكن أعرف لها شكلاً، أنا الذي عاشت ضررتها، وجمعتنا أوقات حميمة، لا أذكر أن غالبية تحدثت عن صفاتها لي، كيف هي؟ طويلة أم قصيرة، بدينة أم نحيلة، جميلة أم دميمة.

تلك سيدة لا تذكر إلا باسمها واسم زوجها، وبما تقوم به أو تقدمه من أفعال، كل ما عرفناه عن تفاصيل الدروس والزواج وأحداث إقصاء غالبية عن البيت كان منقولاً.

الآن لا أعرف لماذا أحاول رسم صورة لهذه السيدة، لماذا يأتيني طيفها كجسد مغطى بثوب فضفاض، لا يحدد تفاصيل، و رأس مغطى إلا من عيينين لا تفصيحان عن صفة.

هل كانت أسرة التاجر موجودة منذ سكنا الشارع، أم جاءوا مع من جاء من مستثمري الفرص والتجار الذين اشتروا الأراضي والبيوت الصغيرة، لا أعرف؛ فقد تشكل الشارع مع نمو وعيي.

أنا من مواليد حقبة مليئة بالتحويلات، عندما حاولنا العودة إلى ديار الأجداد وجدناها قد ضاقت بالضعفاء، وعاث فيها العنف والقتل والفساد، حينها عادت بي أُمي إلى الإسكندرية، هنا حيث نتحصن برفاق مثلنا، وتصبح الإسكندرية وطنًا، نستقبل فيه الأحداث، فتكتبنا بمشاهدنا، تاريخًا، وجغرافيا، وتحفر علاماتها الفارقة على الأجساد وفي النفوس والقلوب.

تسترجع ذاكرتنا الأحداث الكبرى بعلامة آخر مشهد قطعت، كأن يقع بناء قريب وأنت تطالع كتابًا أو تصنع شيئًا ما، أو حين تتذكر شخصًا ما، لتظل طوال حياتك تذكر أن ذاك الحدث قطع عليك فعلك، هذا ما فعله بنا الزلزال رغم كوارثه التي غيرت معالم الواقع على الأرض وفي القلوب والنفوس، وأدخلت في قاموس تجاربنا الحياتية حدثًا جديدًا متوقعًا.

ليس فقط الخوف من المجهول حين يفاجئنا فيخطف بعضًا من تفاصيل عشناها؛ بل أيضًا التوجس من الفقد الذي لا يميز اختياراته، والعلامات التي يتركها في النفوس.

تلك كلمات أُمِّي في مذكراتها، جاءت فجأة أُمامي وأنا أفرغ محتويات حقيبتي التي حملتها معي إلى القاهرة ولم أفرغها فور وصولي. نقلتني السطور إلى ماضي الطفولة، أعادتني صغيرًا أجلس على مقعد هزاز في دكان عم سعيد الحلاق في خريف العام الثاني من تسعينيات القرن الماضي.

أودعني أُمِّي بين يدي العم سعيد ليقص شعري، وراحت تنجز بعض متطلبات حياتنا من طعام وشراب ونظافة، تعود بعدها لتحملني وقد انتهى عم سعيد من مهمته، كانت قد اعتادت ذلك منذ سافر أبي وأنا صغير.

لم تسجل ذاكرتي الوقت أكان صباحًا أم مساءً، لكنني كنت ألهو على الكرسي الذي يؤرجحني لا أبالي، وعلى مقعد حلقة الكبار جلس رجل أعرفه، حتى إذا ما أتم عم سعيد عمله في رأس الرجل، حان وقت حلقتي، فأوقف الكرسي عن الاهتزاز.

هل كان الكرسي على شكل سيارة وأنا أمسك مقودها، أم كان على شكل فرس أمسك لجامه؟ تلك أشكال الكراسي الموجودة في دكاكين الحلقة حتى يومنا هذا؛ لترغيب الأطفال وإلهائهم عن الصياح، وقد جلبها عم سعيد

مستخدمة من دكان حلاق آخر -أغلق دكانه مسافرًا إلى حيث حلم الثراء الخلدجي- ليعيد عم سعيد استخدامها كي تجتذب الصبيان، ورغم أن تلك الكراسي ربما تصلح لأطفال أصغر سنًا مني؛ لكن عم سعيد كان يسترضينا بها حتى لا نذهب لحلاق شاب، فتح صالونًا للحلاقة على بعد ناصية من دكانه.

أجلس مستقرًا ساكنًا على الكرسي ثم فجأة كأنما هي دورة تخطف البصر وتأخذ في سرعتها ملامح كل الأشياء، بعدها أتبين ماحولي أدرك اهتزاز الأرض من تحتي، عم سعيد يتمايل وهو يمسك بآلة الحلاقة بإصبعين، يحاول التماسك، يبسمل ويكبر، وأنا لا أميز ما يحدث.

أسمع أصوات الناس وصياحهم، ثم تدفقهم إلى الشارع بملابسهم البيتية، يدورون في ذهول، استفهامات متداخلة، أحاديث مشوشة، صياح الصغار من كافة الأعمار، أستشعر الخطر، فأشاركهم الصياح، تداهمني ذاكرة طفولتي بمحادثة فقدان مهاب، وكأنها الآن، ولا أرى في الناس سوى تدافع بعض الجيران أثناء حيرتنا في سبب اختفائه، ومحاولات غير مجدية في البحث، وغياب مفاجئ كأن الأرض انشقت وابتلعتة، أدخل في نوبة خوف، أخشى أن يخطفني المجهول الذي خطف مهاب ولا ندري أين أخفاه، ولا كيف يعيش.

اللحظة محتشة بأفكار شتى، تنبت من عصف طفولي، يخشى افتقاد الأمان الذي يراه في حضن بيت يحتمي به مما يجهله.

مرت دقائق حتى أفاق عم سعيد من ذهوله، وبقي راسخاً في وقفته أمام الكرسي دون أن يحاول استكمال عمله في رأسي، بدا كمن فقد ذاكرته ووقف يستجمع المشاهد ليشكل صورة وجوده في المكان والزمان.

جاءت أُمي بعد قليل بوجه شاحب وعينين زائغتين، ويدين مرتعشتين تحملني بنصف حلقة وتركض وسط الشارع، عيناى الشاخصتان على الطريق خلفها معلقتان بالرجل الذي كان يجلس على كرسي الحلاقة قبلى أراه يركض ليلحق بنا.

- هات الواد عنك يا ست أم حسين

- لا ولدى وأشيله بنفسى

- لسه دماغك ناشفة، هاتى الواد متخافيش

تركض أُمى أسرع، كان يمكنها أن تنزلى لأركض بجانبها، لكن خوفها من الفقد الذي جعلها تحملنى وتقبض على جذعى بقوة، حتى إذا ما وصلنا قرب البيت؛ وجدنا سكان العقارات القريبة يجلسون بالشارع، جلسنا بالقرب منهم، بقينا وقتاً بالشارع، جاءتنا أخبار الدمار والموت والأماكن المنكوبة، سقطت منازل قديمة فى الأحياء القديمة وانهارت عمائر جديدة فى الأحياء التى يسودها الزحف العمرانى والمناطق العشوائية التى تقام فيها المباني بلا دعائم.

لا أزال أذكر الرجل الذي كان يلاحقنا ليحملني عن أمي، لا أنسى ملامحه التي حفرت في ذاكرتي، هو من سكان شارعنا، يظهر بالشارع من حين لآخر، ولا أعرف عنه شيئاً.

- يعني إيه زلزال يا أمه؟

- الزلزال يا حسين حاجة من جوه بطن الأرض تتحرك فتتهز الأرض وتهزنا فوقها.

- طب ممكن تنشق الأرض وتاخذ حد؟

- ربنا العالم يا ابني!

البيوت ذات الطابق الواحد ليس لديها ما تقدمه للهزات الأرضية من تراكمات الطوب المرصوص والزلط والأسمنت، بساطة مواد البناء التي شكلتها تخفف وطأة حملتها.

كذلك بيتنا الذي تملكه خالتي رضوى ونحن نشغل وحدة سكنية من وحدتيه كمستأجرين، وهم يشغلون الوحدة الأخرى، هذا البيت الذي أقيم على قطعة أرض صغيرة كانت لأبيها المكاول، وهبها لها فبنت عليها بيتاً صغيراً مما ادخرت من تحويلات زوجها المسافر، وظل كما هو بيت ذو طابق واحد بشقتين.

- نام يا حسين متخافش، بيتنا قوي ماسك في الأرض، تتهز يتهز معاها ويرجع تاني.

- يعني ما تبلعهوش الأرض

- أعوذ بالله يا ولدي

عاشت أمي تواجه الحياة بمفردها وترعاني، خالتي رضوى لا عائل لها بعد غياب زوجها وضياح ولدها الذي لا تيبأس من البحث عنه، غابت خالتي سناء شهوياً بعد أن هدم الزلزال بيتهم ومات والداها تحت الأنقاض، انتقلت لتقيم عند أخيها في القاهرة، ثم لم تلبث أن عادت فأقامت معنا، حين سلم أخوها البيت للمقاول ليعيد بناءه فتحل محله عمارة عالية، يتقاسم أخوها وحداتها مع المقاول ويخصص لها شقة باسمها، حينها جاءها عقد عمل في دولة خليجية فسافرت، هل كانت تبحث هناك عن حب عمرها الضائع، أم ذهبت كي تبدل حياتها.

حين شرخ الزلزال بيتنا، ورغم صغر سني أحسست أنني أعيش اليتيم من جديد، كبرت وأدركت أن الطبيعة تلقننا دروس الحياة، تتركها أثراً محفوراً في نفوسنا وعلامات شاهدة على الجدران، تهدم بيوتاً واهية وتترك شروخاً على جدران بيوت تقاوم.

يقاوم بيتنا الزلزال، ويبقي شرخاً واحداً نجمه بصورة جدي الذي مات قبل خروجي للحياة، وأسأل نفسي: لماذا صورة جدي لأبي تلك التي تجمل الحائط لتخفي شرخ الزلزال؟

أرسلت خالتي سناء تكلفة إدخال خط أرضي في بيتنا نتشاركه مع خالتي رضوى، كي يكون وسيلة اتصال سريعة بينهم عند الضرورة.

يبدو الهاتف بلا جدوى لدى سيدتين، تقتصر علاقتهما على الجارات القريبات اللاتي لا هواتف لديهن، ليس سوى بيت عم جمعة الذي يحتوي هاتفًا أرضيًا، في وقت خلا من بناته المتزوجات في بلدات ريفية. تحرص أمي على حفظ آلة الهاتف بعيدًا عن عبثي، فتضعه على رف معلق على الحائط، وتأتي لي بهاتف لعبة لأهوه به، ثم ما تلبث أن تخفف من حرصها وتنزله من عليائه لتضعه على طاولة بالقرب من جهاز التلفاز، يدق الهاتف، أرفع السماعة يأتيني صوتها:

- حسين

- أنا حسين

- معاك خالتك سناء

أضع السماعة وأصيح: خالتي سناء

من الشقة الأخرى ترد خالتي رضوى، صوت المسرة يخرج من السماعة ويصليني واضحًا، وأصوات أنين البكاء الموجوع بفراق الصحبة، تبكي متوالية الفراق التي تلملم الأحبة؛ زوجها، ولدها، خالتي سناء، لم يبق لها سوى أمي وأنا.

أقف بجوار الهاتف محزونًا حزن عصفور صغير لا يملك أجنحة قوية، فيكتفي بالفقر، لا أعرف كيف ينفذ إلينا الفقد، أنا أيضًا أعاني أوجاعه، فقدت رفيقي في ذروة الطفولة ولحظات اللهو، فقدت أبي في عمري الغض،

غابت خالتي سناء وغاب معها دفء صحبة الوحيدات المؤتنسات بتشابههن في الفقد.

تسرع أمي كي تفوز بحديث الصحبة قبل أن تنفذ الدقائق المحدودة للمكالمات، ترفع سماعة الهاتف ويدور حوار كأنه استعادة لأحداث ما قبل السفر، حتى تسأل خالتي رضوى:

- عرفتي حاجة عن أشرف؟

- قابلت ناس بيعرفوه قالوا إنه مش مستقر في مكان

- يعني فيه احتمال ييجي عندك وهو بيتنقل؟

- حتى لو حصل يا رضوى هيعرف منين إني هنا

تتداخل أمي بالحديث لتبدي رأياً:

- إذا كنتي مسافرة عشان تقابلي أشرف أرجعي بلدك، ولو مسافرة لسبب ثاني كمل.

بات الحديث ذا شجنٍ وتداعيات الذاكرة مبكية أحياناً، مبهجة حيناً، وهن يطلقن الدموع عبر الضحكات حتى تتقاطع نسيجاً، فتفيض بالبكاء، تنتهي المكالمات.

كبرت ولم تبق تساؤلاتي عن صمود البيت وصورة جدي عالقة، حين لم يصمد البيت لزحف التغيير، استسلم ليد مقاول كما استسلم غيره من البيوت الصغيرة المتجاورة التي جُمعت رقعتها فضمتها بناية عالية.

وانتقلت لواحدة من العلب المتراسة رأسياً أعلى البناء، حينها ودون تفكير حملت صورة جدي معي، الآن هي تُجمل الحائط الرابع عند مدخل شقتي، لماذا لم تضع أُمي صورة لأبي في إطار وتعلقها؟ ألم تكن تحبه؟ ألم تكفِ العشرة بينهما كي توثق الروابط.

أعود من تداعيات طفولتي، ألملم أوراقى؛ أود لو استرحت قليلاً قبل أن يداهمني بهاء بفوضويته ومزاحه وزخم الأخبار التي يحملها. أرغب في ترتيب سيناريو الانسحاب الأنيق من تجربة غالية، حتى الآن ليس لدي خطة محددة، لمقاومة التراجع كي أصمد فلا أضعف أمام الإغراءات الجسدية.

ومن الغريب أنها أيضاً لم تحاول التواصل معي من قبل سفري، وأنا أبرر ذلك بأنها ربما علمت بسفري بطريقة ما.

دق هاتفي بنغمة سيارة شرطة الطوارئ المزعجة، ودق جرس الباب في نفس الوقت، أسكت الهاتف، ورحت أستطلع من القادم.

هي فوضوية بهاء تحتاح الباب والهاتف معاً؛ أفتح... يزيحني من طريقه ويدخل كما اعتاد دائماً، لا ينتظر دعوة لمشاركتي كوب الشاي، بل يدخل مباشرة إلى المطبخ يعد كوبين من الشاي ويعود أجلس أمامه مترقباً ما يحمله من أخبار، يناولني رسالة ورقية مطبوعة، أفتحها لأقرأ المكتوب:

- كنت جوارك، فلم تعرفني، وشاغلتنك فلم تصل إلي، لكنني أعدك أننا سنلتقي حين يصبح لقاءنا ضرورياً.

هكذا كتبت الورقة إلكترونياً ودون توقيع أو تعريف بالمرسل، هل كان واثقاً من فراستي في الاكتشاف؟
 طويت الورقة وتركتها على طاولة بجواري وجلست صامتاً أنتظر ما يأتي به بهاء من أخبار، لكنه بدأ يشرب شايه صامتاً مفكراً، فبادرته بسؤال تقليدي:

- ها إيه الأخبار؟

- عاوز تعرف أخبار؟ ده كان يوم واحد بس الي غبته.

- يحصل فيه كتير اليوم الواحد

يصمت بهاء شاردًا في خزائن أخباره، هكذا يفعل حين يرغب في الانتقاء مما يحمله ويبدأ، بينما يراوده الفضول فيما حملته لي الرسالة التي سلمني إياها، أما أنا فكنت على غير عادتي أود لو أبوح له ببعض ما حملته من رحلتي؛ أحكي له كيف رأيت القاهرة هذه المرة بوجه مختلف.

في المرات السابقة حين كنت أزور القاهرة بحثًا عن عمل صحافي، قبل التحاقى بالعمل بتلك الجريدة من الإسكندرية، تلك الزيارات التي كان علي أن ألتقي فيها أحد المسؤولين في مقابلة شخصية للمتقدمين للعمل؛ ليم اختيار واحد منهم أو اثنين، لم أكن أعلم أن الاختيار قد وقع بالفعل وأن هذه المقابلات مجرد شكليات، كنت أنتهي من المقابلة لألوذ بواحدة من مقاهي وسط المدينة، أو أأسكع لعلني أجد فتاة أصحابها لتؤنس وحدتي، و إذا ما عدت نسيتها حتى أراها ثانية فنعيد الكرة، ومن قبل كانت زيارتي

للقاهرة في رحلات مدرسية أو جامعية، يكتفون فيها بزيارة أبرز الأماكن شهرة بالقاهرة، وهي كثيرة وممتدة تحمل علامات عبر مراحل التاريخ من أقدمها وحتى يومنا هذا، يوم بكامله نعود بعده منهكين .

قررت أن أصمت في انتظار ما يأتي به بهاء من حديث.

بدا بهاء جادًا على غير عادته، فرك كفيه كما اعتاد أن يفعل كلما توتر وفرت منه التعبيرات المناسبة، بادرته مشجعًا:

- احك على طبيعتك وكما يحلو لك كي آذان صاغية..

- الراحل الي كان واقف يتصنت على مكالمتنا فاكره؟

- فاكرك إنك سكت عن الكلام بسبب شخص تشككت في وقوفه يتنصت على حديثنا

- شفته مرات في الشارع هنا

- وإيه الغريب في كده؟ شارعنا بيجيله ناس لأسباب مختلفة

- شفته بيكلم غالية في شارع جانبي مريت منه بالصدفة

مرت تصورات كثيرة بذهني لم تخلُ من حسن الظن، ومحاولات التبرير التي تصطدم بالاستبعاد وبراهين القطع، لتبدأ استفسارات الشك.

لماذا يحدثها في شارع جانبي، لماذا لم يذهب إليها في المعرض الذي تمتلكه أو يحدثها بالهاتف؟

تضاربت المشاعر بداخلي، أنا الذي ارتحت للتباعد وجعلته تأهيلاً لما انتويته؛ لا أدري الآن لم أنا غاضب؟ هل تلك هي غيرة رجل ذهبت عنه امرأة بإرادتها؟ أم هو توجس من شيء مجهول يحدث بالقرب منا؟
بدأ الشك يساورني حول أسباب سكوت غالية عن التواصل معي منذ حادثة الجمعة، وشغلت بتضارب أفكارى عن وجود بهاء الذي تركني أقلب الأمر في رأسي لعل أصل إلى اليقين.
صوت ذكورى في داخلى يصيح:
- كيف غافلتك امرأة كانت لك؟
يقاطعه صوت العقل:

- كنت تنوي إنهاء تلك العلاقة ولا تعرف كيف تنسحب، وحين تحقق مرادك سهلاً، ها أنت تستشعر غضباً لا تحدد له سبباً.
عجيب أمر الرجال حين يزهدون في امرأة، لكنهم لا يرضيهم أن تذهب عنهم بإرادتها، هل الأمر يتعلق فقط بالأنثى؟ أم يتعداه إلى كل ما نعهده نحن مملوكاً لنا.

عاودتني ذكرى الطفولة حين كنا نغضب ونثور ونملأ الدنيا صياحاً بسبب لعبة راحت لطفل آخر؛ حين كانت تزورنا واحدة من الجارات تصحب طفلاً.. أتذكر أنني كنت أغضب بشدة إذا استولى طفلها على شيء من ممتلكاتى الطفولية.

أفقت من شرودي على صوت بهاء يكمل حديثه باعتذار عما سببه لي من
تعكر مزاج، وينصحني بإنهاء علاقتي بغالية.

- مش قبل ما أعرف

- حتعرف وأنت بعيد أكثر من الي تعرفه وأنت قريب، تأثيرات الأنثى يا
صديقي تحجب تفاصيل الحقائق.

وافقته حتى أترك هذا الموضوع لوقت آخر، أتفكر فيه بمفردي من دون
تأثير ودونما مناقشة من أحد ولا صوت سوى صوت عقلي.

أنا لا أحدد أي الروابط تلك التي توثق علاقتي بشاب يصغرنى بجوالي خمس
سنوات؛ أهي روابط الأهل والجيرة الطيبة، أم هي روابط الاحتضان والدفع
وقت الشدائد، ربما ارتبط صوت الحياة الذي أعلنه صياح بهاء وليدًا
بغياب صوت أبي الذي لم يكن يصلني مباشرة، أتذكر أنني أحببت صوت
بكائه صغيرًا، أحببت وجود صغير يكبر أمام عيني.

ومن يوم مولده صار لي روابط ببيت عمي جمعة، أحببت زيارة البيت من
حين لآخر، وحين كانت أُمي تذهب لقضاء عمل ما، كنت أختار انتظار
عودتها في بيتهم..

لم أفكر قبل الآن في حقيقة علاقتي ببهاء التي تماثل علاقة القربي والدم،
وهو رمانة الميزان بين ما كان والآن، وبرغم فوضويته وعفويته ومزاحه فإن
هذا الفتى يحمل عقلًا وروحًا وقلبًا وتلك جواهر الإنسانية.

أنهى بهاء كوب الشاي ونهض واقفاً، واجهني بحزم رجل يكبرني، ملوحاً لي بإشارة تحذير من إصبعه السبابة.

- خلاص انتهي، طلع غالية من حياتك.

أنا أيضاً يا صديقي أود لو أخرجتها من حياتي، لكن ليس قبل أن أعرف ما يحدث، ما الذي تخفيه عني، من هذا الذي تحدثت إليه في شارع جانبي، وماذا وراء صمتها المفاجئ والذي تلا حادث الجمعة؟

ألقي بهاء نصائح ومضى إلى حيث ينتظره عمل ليلي بالصيدلية، وغبت أنا أعيد ترتيب بيتي محاولاً إعادة ترتيب أفكاري وتحليل معطيات الواقع.

- هل أحببتك غالية أم كنت رجلاً يشبع رغباتها؟

- وهل كنت تحبها حتى تبحث في نفسك عن إجابة لسؤالك؟

- غالية لا تعرف الحب، ألم تقبل برجل في عمر أبيها وتعيش معه وتصبح أقرب زيجاته المتعددة إلى نفسه، ولولا مكائد النساء لظلت في كنفه؟

- إذن ما الذي تفعله غالية؟

سلمتني تساؤلاتي لتوتر وحيرة، جربت أن أوقف الطرق على رأسي، بموسيقى هادئة تحملني إلى نعاس حالم يأخذني من توترت يومي، قطع انسياب الموسيقى أصوات شجار علت قادمة من الشارع.

.....

فقدون ومفقودون، نتوارث الفقد جيلاً بعد جيل
عنوان أحداث تحتل سطور أي، يبدو العنوان مباشراً، يشي أنها ستحي
عمّن رحلوا، أغمض عينيّ لأحصي من رحلوا، ثم أعود لقراءة سطور أي
تقول:

دائرة ملتفة وليست مكتملة، ينقصها حضور عم جمعة وعم جابر مرارة
(قطبي الجلسة).

أشرف وجمال وعلي وكبيرهم إسماعيل وجلسة طالت ونقاش حاد، كنت
وسناء قد شغلنا بتحضير وجبة عشاء بينما رضوى تجالس خالتي أم الغائب
زوجة عم جمعة، عشاء لم يكتمل بحضور الجميع، وربما كان العشاء
الأخير لتلك الصحبة.

لغو النساء وحكاياهم وطرائف عن تسمية زوجة عم جمعة (أم الغائب) اسم
لم يغيره ميلاد البنين والبنات، سهرة ذات شجون، تعيد حكايات قديمة،
قصص سمعتها مرات.

تنهيدة تترنم بعدها أنفاس (أم الغائب) بأغنياتها الأثيرة:

- لما قالوا جه ولد اتشد ضهري واتسند

نضحك أنا وسناء، كي نقطع خيط الحزن المنساب عبر صوتها تمهيداً لوصلة بكاء، تستدعي الغائبين.

دائماً كنت انشغل بمعنى الاسم، لأدري منذ متى وهي تحمل هذه الكنية؟ (أم الغائب) يقولون أطلقته عليها جارة قديمة، حين قدمت خالتي (أم الغائب) ولم تكن قد انجبت بعد، وحين أنجبت البنات ظل الاسم ملتصقاً بها حتى جاء أشرف ومن بعده حسام وبهاء؛

- أم الغائب فعلاً، لما البكري بهجة الميلاد وفرحة الولد ينوي السفر. الولد السند هذا منطق هؤلاء الأمهات الذي ورثته عن الجدات، كن يرددنها في أهازيج الميلاد.

(لما قالوا جه ولد اتشد ضهري واتسند)

أضحك كلما طنت هذه الكلمات في ذاكرة الأذن، ويعيث خيالي يحصي كم من البنات كن السند!

كم من البنات سطرن بطولات، كم من البنات فغن التوقعات، أعرف أن منطق أمي يعزز الولد، أم الغائب أيضاً قبلت الكنية، قبل مجيء البكري لقبت به، وبعد ولادة البنت ظل يلزمها، حتى جاء الولد واكتمل العدد من الولدان والصبايا ستة، والكنية لا تزال تلازمها في كثير من الأحيان ربما لدرء الحسد بعد مجيء البنين، هل كانت فألها. طالت أحاديث السهرة ليلتها وطالت كيانات سقطت.

حوار حاد بين إسماعيل وأشرف وعليّ ومتابعة منا عن بعد، ورغم حدة الحوار بين ثلاثتهم كانوا يقفون على نفس الخط ويقبعون في ذات الخندق. همس دار، علا بعده صوت جمال:

- وهل جه قرارك فجأة يا أشرف؟

- وإيه الفرق سواء جه فجأة أو كان تبعات أحداث؟

يتدخل إسماعيل:

- تبعات الأحداث نعرفها ومرت بنا كلنا... أنت نسيت؟

وبدا يفند له ما صادفهم في رحلتهم من أحداث وما تخطوه سويًا من عقبات؛ كان أشرف ليلتها محزونًا، وعائدًا من خلاف حاد مطعونًا بخيانة صاحب، مهزومًا في قناعاته، لم تجد معه نفحات إسماعيل الثورية في إثنائه عما اعتزمه وحين تدخل جمال معنّفًا كانت ردة الفعل عاصفة فتحت الأبواب على مصراعيها.

حينها كان أشرف يهذي بما آلت له صحبتهم وكياناتهم التي تفككت، قالها:

- إيه الي فاضل علشان نبقي؟

الآن تغشى الرؤيا عتمة ويتبدد الوضوح، جاء الواقع بحلم جديد، حلم يراود البعض منذ الانفتاح، قد لا يكون هذا قاعدة مطلقة، لكن التجربة الأخرى سقطت وتفككت معسكرها، بتنا نتجادل حول قناعاتنا ونختلف في الرؤى والتفسير.

فشلت التجربة أم فشل المجربون؟

الآن يواجهون ويتواجهون.

يصرخ أشرف:

- محدش منهم كان همه على الوطن... كانوا ييفكروا في مصالح فردية

- وانتهينا... قالها جمال بيأس

كان العشاء قد اكتمل وحملناه أنا وسناء، لكن الوجوم الذي خيم على المكان وارتجاف سناء لم يفسحاً مجالاً لشهية... سوى الصمت.

يتجلى وجه أشرف تميمة الغياب القهري، الآن وأنا أرى ترهات التخبط تعلو سطح النخبة، ويستشري عطب الخيانة التي أودت بأشرف، العطب يتوج ملكاً وخلفه من الرعايا وحوله من الحاشية زخم يعيث في دمائنا.

العمر الغض كثيراً ما يحمل سطور الحياة وخدوشها، ترتسم فيه تفاصيل المنمنمات زماناً ومكاناً، الشوارع، الأزقة، البيوت، المدارس، الأوقات نقوش حملها أشرف وحمل بين ثناياها سره الأعظم؛ الحب الذي وقف على حافة النهر ولم يرتو.

ولد وبنت وحكاية، كما كل الحكايات المطلة من عيون الشرفات المتواجهة، شارعنا المتسع لأعشاش الحكايا المعلقة فوق ذؤابات الشجر، وخلف النوافذ وتحت السلالم في البيوت لا يكل، يتحمل المنمنمات ويحملها تمائم تصل الأجيال بجذورها الوافدة عبر الطريق زاحفة من طمي النهر نحو البحر، والأصلية من نبت الزبد والرمل وطرح البحر، يستيقظ على أصواتنا

ولغونا، لا تزعجه مشاجراتنا، مفعم بالتناقضات وعفوية التشكيل التي حولتها الحفارات وأجهزة الرصف إلى شبه نظام، أركان بيوتاتنا المتناثرة قبل زحام العمران تستأنس بفضاءات التلاقي، وتصل ما بينها من فراغات بكافة المتناقضات.

أسراب الطفولة الساعية نحو صباحاتها الصاخبة، وآثار أقدام رجال خرجوا وظلال آخرون يلهثون نحو موضع قدم، وعاطلون متسكعون وقانطون ومستبشرون وأتقياء ورعون، وأشقياء فاجرون.

ونساء عاملات وأخريات ربات بيوت، يستفتح الصباح ساعاته من أبواب البيوت للخارجين نحو صباحاتهم المعتادة يخوضون بحر الرمال وبرك الماء الآسن متجهين نحو خط السكة الحديد أو الطريق العام في محاولات جاهدة للوصول إلى مصادر الرزق ومقاعد الدراسة.

عيون النسوة المطلات من خلف فتحات النوافذ ساعة الغروب في انتظار رجال عائدين من يوم عمل بوسط المدينة.

ما بين البيت والبيت يتسع لجلسات الرجال وخلف خدور الأبواب تلتقي الزوجات، بينما يفسح المجال للهو الصبية، وتخصب أرض الجيرة لنبتة الحب.

تتسع فضاءات الأرض الطيبة لتسع الطيب والخبيث، وحين ينهض أبناء الشظف يتجاورون تسوخ خطاهم في التراب، وعلى قارعة الطرق يخطون سيرهم.

الطريق كما الرحم يتلقى النطفة الأولى للتواصل، إشعار يصل بين العيون والقلوب مهما بعدت الفواصل، وعلى الطريق صبيان وصبايا، يتغامزون يتلامزون، كنا هم وكانوا نحن، هؤلاء النابضة قلوبهم ولا يزال سلسال منا ينساب عبر الطرقات.

قد ينجو الحب بالمحبين وقد يتبخر، وربما يغرق عند الحد الأزرق الشمالي لشارعنا.

ذات صباح غض لاحقتني سناء لاهثة، كنا بثياب الدراسة أنا بثوبي الأزرق المخصص للمرحلة الثانوية وهي بثوبها الرمادي-تصغري بسنتين- فاجأتني باضطرابها الغض ورعونة ارتجافاتها وبريق عينيها الخجولتين:

- وفيه.. قالتها واكتملت جملتها رعشات فوق شفثيها

قامت ملاحمها بدور إعلامي متكامل وخبرت مابها، لا أدري لم أطربتني المتابعة، هل كان علي يومها وكجارة تكبرها أن أنصحها، أن أقوم بدور الأخت الكبرى، وأنا أكره تلقين النصائح، وددت يومها لو لم تكن عيون الفضوليين تطالعنا وددت لو احتضنتها، لكنني اكتفيت بوعد باللقاء والحديث بعد اليوم الدراسي، هو ذات اليوم الذي توثقت فيه صداقتنا، يشهد بزوغ نبتة الحب بين سناء وأشرف.

هي في نهاية المرحلة الإعدادية وهو في نهاية المرحلة الثانوية مرافق ومرافقة كبرا خارج الزمن، واعتادا اللقاءات وتبادل الحديث الخاطف

وصقلتهما قراءة الروايات، الآن يطرق الحب بابهما، بدقات نبض القلوب
ورفيف الشوق للقاء.

أعرف الحب ولم أكن قد جربته، لا أدري لم تأخرت في اختيار شريك،
كنت أراهم جميعاً مقربين وبعيدين، جمال، حسام وغيرهم ممن تضح بهم
الجيرة والمعارف، بقدر ما كنت أتابع نمو الحب بين أشرف وسناء بشغف،
كنت أتباعد كلما اقترب أحدهم.

في المرحلة الثانوية تزدهم أوقات الفراغ بالحكايا المرتدية ثوب الأسرار
عنوة، فلا هي سر ولا هي من العلن.

أنا المستمعة بلا حكاية، يتهامس البنات من حولي، خبيثة تسمع أسرارنا
ولا تبوح بسرها، أضحك حيث لا سر لدي، فكلمنا بدت خيوط حكاية
ذابت بلا مبرر سوى اللاشيء.

نتلهف على العودة كي نثرثر...تكبر ونكبر جميعاً، ويظل أشرف حلماً
يسكنها؛ وسناء كما كل النساء تحلم بالفارس تدخر له الفرح والعمر.

الولد سر أبيه قول يتحقق في أشرف ووالده (عم جمعة) مشاكس جلسة
مرارة ورفيق العم جابر مرارة، هو من حول الجلسة من سمر ولعب ورق؛
إلى طاولة اجتماعات ومركز توعية نضجت في تنورها عقول، وتحولت من
ثرثرة تفاصيل الحياة وكد لقمة العيش إلى مجابهة الضعف.

أورث عم جمعة لولده الذي طالما انتظره، بعضاً من شغبه ومجاهته، ورغم
الوعي الفطري الذي شكل شغب عم جمعة فهو يعيش واقعه كرجل بسيط؛

يتفاخر بالولد فيصحبه لجلسات الرجولة، ويعدده ليرث عنه قناعاته ودون إخوته، وأخواته المستترات خلف الجدران، كان أشرف ابن أبيه.

كبرنا، أدركنا أننا كنا نسبح في محيط متقلب ولم نحذر، في الحب يتوه الحذر، المرأة تمنح باسم الحب وله، والرجل يمنح للحظة شغف بالحب وجنون الرغبة، منحت سناء دون حذر، وعاشت تنتظر.

قبلات مسروقة تلك التي تترك آثارها على القلوب، وتبقى بوهج لحظتها كلما مر طيفها، صعدنا درجات العمر وانفتحنا لعالم أكبر، ولا زالت نكهة الطفولة تطل من بسمات الشجر كلما عاودنا الحنين لها.

فرح البنات بلقاء الحبيب، شغفهن لموعد صيفي عند الشاطئ، أو لقاء خاطف خلف الأبواب وفي مداخل البيوت.

- وأنت وفيه... اخترتي مين؟

فاجأتني سناء ذات ليلة، وأحجمت أن أردّها بسؤال لكنها قرأته في ملامحي وأعادته على مسامعي:

- وأنت ياسناء اخدي إيه من اختيارك غير انتظار لحبيب وحب من غير ملامح؟

لفنا الصمت برهة وكل منا شاردة في عالمها المغلق، تراني سناء كما الملاك ولم أكن كذلك وأراها بريئة وعفوية، ولربما كمنت قوتها في عفويتها.

لا تدري سناء أنني لم أكن كما تتخيل بلا تجارب، هذه التجارب قصيرة المدى والتي ندخلها من باب الفضول لنخرج من باب الاكتشاف، لم

تكن تلك التجارب القصيرة تحتاج إلى جلسات أسرار فلم ترتق من مرحلة الاختبار السريع إلى مرحلة سبر الأغوار.

لكنني في النهاية اخترت جمال ولم أختبره ولم أسبر أغواره، فليس في شخصيته غموض رغم انطوائه وصمته، ذلك الرجل المجاد دائماً قليل الكلام، اخترته دون أن أختبر كيمياء الحب، تلك التي تصنع شغف البنات وتعاقد نبض القلوب، اخترته رجلاً معتدلاً، خبر الحياة واجتاز الصعاب، جند صغيراً بعد أن أنهى مرحلة التعليم المتوسط، خاض الحرب، وحكى عنه زملاؤه بطولات، كنت أستمع إليها في جلسات بيت العم جمعة.

لم يكن جمال يجيد المجادلة والنقاش حين يجلس وسط صحبة الرجال، حديثه قاطع ومحدد، أدركت فيما بعد أنه رجل حاسم حين يقرر يفعل، ربما كان لجديته دور كبير في اختياري.

تجادلني سناء:

- تتزوجين هذا الصامت كما أبو الهول... أنت ربيبة جلسات النقاش والوعي

- أتزوج رجلاً جاداً، حاسماً حين يقرر، يعرف وجهته بالفطرة

أنا لم أجادل نفسي كثيراً حين تقدم جمال لخطبتي، كانت تجربة سناء ماثلة أمامي، تلك الفتاة التي تلاحق حبها، وهو المنشغل دوماً، الباحث عن الحقيقة كما يراها هو.

أما أنا فقد اكتفيت من الحياة بزوجي وولدي، لم أسأل نفسي يوماً هل أحببته هذا الحب الذي تتحدث به الصديقات؟

وربما خطر على بال ولدي أن يسألني:

- هل أحببت أباه؟

يهب هواء يقلب الصفحات، يوقف متابعتي لسرد أمي ويعيدني إلى واقعي، فأرفع وجهي ألتقي النسמת الحانية، وأشم روائح عطرة، لا أعرف مصدرها.

- الآن أعرف يا أمي تلك الروابط الوثيقة التي جمعت بينكما، ربما جاء ذلك متأخرًا، كنت أود لو أدركته في وجودك، لكن لا بأس ذلك خير من البحث المتوتر المحفوف بالأسلاك الشائكة والتي تلقي بنا إلى مسالك الخطر.

أطوي مذكرات أمي مؤقتًا على وعد بمواصلة كشف ما بها من علاقات، أدرك الآن ما كان عليه أبي دون غيره من الرجال، أنا لا أعرف أشرف هذا الغائب دومًا كيف صار، هل لا يزال حيًّا؟ أم غيبه الموت، لا نعرف أيضًا مصير عمي عليّ زوج خالتي رضوى الذي ذهب ولم يعد، حتى رفيق طفولتي مهاب، الذي لا أشك في وجوده وأستشعر قربيه لا أعرف كيف صار، هل كان رفيقي ضحية أب وأم بلا وفاق، كيف غاب فجأة، هل هرب أم غاب قصرًا.

وهؤلاء الذين عاشوا حياتهم مشاكسات ومناقشات وبحث عن الحقيقة، ومحاولات لتربية الوعي؛ كيف تخلّوا عن دورهم فجأة؟!

كيف عَرَفَ العنفُ والإرهابُ طريقَه إلينا، من أي الشغرات نفذ، وأين كان الوعي حين نما وعاث من حولنا تدميرًا وقتلاً.
تلك أسئلة سأجعلها موضوع كتاباتي في الجريدة، سيعينني تخصصي وحاستي الصحفية في تغطية الحوادث.

دق هاتفي؛ كنت أستعد للنوم بعد طول سهر بين القراءة والتفكير، رقم الهاتف الذي يطلبني ليس مسجلاً على قائمتي، أغلقت صوت الرنين وتركته، لكنه ظل يلح في طربي، وأنا أظنه من هؤلاء الذين يطلبون الأرقام للتسلية أو يطلبون الرقم بالخطأ، ظل الرنين متواصلاً، وكلما أغلقته عاد من جديد.

فتحت الخط على الطالب وتركته، فجاءني صوت الطالب وميزت حديثه عن بعد، ولست ممسكاً بالهاتف:

- أنت حسين جمال المصري

- نعم مين حضرتك؟

- يكفي أن أكون أنا أعرفك جيداً و ناديتك باسمك كاملاً

- طب ممكن أعرف حضرتك و عايز مني إيه؟

- هتعرف

أغلق الطالب الخط، تارِكاً خلفه علامات استفهام كثيرة، ألقىت هاتفي على الطاولة وكأني أعاقبه، لماذا أصبحنا نسير بخطى محسوبة، وخلفنا دائماً من يتتبعنا، ويدركنا بلمسة من أصابعه متى أراد، وحين دق الهاتف مرة

أخرى تركته، وقد غادرتني الرغبة في النوم، فجلست على مقعدي المفضل في مواجهة الباب الذي تعلوه صورة جدي لأبي، ورحت أتأمل ملامحه، وأنا أذكر حديث أمي عن مغادرة أسرة أبي لبلدتهم في الجنوب.

- سوهاج يا ولدي مش بس بيوت الطين وعشش المساكين والفقر الناشب بضوافره في جتت الناس
وكأن صورة جدي تحدثني ولا أدري أين قرأت تلك العبارة التي تتردد في خاطري:

- سوهاج التاريخ والمقاومة وريادة التعليم.
أحسست أنني بحاجة إلى حضور بهاء نتحدث ونتجادل، نختلف ونتفق، هو الآن في عمله الليلي بالصيدلية، طلبته رغم احتياجي لوجوده فعلياً ومحادثته وجهاً لوجه.

- فينك غايب من يومين؟

- انشغلت في الجرد ومتابعة الموردين...وطبعاً بارجع جعان نوم
- نشوفك بكرة اعمل حسابك.

ما أن أنهيت المكالمات حتى دق الهاتف، رقم غريب آخر لم أرد، وضعت مذكرات أمي بجانبني وغرقت في أفكار مختلطة بين اليقظة والنوم.

يموج الشارع بالأحداث فتختلط الصور، الست مفيدة وسط دائرة من الأجساد عارية تماماً، رأيت النسوة اللاتي يخدمنها الآن يلتفون حولها في محاولات لستر عريها، أما الرجال فكانوا يغضون البصر، غالية تروح وتجيئ

بزهو تتابعها الأعين بفضول، بينما تتزاحم في الشارع المركبات ذوات العجلات الثلاث يستخدمها سائقوها في الدوران حول الدائرة كحلبة سباق، يخرج بعض المسلحين وقد نهبوا الصيدليات، و بعضهم يتعاطون المواد المخدرة، يتساقط البعض يشكلون كومة من الأجساد، فوضى تساقط الأجساد وصراع آخرين بالسيوف، طلقات نارية تحدث تشكيلاً في الهواء، وكأني أرى المشهد من أعلى، ورغم وجود الست مفيدة عارية وسط المشهد، فقد شغلني زحام الأحداث الأخرى، يبدو الرجل الذي قابلني في القطار واقفاً على حافة الدائرة، ينظم سير الناس كرجل المرور.

كنت أحاول الفكك من قيد يمنعي من الحركة، أنا الذي ما أن يلقي حجر في ماء فيكدر صفوه؛ ليسرع بالنزول لتقصي الخبر، أشعر الآن بالاختناق ويضيع صوتي كلما حاولت النداء، أبحث عن بهاء وسط الجموع، يأتي صوته ولا أراه، ترى أين هو؟

يعلو صوت سيارة الطوارئ الطبية، مع طرقات على باب بيتي، أستيقظ فزعاً من كابوس كاد يقتلني.

السادسة صباحاً، ولا أدري من الذي يطرق بابي مبكراً؟ يأتيني صوت بهاء من الخارج...

- حسين الحق خالتك رضوى

أفتح الباب يدخل بهاء يدفعني أمامه للداخل، يحاول مساعدتي في تبديل ملابسي، وهو يخبرني بالحدث:

- خالتك رضوى تعبت ونزلت عندي الصيدلية تسأل عن دكتور، حاولت أطلب دكتور من الجيران، لكن هي راحت في غيبوبة على الكرسي، طلبت لها الإسعاف، أخذوها، راحت معها ست من الجيران. أنهيت ارتداء ملابسني، لم أكن أعقب على حديث بهاء، بينما ازدحمت في داخلي الأفكار.

تلك السيدة الحزينة أنا عائلها الوحيد، ما الذي يمكن أن أفعله لأجلها، أنا لا أملك أن أنقلها إلى مستشفى خاص قد لا أستطيع مواصلة تكاليف العلاج فيه، وهي لا تملك من متاع الدنيا سوى ما يوفر لها حياة إنسانية. بهاء أيضًا ظل صامتًا بعدما أنهى شرح حالتها، لا أدري ماذا يدور بداخله، ربما نفس التوترات التي تجعلني صامتًا.

حين وصلنا المشفى، أخذنا الزحام من توتراتنا، استطعنا بصعوبة الوصول لمكان دخول حالات الطوارئ، منعونا من الدخول، ووقفنا ننتظر أن يخرج لنا أحد بأخبار عن حالتها، فتح موظف الأمن الباب وخرجت ممرضة ومساعد يدفع أمامه سرير الطوارئ ممددة عليه خالتي رضوى بلا حركة، نركض في ممر طويل خلفهم، لا أحد منا يجرؤ على سؤال الآخر، نتلهف على لفتة من الممرضة أو السيدة التي صحبتها، لنستمد معلومات مطمئنة عنها.

قرب نهاية الممر كانت هناك غرفة مغلقة؛ كتب على بابها (الأشعة المقطعية)، دفعت الممرضة باب الغرفة وسلمت الأوراق ثم دفعوا السرير داخل الغرفة وأغلقوا الباب.

أسرعت أسأل السيدة لعلني أجدها إجابة مطمئنة، لكن وجه تلك السيدة كان يشي بالحالة وقد كساه اصفرار الخوف والحزن.

- ادعوها (بادرتني السيدة بالحديث)

- هي حالتها حرجة؟

خرج السؤال متعثراً وتقليدياً، وتحشرت حروف ما تدافع من كلام في حلقي، لفنا صمت خائف، ثلاثتنا كالتماثيل التي حملت حكايات أصحابها ثم تجمدت حجراً، لا أحد منا يعلم ما يهدر داخل الآخر، مر طيف أبي تبعه طيف أمي ثم أطيف شقي لأناس جاورونا ثم غابوا، الدقائق تمر بطيئة، لا شيء سوى هسيس الآليات الإلكترونية يزحف كأنه كائنات العالم الآخر تمضي في عملها المعتاد.

خرجت علينا الممرضة والمساعد يدفعان السرير ويحملان أوراقاً، لا أحد يجيب عن سؤال، لا أحد يشرح حالة، ونحن نستجدي المعلومات.

عدنا لمكاننا الأول خلف أبواب استقبال الطوارئ، مضى وقت لم أحسبه حتى أعلنوا أنهم نقلوها لقسم العناية، الزيارة ساعة واحدة يومياً في منتصف النهار.

أسبوع بكامله مر منذ عودتي من القاهرة، بدا كأنه عام من كثرة أحداثه وزحام تفاصيله، كدت أنسى وعدي لعم اسماعيل بغداددي، كما أنني لم أتواصل مع سمية بأي وسيلة من وسائل التواصل، ولم أكتب موضوعاً متكاملًا للجريدة.

- سمية أعتذر لك... تأخرت عن التواصل معك.

كنت أ ألمم الكلمات والجمل التي أكتبها لها عبر الرسائل الخاصة على موقعها الافتراضي، وقد اخترت المحادثة بالكتابة دون المواجهة بالصوت، فلم أكن أدري كيف سأكمل حديثي، فقط أردت أن أخبر سمية أن تأخري ليس إهمالاً، وإنني أتمسك بعقد القرابة الذي عقدته بيننا ووثقته بالصور.

- أنا كمان انشغلت بصحة والدي وبعض المشكلات

- لعلكما بخير الآن.

- بخير على كل حال.

بدا حديثي مع سمية تقليدياً ومملاً، وبدت هي على غير ما عرفتھا يوم لقائنا، لم تكن بعفويتها التي رأيتها عليها، وإنما غلف حديثها لمحة مجاملة وحياد.

حاولت مواصلة الحديث بفتح موضوعات مختلفة، حدثتها عن حال خالتي رضوى، انتقلت للحديث عن عم إسماعيل، ناسياً أنها لا تعرف شيئاً عن المحيطين بي.

كنت حينها مشحونًا بالحزن، حائرًا كيف أتدبر نفقات علاج خالتي رضوى، ورغم أننا نقلناها حينها إلى مستشفى حكومي، لكن أقسام العناية الفائقة ليست مجانية تمامًا، هل كنت أهذي بما يدور في رأسي وأنا أحدثها، أم أنني أتحدث بذهن مشحون، هل شعرت سمية أنني لست معها بكامل تركيزي فأنهت المكالمة بهدوء.

انتهت مكالمتي معها على غير ما تمنيت، ورحت أضع جدولًا لأعبائي اليومية، وفق أولياتها.

في مقدمة واجباتي: متابعة أحوال خالتي يوميًا بيوم، زيارة عم إسماعيل كلما سمحت ظروفه واتسع وقتي، وبين هذا وذاك كتاباتي للجريدة، ومتابعة القراءة في مذكرات أُمِّي، تراجعت أهمية تقصي أحوال غالية وما طرأ عليها من تغيير، رغم تلميحات بهاء الدائمة كلما التقاني وحديثه حول الشبهات التي تحيط بها.

للبيوت مليكات، وملائكة، يملئون البيت بروائح أنفاسهم، وهسيس سكونهم، الذي تسكنه الأسرار، وللبيوت خدام مخلصون لا ييوحون، وكاتمو الأسرار مستغلون أمناء على ما يحملون.

لا ندري ماذا يفعلون حين يخلو البيت من ساكنيه، هل يشعر بهم القادم للبيت بعد غياب؟

تلك الأكواب التي تركت عند آخر حركة من يد لمستها، والملابس المعلقة بروائح أصحابها، والفراش والوسائد التي تشكلت تضاريسها بأجساد من لاذوا بها، كل التفاصيل الساكنة الآن تحمل غموضًا من تفاعلات ملامستها، وتشكل المشهد الذي يجسده خيالك حيًّا؛ فيفجر التساؤل: هل لأطياف الغائبين حضور بين هؤلاء؟

أنا لا أفقد طيف ريفي مهاب حين أدخل بيت أمه، رغم تبدل الجدران، وتغير تفاصيل المكان، أستشعر رائحته تملأ البيت، وحفيف أقدامه صغيرًا ينتقل فوق الأثاث، وصياحه غاضبًا أو مرحًا.

طيف مهاب لا يكبر، صورته كما هي عند آخر لحظات لنا معًا، ملابسه كما هي، حركاته وسكونه وضحكه وغضبه، ورغبته في الامتلاك، وإصراره على المغامرة دون حساب، كأن يتسلق لأعلى دون حساب لخطوه أو تأمين من سقوط.

لم أفكر من قبل فيما كان عليه مهاب حين كنا صغارًا، فلماذا الآن تلقي إليّ الذاكرة ببعض خصاله، تلك التي كانت تتسبب في مناوشات طفولية، ومعارك تافهة تحسمها حكمة الأمهات.

يقتحم طيف والده زحام التفاصيل، رغم أنني لم أره يومًا بوعي الذي يملك ذاكرة، ولا أعرف هل حضر ميلاد ولده أم لا وهل رآنا معًا؟

هل صورته المتخيلة لدي كما هي؟ أم هي مجرد خيال رسمته كي أفعل حضوره، وساعدتني في ذلك الحكايا والأحاديث التي سمعتها منذ وعيت،

فتكونت بخيالي صورة والده هذا الذي ذهب ولم يعد مثلما ذهب أشرف شقيق بهاء.

دار المفتاح في ثقب الباب ينبه عمار البيت بالقادم، بلا إذن من سيدة الدار، تحشرج أنين علبة الأمان، وزمجر مستعصياً، عاند المعالجة ثم استسلم بعد أن أرسل طرفي تنبيهه يعلن شركاءه.

لم يكن اللوح الخشبي أقل منه إخلاصاً في التمتع والصد، فبدأ ثقيلاً أمام الدفع، غير أنه حين خافته القوة، أصدر أنيناً حاداً منسحب الصوت من الأعلى للأدنى، انتهى عند اتساع صدر الفراغ المنفتح إلى الداخل.

توقفت أطالع البيت كما لو أنني أزوره لأول مرة، هذا البيت الذي اعتدت دخوله، في وجود سيدته، يشع بالحكايا المكبوتة بين ثنايا الوسائد، وزوايا الأركان.

تلك الفرش المغزولة بخيوط تلتقي وتدور وتتشابك تغطي قطع الأثاث، ورغم تناسق ألوانها فإنها تنسدل حاملة طاقة الأصابع التي صنعتها، وشجن أوقاتها.

لم تكن خالتي رضوى منذ نشأتها من هواة شغل الإبرة، وكذلك أمي، وإنما وصفته لهن ثالثتهما السيدة سناء كي يقتلن اليأس قبل أن تقتلهن الأحزان.

كن يواجهن الزلزال الأرضي بعدما واجهن الانشطار الروحي الذي فرق شركاء الحياة، رفاقاً وأزواجاً وصحبة، تشاركت الأسباب (خيانة و تبدل مواقف واختلاف و موت وكوارث مختلفة) وهؤلاء النسوة كما هن. حينها وضعت سناء أمامهن حللاً نسوياً بسيطاً، منحت كل واحدة منهن خيطاً وإبرة، وجلسة تعليم.

رأيت في صغري كيف وخن أصابعهن، وكتبن بقطرات الدم عبارات للذكرى، كيف تعقد الخيط فتشابكت العقد بين أصابعهن وجاهدن حتى تنحل بلا قطع ثم وصل، كيف سخرن بالضحك من أشكال البدايات. كم من الوقت مر حتى أنتجت كل منهن قطعة زينت بها ركنًا في دارها، ثم توالى القلع، وتناثرت على الأرائك وفوق المناضد، لا أنكر أنني في البداية سئمت هذا العمل الذي يشغل أُمي؛ ثم وجدت في كرات الخيط لهواً يشاغلها، ويلفت انتباهها لي، هذا اللهو بتلك الكريات الملونة الملفوفة الذي يدور بي حول غموض التفاف الخيط المنساب ليصبح كتلة، و مراوغته حين يتشابك ويتعقد ليوقفني.

كنت أغافلن أثناء وقوفي بجانب أُمي وأدحرج كرة الخيط بقدمي وحين تبتعد أنفلت من بينهن وأواصل لهوي، ويبدو أنني كنت مثلهن، يتواطأ ذهني مع آلية الحركة لدي فينتجان حالة تستعذب النفس آليتها وتكررها، حتى أفيق على انفلات بكرة الخيط بعيداً وليس هناك من رفيق يوقفها.

حديث العهد بفقدان رفقة الطفولة، متوحداً ألهو، ووحيدي أثاب على كياستي، ووحيدي أعاقب على جموحي، وأتابعهن وهن يحرصن على وجودي، ويتألنن لألمي.

تكدست القطع المغزولة بإبرة واحدة وتنوعت أشكال القطع واستخداماتها، مابين جوارب وقفازات ومفارش وقطع للزينة وأغلفة للأثاث والوسائد بألوان مبهجة.

لم تستطع بهجة ألوانها أن تمحو عن غزلها ثقل الطاقة التي شغلته، تلك الطاقة السلبية التي بثتها أصابع السأم وقتل الملل في صنعها، لذا فقد كدسناها أمامهن، وجلسن يتفاوضن في مصير تلك الفرش.

- ياوفية إحنا لازم نتخلص من الحاجات دي بأي طريقة.

- صحيح دي كل غرزة فيها بتفكرني بحالي وأنا باشتغلها.

تدخل سناء محل عملي: تقترح أن يعرضوا منتجهم في معرض للمفروشات وحين تباع يتقاضى البائع هامش ربح.

نعم راجت في تلك الفترة تجارتهن وبعن كل ما عرض، وجاءتهن بعض من نسوة الحي يطلبن أشياء وصفنها لبيوتهن ولجهاز بناتهن، فكان أن تفننت كل واحدة منهن في ابتكار طرق لتشكيل الخيوط.

منحتهن تلك الخيوط معنى جديداً في الحياة، وكانت لهن فيها مآرب أخرى، فتنوعت مشاغلهن من تسوق وانتقاء وتنسيق وحسابات وتفنن في الاختيار والتشكيل، ثم متعة جلسات العصر والتزاور الذي يتداخل معه

العمل والحديث دون أن تكف الأصابع عن جدل الخيوط، وحتى في أوقات الوحدة فإن تلك الخيوط تستمع إلى همس شكواهن، وأنين أحزانهن. في البداية كن يحسبنها تشبعت بطاقة الأحزان، ثم ما لبثن أن أحبين القطع التي جالستهن وحيدات وضمت توترات النبض وعصف القلق، وحيرة الشرود قبل اتخاذ القرار.

الآن تطالعني التفاصيل الصغيرة، وتسألني عن صاحبة الدار، تشكو غياب الدلال في لمسات اليدين التي تعيد رونقها وتمنحها أوضاعًا تزيد أناقتها، الآن كل الزوايا تختنق بذرات التراب التي تسلت عبر شقوق النوافذ فلم تجد لنفسها مسالك أو ريجًا تدفعها فهمدت ساكنة فوق الجدران والأرض والأثاث.

عبرت بكفي فوق طاولة القهوة، مسحت عنها غبار الساعات التي غابتها سيدتها، وكأني أمسح دموع طفلة غابت أمها، فلم أجفف كامل وجهها ولا ظلت يدي دون بلل؛ وإنما صافحتها صفحة ورقية رقيقة تساوت بسطح الطاولة، مكتوبة بخط اليد، سطورًا معدودة.

وصية واجبة

أوصي أنا: رضوى رفاعي محبوب... وأنا بكامل وعي وإرادتي:

بأن يؤول كل ما أملك من متاع ومال للسيد| حسين جمال المصري وفي حال ظهور ولدي الوحيد | مهاب علي الأعصر تقسم التركة بينهما مناصفة

وتكون الوحدة السكنية التي أشغلها من نصيب ولدي مهاب، على أن يعودا صديقين متحابين مثل شقيقين.

انتهت كلمات الوصية مؤرخة بتاريخ يرجع لسنوات مضت، وموقعة باسم خالتي رضوى، وقد زيلتها بإثبات أنها كتبتها بكامل وعيها وأهليتها، ويبدو أنها أخرجتها من مكننها قبيل خروجها حين أحست تعبًا، ولا أدري أكانت تفعل ذلك كلما غادرت بيتها حتى تعود.

قبل أن أفيق من المفاجأة، كانت تنتظرني ورقة أخرى؛ التصقت برخام الطاولة، مكتوب عليها أرقام متراسة؛ كنت لا أزال واقفًا أستلهم من الأثاث والفرش ذاكرة الأيام، جلست أحاول أن ألملم شعث ذهني وأتفكر فيما أوصت به خالتي، فيأخذني التفكير إلى سؤال محير: ما الذي دفع بي إلى هذا المكان الآن؟ ماذا كنت أريد أن أفعل هنا؟ هل ناداني الفرش والأثاث كي أستقبل الرسالة؟ أم اشتاقت تلك الفرش لمن يفتح الباب فيجدد أنفاس المكان يؤنس وحشته؟

أمام عيني كانت الأرقام المتراسة على ورقة بيضاء بلا تمييز يفك شفرتها، وأنا شارد فيما تعني تلك الأرقام (11380)، فاجأني صوت طرقة أفرزعتني، قبل أن تتوالى الطرقات بانتظام، فتعلن ساعة الحائط بعد إحدى عشرة دقيقة، إنها الحادية عشرة صباحًا.

الآن لابد أن أعيد الأوراق كما كانت على الطاولة، وأستعد لاستقبال بهاء وخالتي سناء، كي نذهب لمتابعة حالة خالتي رضوى.

أعدت الأوراق كما كانت وهممت بالخروج فألقيت السلام على المكان وصحبت الباب برفق حتى نهاية التقائه بالإطار.

- فرد واحد فقط مسموح له بالدخول، فرد واحد بس لكل مريض صاحبت الممرضة المتجهمه بصوت خشن وهي تبعد الواقفين عن مدخل قسم العناية الفائقة حيث ترقد خالتي رضوى، كنت أقف أنا وبهاء في مقدمة الزائرين، وخلفنا جموع من نساء ورجال ينتظرون السماح لهم بالدخول، وأحياناً يتدافعون فيدفعوننا أمامهم.

تثور الممرضة وتهدد بمنعنا من الزيارة إذا لم نلتزم بالنظام، ولما لم يكن غالبية الواقفين يعلمون شيئاً عن النظام الذي تتحدث عنه، وليسوا مهمومين سوى برؤية ذويهم من المرضى؛ فلم يأبه أحد بتهديداتها، واستمروا في استعجال الدخول خوفاً من مرور الساعة المخصصة للزيارة من دون أن يروا مرضاهم.

علت أصوات الزوار، فاستعانت الممرضة بواحد من رجال الأمن، يبدو معروفاً للمتكررين على المكان، ورغم إنه من رجال أمن الشركات المتخصصة في تأمين الأماكن العامة، وليس عسكرياً أو ضمن قوة الشرطة، لكن الناس تخشاه، ما إن علا صوته يأمرهم بالانتظام والبعد عن الباب حتى خضعوا وانتظموا وكفوا عن الضجيج، أما أنا فكنت أنظر للناس ويشغلني تحول سلوكهم فور استشعارهم بوجود قوة في مواجهتهم.

أخرجت قلماً من جيبي ومفكرة صغيرة، دونت السؤال الذي سيفضي إلى البحث وكتابة موضوع عن تلك الحالة.

الآن وحدي أمام خالتي الممددة على سرير محاطة بأجهزة طبية، موصولة بأعضائها بواسطة أنابيب دقيقة وأسلاك.

أتأمل وجهها وسطور التجاعيد المنحوتة على محياها، تفتح أمامي كتاب حياتها القاسية كالصخر، داهمني شعور بالذنب.

كيف اقتحمت خصوصيتها في غيابها؟ هل يوحى لي وجهها بالعتاب، إذن فلماذا كشفت عمّا كانت تخفيه قبيل خروجها؟

- خالتي ساحيني أنا دخلت بيتك في غيابك، قرأت وصيتك، كيف تحمليني تلك الأمانة الثقيلة؟ ماذا يا خالتي لو أنني لم أستطع الوفاء بها؟ ماذا لو منعتني الأقدار؟

لقد وعدتك من قبل؛ أن أظل على عهدي وفياً في البحث عن رفيقي، مهما كلفني ذلك.

أتحدث إليها ووجهي لأعلى في مواجهة الشاشة التي ترسم خطوطاً بيانية متذبذبة الارتفاع والانخفاض، توهمني تلك الخطوط بأنها تسجل أقوالي، وتنقل لها مشاعري ومخاوفي وأحزاني، أيقظتني الممرضة من شرودي على تنبيه أن الوقت المخصص لي ينتهي بعد دقيقة واحدة، وعليّ أن أخرج كي أتيح لغيري من الزوار فرصة الزيارة.

الآن فقط أشعر بقصر الوقت، حيث الدقيقة وحدة زمن قاسية في ضآلتها وحسمها، الآن وقبل انصرافي يجب أن أواجهها عن قرب وأحدثها عن قرب. - خالتي أنت تسمعينني وتشعرين وجودي

ابتسمت ملامحها التي كانت منذ قليل خالية من التعبيرات، أو هكذا رأيته، أمسكت يدها الدافئة وقبلتها بامتنان، لا أدري هل تحدثت إليها أم أن تلك الأحاديث دارت بخاطري.

غابت الذبذبات عن الشاشة وعلا صغير منذر، اهتزت بعده الأركان من حولي، ازدحم المكان الضيق المحدد بفواصل من ستائر، لا أذكر مما حدث بعد ذلك شيئاً سوى وجوه كثيرة من أطباء ومرضات، أفلتوا يدها من يدي، هل غبت عن الوعي بفعل الصدمة، أم كنت واعياً مسلوب الإرادة، أتذكر الوجوه والعيون، ومن بينها أتذكر وجهه المطل عليها بعلامته الفارقة، أتذكر دموعه تغرق وجهها الذي غابت ابتسامته، آخر اللحظات التي تغلق شاشة الواقع المحيط كان وجهه، ثم لا شيء، لا شيء سوى مساندة بهاء وخالتي سناء لي، كي نمضي لإتمام ما يتوجب عمله في مثل تلك الحالات.

وكأن الحدث الفارق يأكل زمنه، فإذا أفقنا من سطوته، كأنما سُرِق منا الوقت بلمح البصر، سقطت دقائقه وساعاته في بئر عميق، ونحن نحاول الإمساك بأطرافه، نستوقفه رغم قسوته؛ ما الذي كنا نود فعله لو لم يفصل سيف الوقت بين ما كان وما سيكون.

ماذا فاتنا من قبله نتحسر عليه؟ وما الذي يبكينا بعد فوات الأوان؟ تلك أسئلة وجودية، تنهشنا، ونقف أمامها كالبلهاء أمام لوحة سريلية. يمر بي طيف حادث مضى؛ ذات مساء قرأت خبر وفاة صديق افتراضي، منشورًا على صفحته بموقع من مواقع التواصل الاجتماعي، ومدعومًا بصورته ممددًا على سرير أبيض، وكلمة منه أو ربما ممن كتب المنشور يقول: - لا لست نائمًا، أنا فقط أغمض عيني كي لا أرى واقعي المؤلم.

بكيناه، واحتشدت الصفحة الزرقاء بالرتاء، بعضه صادق ومبك، وبعضه محض كلمات كتبت من قبيل المشاركة وسط زحام التفاعلات. غاب الصديق الذي لم يره أحد من قبل وجهًا لوجه، رأوه صورًا في مناسبات واحتفاليات ولقطات في أماكن ترفيه، وتفاعلوا معه بالكلمة وعلامات الإعجاب، ثم غاب، فرثاه المتفاعلون معه أيامًا حتى طواه النسيان وبقيت صفحته جرداء أمام الزائرين من أمثالي؛ حتى عاد ذات مساء مضيئًا لاسمه اسمين يسبقانه، هما اسم طفليه اللذين ولدا أثناء غيابه أو غيبوبته، صار اسمه رباعيًا.

لا أدري لماذا اختارني ليعود بحديثه معي للحياة على الفضاء الأزرق، حدثني عن موت كان قريبًا منه، مؤامرة اغتيال كما ذكر، لم أأنشغل كثيرًا بتفنيد أقواله، لأعرف مدى صدق روايته، لكنني سألته: أين مت؟ سؤال غريب، أنت تسأل عائدًا للحياة: أين مت؟ قال: في ألمانيا، تعقبوني وهناك قاموا باغتياي.

لا أدري لِمَ لَمْ أسأله من هم؟ ولماذا يقتلونك؟ فقط شغلني أنه قرأ نعيه بنفسه، شاهد الكلمات التي تبكيه، وتساءلت: هل بكى نفسه؟ كيف يرى الإنسان العالم من خلف ستار الموت؟

مضى وقت كنت أحدثه أحياناً بواسطة الرسائل المكتوبة، توقفت عن سؤاله رغم شغفي وقتها بمعرفة حكايته، وعاد هو ليغيب مرة أخرى من دون أن نعرف مصيره.

الآن في وقتي هذا بعد مرور عامين على غيابه الثاني أجده يتجول بذاكرتي، بعد أن غافلني الموت، وأسكت نبض الحياة بين يديّ، حين كنت أستجدي سماع صوتها، حتى أنني لم أفرق وقتها بين نبض يدي ونبضها، هل مت أنا؟

مغمض العينين، لكنني لست نائماً، بل لا أرغب في رؤية وحدتي، كم ليل مر؟ كم صبح جاء، يغافلني التاريخ ويمضي، فرغت طاقة هاتفي منذ آخر اتصال للعزاء ولم أعيرها اهتماماً، لا شيء سوى الصمت والسكون والظلام.

مرت ثلاثة أيام...لم أكن أحصي الوقت، ولا نبهني التقويم المستند على حافة طاولتي.

شحنت طاقة هاتفي وفتحته، طالعت تاريخ اليوم والوقت، وجدت أيضاً مهاتفات فائتة كثيرة، بينها كان رقم سمية عدة مرات، توقعت أن أجد رقم غالبية تهاتفني للعزاء وأنا غير مؤهل للرد، فلم أجده، ولا أدري طبيعة

المشاعر التي انتابتني بسبب ذلك؛ أكانت غضبًا أثاره الإحساس بالتجاهل، أم مشاعر أخرى مكنهاها الفقد.

واساني وجود رقم سمية، ولا أدري لماذا حاولت مرارًا الاتصال بي، هل تعلم برحيل خالتي رضوى؟ أم أن لديها سببًا آخر؟

حتى الآن لست في حال يسمح لي بالتفاعل مع المحيطين بي أو التحدث إلى الناس

إنها العاشرة من صباح يوم الاثنين، كيف قضيت تلك الأيام؟ هل جاءني الناس للعزاء؟ هل كنت أعيش مغيبًا وأنا آكل وأشرب وأتحدث.

أتذكر آخر مشاهد الجنازة، حين أفقت وقد توقفت السيارة بجوار السور الذي يحيط بالمقابر، ذراعي المستندة على كتف بهاء، وبعضًا من لقطات متفرقة؛ وجوهًا محايدة ووجوهًا حزينة، جموعًا تسرع الخطى، وأصواتًا تكبر، ثم تغيب عني المشاهد، إذن فقد مرت أيام العزاء، وعليَّ أن ألمم شعبي، لأواصل عملي.

بلا هدف جلست أدخن سيجارة وأتفقد مواقع الإنترنت، حتى استوقفتني مشاهد مصورة لجموع غاضبة في وقفة احتجاجية أمام دار القضاء العالي بالقاهرة، فتاة تهتف بجرأة تهاجم النظام، وجموع يحيطون بها في دائرة تحميها، رجال شرطة يرتب متعددة، وسائل القمع المختلفة، أجهزة إرسال واستقبال، يتحدثون بجدية واهتمام، يتحركون بتوتر، يحاولون حصر الدائرة في مكانها دون اتساع، البعض يتابع أثناء السير من بعيد، والبعض

يتوقف على رصيف مقابل، وسائل النقل تبطئ قليلا ثم تعاود السير، والبعض يحاولون الانضمام للوقفة، قليل منهم من ينجح حين يغافل رجال الأمن فيصبح جزءاً من الوقفة، بنت واحدة هي التي تقود الهتاف، والجميع يردد خلفها بحماس، يأتي ذكر المعتقلين يرتفع الهتاف الغاضب أحياناً بأسمائهم، أتابع المشهد المصور وأنا أنكر على نفسي غيبوتي الإرادية بعد وفاة خالتي رضوى، كيف تهزمني الأحداث الطبيعية فأسلم نفسي لغياب عن الواقع، كيف أعيش بلا دور في رفض الظلم سوى بكلمة أكتبها لتنشر، وقد لا يقرأها سوى قلة من المهتمين بالرأي.

بح صوت الفتاة التي تهتف، فقدم لها أحد الملتفين قنينة ماء لتشرب؛ حينها فوجئت بفتاة أخرى تدخل وسط الدائرة ظهرها للمصور الذي يبدو أنه يصور خلصة من مكان قريب على الجهة الأخرى، ظهر بعدها شاب يحمل آلة العود، دوزن العود وانطلق صوت موسيقى تلاه صوت الغناء المصاحب

(يا مصر قومي وشدي الحيل كل الي تتمنيه عندي)

جاءت الأغاني حماسية، أشعار أحمد فؤاد نجم التي سمعتها من قبل في شرائط قديمة وجدتها في بيتنا، كما سمعتها بصوت صديقي بهاء؛ الذي من المؤكد حفظها ضمن ما حفظ من ميراثه عن أبيه وأخويه، لكني الآن أسمعها بصوت نسائي آخر، من قبل سمعتها بصوت الشيخ إمام، ومرات بصوت عزة بلبع، هذا صوت مختلف، ربما هذه واحدة من المغرمين بتلك

الأغاني، لم تلبث بصمة الصوت طويلاً حتى وصلتني، أعرفها من قبل، حاولت رؤيتها لكن الجموع التي تتمايل مع الغناء، وتتفاعل بالتصفيق لم تسمح لي حركتهم برؤية واضحة لصاحبة الصوت.

شيد قصورك ع المزارع من كدنا وعرق إيدنا

واطلق كلابك في الشوارع

واقفل زنازينك علينا

عند هذا الحد قرر رجال الأمن فض تلك الوقفة وتفريق المتظاهرين، أصدر الكبار أوامره، فشقوا الدائرة بعصيتهم القوية، وأصواتهم الحادة، قوبلت بهتاف مضاد واستنكار:

- عيشوا بشر ف جتكوا القرف

هكذا صاحت الفتاة قائدة الهتاف في وجه الذين يقومون بتفريق المحتجين، فرددت الجموع خلفها نفس الجملة، صارت هتافاً ختم به المحتجين وقفته وبدوا يتفرقون، خف الزحام فرأيتها تلك التي صاحبت عازف العود بالغناء، كانا يسيران في نهاية الجموع معاً حتى قطع المصور تسجيل الحدث.

هذه سمية التي التقيتها وحدثتها ولكنني لا زلت أجهل كثيراً من جوانب شخصيتها وصفاتها.

أعدت مشاهدة الفيديو مرات ليس للتأكد مما رأيت، لأعيد سماع صوتها، واكتشاف التمازج بين أدائها وتوافق مشاعرها مع الشاب الذي يصحبها

عازفًا، كنت حائرًا بين مشاعر الإعجاب بشخصيتها وصفاتها التي لم أعرف بعد على الكثير من جوانبها وبين غيرتي كرجل عادي يرى أنثى أعجب بها في صحبة شخص آخر، ليس هذا فقط وإنما تجمعهما أشياء مشتركة لا أملكها.

في المساء تصلني حكايا سمية في رسالة إلكترونية هكذا:
 ماالذي تبدل في حياتنا، كيف كان أبي؟ وكيف أضحي على حال غير الحال؟
 هذا المقاتل الجسور الذي خبر الصعاب، أيمكن قد أنهكه التجاهل، هل ثقلت عليه الحياة بمصاعبها وحملها، لماذا يخشى عليَّ أبي من عاقبة ما أورثني إياه، ولم تكن فعلتي الأولى تلك الوقفة الاحتجاجية المصورة، والتي نشرها مجهول على موقع نشر الصور والمشاهد المصورة، ولا كانت المرة الأولى التي تصدر فيها (كاميرا) التصوير الخاصة بي.

وددت لو أخالف أبي لأول مرة، أن أصرخ في وجهه بكل قوة:
 - لا؛ لم أفعل ما يستحق عقابًا، وكل جرمي أنني تصرفت كما تعلمت منك.
 - سمية... هذا قرار لا رجعة فيه، سوف أستدعي عمك سناء تبقى معنا
 أيامًا

تلملم أغراض البيت، وتحفظ الأثاث، وتعود بك إلى الاسكندرية لتعيشي معها هناك؛ انتهى الحديث ولا جدال.

فتحت في مرات وأغلقتة على الهواء دون حرف واحد، كم مرة توعدني أبي بأن يرسلني إلى بيت عمي حتى يستريح من ضجيجي، غالبت اختناقي

بالكلمات والعبرات وصحت ببكاء كما صراخ الأطفال، أنا التي جاوزت
الثلثين من عمري أصبح كما الأطفال احتجاجًا على قرار أبي.
منذ وفاة أمي وأنا أعيش رهينة قراراته المفاجئة والصادمة أحيانًا، وأقاومها
أحيانًا أخرى، رغم أنني أضع في اعتباري دائمًا معارك الحياة التي مر بها،
وما آل إليه حاله في عمره هذا.

أبي رجل خاض حروب الوطن، عرف الهزيمة وسعى للنصر، وهاهو الآن
متقاعد يكتفي من الحياة بالبيت والمقهى، يبكي حين يشاهد التلفاز يث
برامج عن حرب أكتوبر في مناسبته، يتابع ما يحدث على أرض الواقع.
أسأله عن رفاق الحياة يصمت وتغيم عيناه بالدموع، ثم يبدل الموضوع، أو
يترك جلستنا ويغيب في غرفته.

كنت صبية صغيرة حينما عاد أبي ذات مرة من سفر شده إليه رفاق البطولة
بعدما تجاوزهم الزمن بسلام مع العدو؛ كان قد اقتنى هاتفًا شخصيًا متحررًا
يحملة معه أينما ذهب، ولم يكن أبي محبًا للوسائل التكنولوجية من قبل،
ولم تكن تلك الهواتف حينها قد انتشرت كما هي الآن.

أراه يتحدث بواسطته مع رفاقه يرتبون مواعيد لقاءاتهم، أحتج عندما
يخرج ويتركنا ليكون بينهم، حينها كانت أمي تلهيني بالأشياء التي جلبها
لي، فألهو قليلًا ثم أعود للأسئلة والإلحاح، أسأل أمي كيف تزوجت رجلًا
لا يستقر على حال، تبتسم ابتسامة غائمة، وتصطنع الانشغال بأعمال
البيت، طبخ وغسل وترتيب، تطالبي بمساعدتها، أنهمك معها قليلًا، ثم

أتسلل لمكتبة أبي، أغيب بين أوراقها، وأعود لغرفتي بمغلفات الصور القديمة، أختار منها ما يروق لي، أعيد ترتيبها حسب رؤيتي، حتى يغلبني النعاس فأنام وحولي أوراق وصور. الصور عوالم من الحقيقة وزخارف من الخيال، واللقطة لحظة مضت تعود طازجة.

اللقطات مختلفة المواقع، والأشخاص يتبدلون إلا من صبي واحد يتكرر دائماً، أحياناً بصحبة أبي، وأحياناً وحده، وكأن الصبي يكبر معي وأنا أتابع لقطات زيارات أبي لقريته، هكذا عشت على الصور، أتعرف على الناس والأقارب بالصور، يذهب أبي لزيارة أهله في صعيد مصر ويعود بصور التقطها هناك.

لقطات المزارع، الصبية بجلابيهم والبنات ذوات الضفائر الطويلة، الوجوه السمرة، وأيدي الرجال الخشنة، أما النساء، فبعضهن مكتسيات برداء أسود فضفاض من أعلى رؤوسهن حتى الأقدام، لا تملك أن تميز وجه واحدة عن الأخرى، وأخريات بجلابيب فضفاضة وغطاء رأس معقود وآخر فوقه منسدل، هؤلاء كن يسعين في خلفية المشهد.

أدركت حين كبرت أن الصورة تعكس حالة التقاطها، فالنساء المكتسيات ذوات الرداء الفضفاض هن سيدات البيوت، والأخريات اللاتي يظهرن في خلفية المشهد بغطاء رأس معقود هن الساعيات للعمل بأيديهن لبيوتهن وللغير.

رتبت الصور وبجثت عن أول صورة ظهر بها الصبي، كانت صورة لطفل في عمر عامين، يجلس بجانب أبي، وتلك كانت زيارته لبلدته بعد أعوام قضاها مسافراً في إحدى دول الخليج للعمل، ما الذي يربط أبي بهذا الولد؟ هل هو ابن لأحد الأقارب؟ لو كان الأمر كذلك لغاب مرة أو مرتين عن الصور في الزيارات المتعاقبة، وأصبح ظهوره محض صدفة، لكنني حين أرتب الصور بحسب التواريخ، يكبر معها الصبي عاماً بعد عام. أتذكر منذ وعيت المناسبات التي غاب عنها أبي عنا ليكون في بلدته، أتذكرها برغبتني في الذهاب معه وبكائي صغيرة، وشروذ أمي، ثم اعتيادنا لما يحدث دون اعتراض.

رحلت أمي بعد معاناة بصمت، وبقيت وحدي مع أبي، كلما أراد السفر، جاء بعمتي سناء لتكون معي.

الآن يريد أن نغلق بيتنا ليذهب هو إلى بلدته، وأعيش أنا مع عمتي، جادلته كثيراً ولم أفلح في إثناؤه عن رغبته.

مشتتة بين التفكير في صبي الصور الذي صار شاباً وأبي الذي يرغب في الرحيل بعيداً عني.

وقفت قبالة النافذة المفتوحة على الميدان العام، كنت على موعد مع الشاب الذي يصحبني بالعزف على آلة العود، أنتظره لنشارك في فاعلية وطنية، و أشغل الوقت بتأمل المشهد الممتد أمامي، وأعيد القطع المفككة من (كاميرا)

التصوير القديمة إلى وضعها بعد صيانتها لإعادة استخدامها بعدما ضاعت (كاميرتي) الجديدة.

بدأت أجرب التقاط صور بعيدة وأخرى قريبة وأعيد رؤيتها، أذهلني التفاصيل المرتبكة في الميدان؛ زحام الناس المبطين والمسرعين، لفتاتهم، حملاتهم، حقائبهم، ملابسهم متعددة الأشكال ما بين الزي القومي والأزياء المختلفة الغربية والمعتادة.

راودتني رغبة تصوير المشهد متحرراً (فيديو) بدلت وضع الكاميرا إلى خاصة (الفيديو)؛ بدأت التصوير وأنا أنظر إلى الشاشة أمامي، المشهد المتحرك يموج بالناس والآليات والوسائل المتحركة.

نساء ورجال، صبية وبنات وأطفال بصحبة ذويهم، رأيت صديقي الشاب الذي سيصاحبني عازفاً، يسير مسرعاً، يسرع خلفه رجلان يتبعانه، يبدو أنهما يريدان تتبعه حتى مكان آخر بعيداً عن زحام الميدان، يهم الشاب بعبور الطريق يلاحقه أحدهم، يمسك بكتفه من الخلف، يفلت من قبضته، فيتبعه حتى يدفعه أمام سيارة مسرعة، تدهسه وتمضي، يتبع ذلك صوت دوي أعيرة نارية يربك المارة، ويفر الرجلان قبل أن ينتبه إليهما الناس من بعد دھول الصدمة.

لم يبق سوى الشاب على الأرض والدم المنساب من رأسه، يتزاحم الناس يفحصون ثم يأتون بأوراق جرائد ويغطونه، يتوالى الزحام حوله فيتوقف الطريق.

صرخت من مكاني: قتلوه... قتلوه

أنا رأيتهما، رأيت اللذين تسببا في ذلك، لا لا بل لدي دليل، تلك الصور العفوية التي التقطتها، رأيتهما يا أبي، رأيتهما. استيقظ أبي على صوت صياحي وأنا أستعد للنزول كي أدلي بشهادتي أمام الشرطة، استوقفني متسائلاً:

- رايحة فين؟

لم أكن أدري بماذا أجيب وقد أخبرته بصياحي المتواصل الذي أيقظه، فأشرت إلى (الكاميرا)، وأتممت بإشارة على النافذة باتجاه الميدان، أذهلني وجومه بعد رؤية المشهد مصوراً، سحب الكاميرا الخاصة وأخفاها في مكان لا أعرفه ثم منعني من النزول وأغلق الباب.

لماذا أكتب لك أنت كل تلك التفاصيل، أنا الآن حبيسة المنزل حتى تأتي عمتي لا أدري ماذا سيفعل أبي بعد تلك الحادثة؟

أخشى أن يصادر أبي أجهزة اتصالي كلها (كمبيوتر - موبايل) فلا أجد وسيلة للتواصل، ولا أعرف أيضاً كيف تحل عقد تلك التشابكات، لكن أرجو أن نلتقي قريباً على خير.

انتهت رسالة سمية التي أرسلتها منذ قليل على واحد من مواقع التواصل الخاصة بي مجزأة، ولا أزال جالساً أمام طاولتي، لم ألمس كوب الشاي الذي صنعه بهاء ليجالسني، فوجدني منشغلاً، ذاب بهاء في غفلة مني، و أنا بحاجة لوجوده، أحتاج أن أتحدث إليه حديث النفس للنفس، أعلم أنه

سيسمع حديثي صامتاً، ثم ربما يعقب بجملة واحدة ذات معنى مفتوح، تاركاً لي فضاءات التأويل، حتى إذا جاء في اليوم التالي تناقشنا. الآن أنا مشتبك بتفاصيل شتى وموضوعات معلقة...وصية خالتي رضوى، ومن قبلها هذا الشيخ الذي يظهر ويختفي قبل أن أتحقق منه، موضوعات كتاباتي في الجريدة التي شُغِلت عنها بزحام الأحداث من حولي، وهاهي رسالة سمية تحتل مكاناً في قائمة الوقائع التي تتلاطم في ذهني، ولا أزال قابلاً، لا أحتمل تساقط المزيد من الأحداث حتى تتفكك عقد التشابكات المحيطة بي.

لم أكن أنا قد أفقت من تشابكات شرودي ولا أدري كم من الوقت مر؛ حتى عاد إليّ بهاء حاملاً كوب الشاي الذي تركه من قبل على حافة السور خارج الشقة ومحملاً بمحديث دار بينه وبين البرنس سائق التوكتوك يحدثه عني:

- أظن إنني غلطت لما اتعشمت في صحبته؛ أنا صحابي يسموني البرنس، كنت مخدوعاً باللقب لحد ما قابلته، راجل مختلف عن صحابي الي بتجمعني بيهم المهنة، شفته مرتين واتكلمنا، قعدنا على القهوة يوم الحادث، ربط جرحي، حكى معايا كأخ، وبخني على استهتاري، واتقبلت منه، طلب مني أحترس، وما أعرضش نفسي للخطر.

أنا احتاجه حالياً، مش عارف ليه هو بالذات؟ ليه اخترته وفضلته على أصحاب المهنة؟ عارف طبعاً أن لكم أنتم عالم مختلف عن عالمنا إحنا، أنتم ولاد الأسر المتكاملة أتربيتهم في حجور آبهات وأمهات، لكم اهتمامات ومشاغل وهموم بالنسبة لنا أشياء بسيطة وعادية، أنتم لما تتكدروا تكتبوا، واحنا الكآبة بالنسبة لنا رفاهية ودلع.

- دلوقت أنت بتسأل نفسك: ليه أنا بجتهد علشان أتكلم بصيغة مختلفة عن أمثالي؟ وربما تعرف بحكم وجودك بالشارع ومعاملاتك مع الناس، والاحتكاك بكل الفئات، تعرف إن الشارع كمان معلم؛ معلم مش بيدي دروسه للمكتفين بالقعاد في صفوف المدارس مجبرين على التعلم، أنت كمان ابن الشارع، جمعت الخبرات الثلاثة؛ أسرة ومدرسة وشارع.

- وأنت كمان يا برنس عارف وفاهم

- أنا اسمي ابراهيم يا أستاذ بهاء، البرنس ده زي ما بتقولوا اسم حركي

- كمل يا إبراهيم...

عرفت صاحبك وتمنيت أنه يصبح صاحبي، لكن كان بيشوفني ع الماشي منغير ما يقترب مني.

- احكي لي الي بيدور ف دماغك... أنا عارفك وممكن أساعدك لما تحتاجني

- عايز أحكي لك وخايف

- خايف مني

- منك أنت؟! لا طبعًا، أنت ابن منطقتي وعارفك إنك حد جدع وصاحب صاحبك.

- طيب على راحتك يا برنس، عموماً أنا هابلغه لما يفضى يقعد معاك. وهاهو بهاء يجلس قبالي متأملاً وجهي وأنا أستمع إلى حديث البرنس عني، كنت أنتظر مبادرته بالتعليق، وأعلم أن وراء عودته ما يستوجب الاهتمام، كما هي عادته معي، عنفني على عشوائيتي وتشتتي، وسألني عن اهتمامي بعلمي، واستطرد في الحديث عن البرنس، وطالبني بأن أوليه اهتماماً أو أتركه لحاله حتى ينسى.

حينها دق هاتفني...الرقم ليس مدوناً على قائمتي، أجبت بعد تردد، جاء الصوت نسائياً رقيقاً ويبدو أنه كان مسموعاً، حين قام بهاء وهو يغمز لي بعينه، ليفسح لي مجالاً للحديث:

- أستاذ حسين؟

- نعم معاك

- أنا من دار(.....) لرعاية المسنين

- أهلا بحضرتك أي خدمة ممكن أقدمها؟

- أنت فاكِر إنك زرت الدار من وقت مش بعيد، كانت بياناتك ورقم تليفونك متسجلة في الاستعلامات زي ما اتعودنا مع الزوار

سادت لحظة صمت، وتمثل لي عم إسماعيل يعاتبني، نسيت مواعيدي معه في زحام الأحداث، كنت أود لو جمعت له معلومات عن العراق وجسر

الرصافة، والمحبين الذين يلتقون على جانبيه يتهايمسون بالنظر، الآن وجب أن أزوره من دون أن أحمل له زادًا يعين الذاكرة.

- فعلاً ووعدت الأصدقاء النزلاء إني أكرر الزيارة كلما سمحت ظروف في
- عشان كده فيه واحد من النزلاء يبسأل عنك باستمرار، ساءت حالته
مؤخرًا مفيش حد بيزوره، فوعده إني أتصل بيه، رغم أنني باعرض نفسي
للمساءلة لأني باعمل كده على مسئوليتي الشخصية.
- أنا مقدر وأوعدك إني جاي أزورهم في الدار في أقرب وقت ومفيش حد
هيعرف إنك اتواصلت معايا.

انتهت المكالمة وكالعادة ذاب بهاء، أما أنا فقد رأيت أنه لا بد لي من تدوين
التشابكات المحيطة بي، ووضع أولويات لاهتماماتي التي لا أعرف كيف
تكدست فجأة حتى صارت تزيع بعضها بعضًا.

أفقت صبحًا على وضعي الذي اتخذته لنفسي منذ مساء أمس، متدثرًا
بالأوراق متعددة الموضوعات؛ مذكرات أمي، وصية خالتي رضوى،
معلومات متفرقة عن بغداد على ورقة ذيلتها بيت شعر.

جهاز حاسوبي الذي تركته مفتوحًا ما إن لمستته حتى أضاء بصفحة من
صفحات مواقع البحث الإلكتروني، ومن خلفها بدت رسالة سمية على
بريدي الإلكتروني، مرت لحظات استجمعت فيها شتات ذهني، كان
يتوجب عليّ أن أجهز للنزول لزيارة الجد إسماعيل بغدادي بدار المسنين،
حينها بدت صورتها تتجمع في مخيلتي، تلك الفتاة التي قابلتها عند أول

- زيارة، ترى أكانت هي نفس الفتاة التي حدثتني بالأمس أم تلك فتاة أخرى تعمل بالدار؟ أغلق باب الخيالات والتكهنات وأنا أجهز للواقع.
- مالذي سوف أحمله للجد اسماعيل من أحاديث مؤنسة عن معشوقته بغداد التي يلقب بها، كنت خلال الأيام التي غبتها عنه أحاول البحث فيما لدي من أوراق، كان أولها مذكرات أمي؛ جاءني صوتها واضحًا من صفحات أحاديثها مع صديقتها سناء عبر الهاتف المنزلي:
- أخيرًا يا وفية قدرت أتوصل لمعلومات عن أشرف، فيه هنا سيدة عراقية اسمها ليان؛ كنا بنتكلم عن المصريين في العراق.
- كلمتيها عن أشرف؟
- لا هي الي اتكلمت عن حبيبها إسماعيل.
- إسماعيل مين؟
- إسماعيل جارنا، صحبة جلسة عم جمعة أبو ناصر وعم جابر مرارة.
- معقولة؟!
- أعطتني رقم تليفونها عشان تطمئن عليه، لأنها هربت من العراق من سنين قبل أهلها ما يقتلوه.
- يقتلوها ليه؟
- تقول إنها هربت وهم بيحضروا لزواجها من ابن عم لها راجع للعراق من هجرة طويلة بالولايات المتحدة الأمريكية.
- وأشرف أخباره إيه؟

- قالت إنه دائم السفر، لا يستقر بمكان وهو يبحث عن سفر للعمل بدولة خليجية ثانية، فالعراق من حرب لحرب وحصار؛ يعيش على سطح صفيح ساخن.

- وإيه الي يبقي لعم إسماعيل هناك بعد ما هربت محبوبته؟
طال حديث أمي في مذكراتها بشجونه وتوتراته في تلك الليلة، أخبرتها صديقتها سناء أن عم إسماعيل باق في العراق، بعد رحيل (ليان) محبوبته، وقد اطمأن عليها، بقي أن يطمئن على مدينته المحبوبة بغداد، وهو لن يفارقها وقت المحن.

كنت أظن أنني أدركت السر للقب الجد إسماعيل بغدادي، فربما التقى بحبيبته هناك في بغداد ونما حبهما على شاطئ دجلة، لكنه بدا لي رجلاً مختلفاً يعشق مدينة بأكملها، بشوارعها وطرقاتها ونهرها وجسورها، وأما المحبوبة الآنثى فقد اطمأن أنها في مأمن إلى حين.

ربما كان هذا تفسيره في حينه وربما جذبه عشق آخر لا أدري كنهه ولا أستطيع له تفسيراً، لذا علي أن أجمع ما شئت من معلومات وأحداث وطرائف وشعر وأحملها له من زمن لزمن.

حاولت التواصل مع سمية مرات وأنا أجهز لزيارة الجد إسماعيل، هاتفاً مغلق، كتبت لها رسائل على كافة الوسائط ولم تصلها، راجعت علامات تأكيد فتح الرسائل دون جدوى.

في طريقي لزيارة الجد التقطني البرنس، الذي أصبح يعرفني عن قرب منذ حادثة اصطدامه بالسيارة الفاخرة، ألح عليّ في أن أجالسه قليلاً وأستمع إليه، وكنت في عجلة من أمري وأرغب في اللحاق بموعد زيارة دار المسنين لرؤية الجد إسماعيل ورفاقه، عرض عليّ أن يحملني في مركبته حتى أول الطريق، على أن أجالسه لمدة نصف ساعة بالمقهى.

مقهى مرارة قريب من بيتي، وهو نفس موقعه بعد أن تطور من سقيفة بالبوص إلى مقهى كبير تعلوه بناية عالية، بالداخل يجلس الجد جابر مرارة، في أغلب الأوقات نائماً على كرسيه، الذي تعلوه صورة له شاباً بزي عسكري يقف شامخاً حيث يقلده أحد كبار العسكريين وساماً، في المواجهة عُلِقَتْ شاشة عرض تلفزيوني كبيرة، تجتذب مشجعي كرة القدم لمشاهدة المباريات، تطورت مقهى مرارة كثيراً عما قرأته عنها في مذكرات أمي، بينما غاب كثير من روادها الأوائل، بعضهم طواه الموت وآخرون طوهم النسيان، ولا تزال الجدران تحمل صوراً لرفاق جالسوا الجد جابر مرارة وبعض ممن التفوا حول طاولته، وهناك أيضاً ركن لصور شهداء الحروب رفاق مسيرة الجد جابر مرارة الذين كانوا أبطال حكاياه لجلسائه وللعاشرين على المقهى حين ينتابهم الفضول فيسألون عن أصحاب الصور، هكذا حفظ رواد المقهى القدامى سير أصحاب الصور، الآن تبدل المقهى وبقيت الصور معلقة بإصرار الجد جابر، يحتويها صمت الجدار، ويكسر حائطها الرابع أصوات فقاعات النرجيلة، واصطدام قواشيط ألعاب

الطاولة، وضجيج مذياعي برامج الحوارات، وفوضى الإعلانات، الآن يدير المقهى الأبناء والأحفاد، ويعهدون بخدمة الزبائن لمجموعة من العاملين الشباب.

جلست مع البرنس على طاولة في مدخل المقهى، بدا متوترًا يتحدث همسًا فلا أكاد أسمعه بسبب ضوضاء برامج التلفاز المفتوح بصفة دائمة.

- عندي مشكلة كبيرة ومش عارف أعمل إيه؟

- احك لي

- كنت فاكّر حادث العربية الفخمة مع التوكتوك عدى وخلاص انتهى، وخصوصًا إن أصحاب العربيات دي مقتدرين وممكن تصليح العربية مش حياثر عليهم.

- طبعًا

حكى لي البرنس إنه التقى رجلًا على الطريق طلب أن يوصله لمكان، لكنه ابتعد به حتى وصل على أول الطريق الدائري وطلب منه ترك مركبته داخل دكان فتحه ثم أغلقه، ثم حمل البرنس معه في سيارة لمكان آخر.

- أنت تعرف المكان ده؟

- لا، السواق كان ماشي بسرعة جنونية، و يدخل طرق ملتوية مقدرتش أحفظ معالم الطريق، خصوصًا إني مخرجتش من منطقتي كثير.

- كانوا عايزين منك إيه؟

- عرضوا عليّ اشتغل معاهم

- بيشتغلوا إيه؟
- معرفش
- ليه أنت خايف؟
- تحدث البرنس عن فخامة المكان وعن رغبتهم في تدريبه حتى يصلح للعمل معهم، وعن تكفلهم بتعليمه بعض المهارات.
- كنت أستمع إليه وأحاول تنفيذ حديثه لأرى ما إذا كان مبالغاً فيه أو متخيلاً، ولو كان حقيقياً فمن هؤلاء وماذا يريدون من صبي اصطدم بسيارتهم ذات يوم؟
- أفقت على سؤاله: أعمل إيه يا أستاذ؟
- أرفض؟
- ممكن يقتلوني؟
- مش بسهولة كده
- لا أعرف إن كان ما يفعلونه مع هذا الشاب لعب أو سخرية أو تسلية لأناس فقدوا الإحساس أم هو حقيقة تخفي وراءها أسراراً أكبر تعبت بأمن الناس وأمانهم، حينها لم أكن أملك إلا أن أنصحه ألا يقبل ويترك مصيره للأقدار.
- حين حملني البرنس لأول الطريق، استوقفتني إعلانات عشوائية مخطوطة بألوان زيتية على سور السكة الحديد تعلن عن أشياء شتى.

خدمات نقل أثاث، مأذون شرعي، سلع، دروس خصوصية، علاج
غضروف بالعصا، تدريب على المصارعة، مراكز تنمية مهارات قتالية.
كيف ومتى نما كل هذا القبح على حوائطنا حاملاً للمجتمع أخطاره دون
رقيب؟

التقطت صوراً للجدار المخطوط، لأرفقها بموضوع أكتبه للجريدة،
ووقفت أبحث عن كلمات أطمئن بها البرنس، لكنني لم أجد ما يطمئنه،
فأنا أيضاً لم أعد مطمئناً.
تتعدد الوقفات الاحتجاجية والتظاهرات والاعتصامات، والمطالب الشعبية
تنتقل من مكان لمكان كما تتسع رقعتها ويعلو سقفها تدريجياً.

.....

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن
سلوت ولكن زدن جمرًا على جمرٍ

أسير في شارع جانبي مغلق ببناية تعترض استكمالها، أراجع الأبيات التي
حفظتها بعد أن عدت مرات لمحرك البحث على الشبكة الالكترونية، أبحث
وأتزود بمعارف عن بغداد، وعن جسر الرصافة فيلقيني البحث إلى القرن
الثالث الهجري لأرى الشاعر(علي بن الجهم) بين يدي الخليفة العباسي
(المتوكل) ينشده أبياتًا في المدح ظنها الحاضرون هجاءً من خشونة لفظه،
وتعجبوا حين كافأه الخليفة فأسكنه دارًا على شاطئ دجلة ذات بستان
فسيح، ومنظر بهيج أقام بها وتنعم بمباهج الحياة، فعاد بوجه جديد،
رقيق اللفظ مرهف المعنى.

ووجدتني أمام واقعة ميلاد تلك الأبيات التي تشهد كيف يرقق الجمال
قسوة الحجر، ويلون بداوة الرمل بركة الشعر، ها أنا ذا أحمل بعضًا مما
يجب عم إسماعيل بغدادي، وأعلم أنني لا أقدم شيئًا يجمله، ولكنني

أحاول أن أقرب بيننا المسافات، أصنع جسراً من المحبة تصل بين جيله وجيلي، بعد أن فصله أبنائه عن محيطه.

تواردت على ذهني توقعات اللقاء، ماذا يمكن أن يحدث، وكيف سأستقبل الأحداث عند وقوعها، هذه ليست زيارة عادية إنها استدعاء مسبب، ترى ماذا ينتظرنني؟

عند بوابة المدخل استوقفني رجل مسن يرتدي زي رجل الأمن، ويقوم بهذا الدور كوظيفة؛ في عجالة راودني سؤال مشروع: كيف يستطيع رجل مسن تأمين المكان في ظل أجواء متوترة؟

اكتفى الرجل بمراجعة بطاقة تحقيق الشخصية، ثم أفسح لي بوابة الدخول، التي أفضت بي إلى حديقة صغيرة تتناثر على جوانبها شجيرات، وبضعة أحواض للزهور، وممرات معبدة، ونافورة لا تعمل، ورغم زيارتي للمكان من قبل؛ لكنني هذه المرة أدخل من باب مختلف، في المرة السابقة دخلت من باب يفضي إلى الداخل مباشرة.

تبدلت عليّ الاتجاهات والشوارع فكان هذا الباب أمامي، توقفت أتبين معالم المكان، وأبحث عن مدخل.

السور الخارجي الذي يحيط بالحديقة لا يواجه السلم المعتاد والبوابة المؤدية للداخل، بينما يوجد ممر يمين وآخر يسار.

هذا المكان الذي أقف فيه لا يصله بالمبنى سوى نوافذ وفواصل بناء، لا بد للزائر عبر هذه البوابة أن يتخذ طريقه للداخل عبر أحد الممرات.

اخترت الممر جهة اليمين، الذي ما إن انحرفت نحوه حتى طالعت المشي
المعبد تحفه ممرات الحشائش وعلى حوافه مقاعد ثبتت في الأرض، يجلس
على بعض منها ثنائيات من رجال وثنائيات من نساء ومجموعة من النساء
آثرن الوقوف في دوائر للحديث، وفي آخر مقعد يجلس الجد إسماعيل
بجانبه سيدة تجاوزت الستين بعام أو عامين على حسب تقديري، وصلني
صوته يغني وهي تحاول أن تجاريه بتصفيق رتيب وخجل:
فوق النخل فوق

يابا فوق النخل فوق

وصلتُ حدّه، جَارَيْتُهُ بالتصفيق، فلم يعرني اهتمامًا، توقفت حائرًا، كيف
أبدأ حديثي معه، وهو يواصل الغناء، يبدو أن الجد إسماعيل كان يملك
صوتًا صالحًا للأداء الغنائي، قررت ألا أفسد عليه استمتاعه، بحديث
عادي، جلست في مقعد مواجه لهما، متأملًا ما يحدث، وللحظات شغلت
عن متابعة كلمات الأغنية بالتفكير فيما آل إليه حال هذا الرجل، وتلك
التغيرات السريعة التي قلبت حياته منذ حادثة الانفجار في شارعنا، ومن
هو صاحب قرار عزله ولم؟ وتذكرت أيام غيابه بعد الحادثة، حتى أنا
شملتني طريقة التفجير بمتغيرات شتى، وتوالت عليّ الأحداث، وأُلقيت على
كتفي المهام، وفاجأتني الاكتشافات، فلم أعد أنا كما كنت من قبل،
تداعت في مخيلتي كل الصور، منذ آخر لقاء لي مع غالية التي تبهرت صورتها
تدريجيا، واكتسبت عادة التمعن أكثر فيمن حولي وما حولي، أتأمل

الأشياء والأفعال والناس، وأراجع المشاهد التي أمر بها، لا أرجع شيئاً للصدفة، بل أبحث لكل شيء عن سبب ودوافع، لذا أنا الآن ومنذ دخولي من بوابة الدار أرصد كل التفاصيل، أحاول أن أجد مبرراً لوجود الجد إسماعيل هنا، دون أن يعرف جيرانه وأصحابه بمصيره، هو الذي اعتاد الشارع وما فيه، واعتاد الناس وجوده الدائم.

وبسبب أنني دخلت من باب الحديقة مباشرة دون المرور بمبنى الإدارة، جاءت فتاة من العاملات بالمكان، أخرجتني من عصف ذهني، بأسئلة معتادة، ثم تسلمت مني الأشياء التي حملتها كزيارة للنزلاء، وطلبت بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بي لتسجيل الزيارة.

والله يا مجري ألمي يابا سلم عليهم

صعبة الفرقة عليا يابا واشتقنا ليهم

والله ما أريده وبالييني بلوة

صفقت لانتهاؤ الأغنية وأعدت مذهبها مردداً معه، (فوق النخل فوق يابا فوق النخل فوق)، رفع عينيه نحوي، فاقتربت منه، وهمست:

- ليان؟

- تعرف ليان؟

- اتعرفت عليها في الأوراق

كالذي ينتظر إشارة حتى تنهال عليه الذكريات والحكايا، انتقل إلى جوارى وبدأ يحكي:

لم أكن ضمن الرفاق الذين خاضوا الحرب هنا مثل جابر مرارة أو جمعة أبو ناصر، فأنا لم أجد كوني ابنًا وحيدًا لوالديّ، قضيت أيامي بين عملي وانتظار حضور الرفاق في إجازات، أنا يا ولدي رجل محب للحياة، والحب. شارعنا الذي تراه الآن ممهدًا، كان رملاً ممتدًا حتى الأفق، ونحن مثله ممتدة أحلامنا الجافة.

- وهل قابلت الحب لأول مرة في الشارع الممتد حتى الأفق، ولا سافرت تقابله على ضفاف دجلة؟

- قابلته هنا مرة وتجاوزني، حببت بنت وقبل ما أفاتها خطبها واحد من الرفاق فقَبِلَتْه وتزوَّجته.

وتزوجت أنا قريية لنا من بلدتنا بسوهاج، جميلة، كنت بشوفها في زياراتي لأهلي وأعمامي هناك.

- أنت محظوظ بالجماليات يا عم؟

قطعت صمته الذي تبع استرساله المحتشد بالخيالات والصور، تنهد ليكمل حديثه، كمن يقرأ ذكرياته على شاشة مثبتة أمامه.

- يا ولدي، الجمال المبهر مش بيكتمل إلا بحالة إبهار كاملة، وهي لم تكن كذلك، اكتشفت أنني تزوجت صورة جميلة فقط، لا تملك أن تحاورها، أو تتكامل معها، هي بلا اهتمامات أو مشاغل، بلا أفراح أو أحزان.

أتعرف كيف تعيش الحياة بلا معنى سوى أن تنتظر عودة رفاق يحملون حكايا سعيهم؟ وأنا أحيا موظفًا بشركة غزل الكتان، أعطي ملل الأيام

الخاوية بشال الصمت، يعودون يتباهون ببطولاتهم، يعيدونها مرات
ويضيفون التفاصيل كلما انضم إليهم من عاشوها معهم، ثم ماذا؟
ها أنا ذا أمامك دعني أمثل لك طرفاً من وقت فاصل، أعود معك لزمن لم
تعشه، وأناس لم تعرفهم، لترى كيف كنا، وتجذ تفسيراً لما صار عليه الآن
من بقي منا.

الزمان: خريف العام السابع والسبعين وألف وتسعمائة
المكان: مقهى مرارة ليس كما تراه الآن، توزعت المقاعد الخيزران وبعض
الطاولات المصنوعة يدوياً بيد الصديق جابر مرارة، والتف حولها العمال
العائدون من عمل بدني، عمال بناء جنوبيون على الأغلب، وقد تجهزوا
لتناول عشاء، أعده جابر كما اعتاد في مقهاه على تقديم خدمة إطفام
العمال العائدين وغيرهم من الجوعى مقابل قروش.
اطمأن جابر لوصول الطعام للجوعى، وجاء يجالسنا حاملاً جهاز (راديو)
صغير بلا أسلاك، ساد الصمت جلستنا على غير عادتنا، حتى جاءنا الصوت
مجلجلاً:

- ستدهش إسرائيل حينما تسمعي الآن أقول أمامكم؛ إني مستعد
للذهاب إلى بيتهم، إلى الكنيست الاسرائيلي ذاته.
غطت صدمة التصريح وما تبعها من جدال على ما بعدها من حديث مؤثر
عن الأمهات الشكالي عن النساء الأرامل عما تفعله الحروب بالشعوب.
- ماذا ينوي الرجل أن يفعل؟

- كيف يذهب إليهم؟ ولماذا؟
- أي سلام هذا الذي ينشده؟
- ودماؤنا وشهداؤنا وأرضنا؟
- تجادلنا واشتبكنا في مناقشات كانوا هم أقدر مني على الخوض فيها هم الذين دفعوا الثمن من أعمارهم ودمائهم.
- وحدث يا ولدي أن أبرمت اتفاقيات كانت علامة فارقة، هل أحكي لك عن أحوال جلسائنا بعدها؟
- لم نعد كما كنا في حديث مشترك، عشنا نجتر بطولاتنا الفردية، كلما جلسنا معًا، أمسك أحدها طرف الحديث وحده وكأنه يحدث نفسه، أو غاب بعضنا في صمته وحيدًا.
- لم يكن لي بطولات أجترها وأغيب فيها متخذًا منها بلسمًا لواقعي، حتى زواجي لم يكتب لي ذاكرة يمكن أن تشكل شيئًا أذكره.
- تزوج من بقي من الرفاق، وكان أن ضاع آخر أمل لي، تلك التي عرفتها وتمنيتها، فكانت من نصيب غيري.
- تفرقنا بين سفر وعزلة، ومن بقي منا كان يعيد ترتيب قناعاته، ويبنى مستقبلًا لأبنائه كيفما يرى.
- وقابلتها هناك؟
- مين هي؟
- ليان

كنت أهرب من سراب إلى حلم بالارتواء، إلى بغداد المهمة العنيدة، التي يأوي إليها الضحايا العائدون من معارك الحياة بلا أوسمة، الفارون من خيبتهم، هؤلاء الذين يلاحقون الحلم المستحيل.

- ماهو الحلم المستحيل؟

- الحلم المستحيل أن نفر مما فقدناه، ثم نبحت، حتى يلقانا حلم آخر أو نلقاه.

- وقد لا تلتقونه

- يحدث ألا نلقاه فنظل نهيم حتى ننسى أو نستبدل أحلامنا بوقائع أيامنا، هكذا أصبحت لنا حكايا، تؤنس جلساتنا، نسافر ثم نعود محملين بالهدايا والحكايا.

صرنا أبطال الحقبة، الثمانينيات يا ولدي، جعبة حكايا الطيور المهاجرة. حتى أبطال زمن الحروب والتضحيات لحقوا بنا وتوزعوا على خارطة الوطن بين الخليج والمحيط، حين التهمت الحاجة نياشينهم وتراخت عضلاتهم على مقاعد المقاهي فسئم الجلساء حكاياتهم وغابت القدوة عن أبنائهم فتلمسها بعض الأبناء في بعض الذين يعودون وقد صبغتهم غربتهم، فتغير خطابهم وتبدلت لهجاتهم، وأحيانا ملابسهم، ووقفوا معلمين، وجلسوا وسط دوائر دروس الدين.

- دي حكاية أنا عارفها ياعمي، كنا احنا أبناء الفترة دي ودول آباؤنا الي احنا لم نتربى في حجوهرهم، أنا عارف وشفيت كل الي بتحكي عنهم.

كنت أعلم أن عم إسماعيل بغدادي مولع بحكايا الذكريات، عن بغداد و أيام بغداد، ولم أكن أعرف من قبل ما يخزنه من أوجاع الحقيقة، وما يستشعر من خطورتها وحده من يعرف حقيقة ما يحكي، وحده يملك خلطة التوابل التي تجعلك تشناق لسماعها.

الآن أعرف كيف تفتقده جلسات أصحاب الدكاكين الصغيرة، هؤلاء الذين تفرغوا بعد طول عناء، واكتفوا بمتجر صغير جاء ضمن صفقة تبادلية للملاك الجدد، أو جاء من حصاد سفر، وها أنا ذا أجلس أمامه استمع إليه، بصمت حيناً وأناوشه أحياناً.

- مش هتكلمني عن أول حب؟ عن الي تمنيتها فكانت لغيرك؟

- وفية

- وفية؟

حينها عاد إلى ذاكرتي مشهد الرجل الذي كان يتبعنا يوم الزلزال، ويلح على والدتي أن يحملني عنها، وأنا أطل عليه من فوق كتف أمي، أنا الذي فقدت كتف الأب مبكراً ولم يبدُ أن غيابه الدائم في سفر جعل صورته الأولى تبهت في ذاكرتي، وعرفته هكذا كما هو الآن.

انتفضت من جلستي حائراً هل هو يعلم أنني ابن تلك المرأة التي أحبها يوماً، وهل انتظرته أمي ثم قبلت بالزواج من أبي؟ تلك أسئلة شيطانية، لكنني أعرف نفسي، أعرف أنني لن أهدأ حتى أنبش الأوراق، وأكشف الحقائق، تلك الحقائق التي لن تجدي شيئاً في زمن غياب أبطالها.

مر الوقت دون أن يشبع فضولي وجئت بأسئلة وسأعود بمزيد من الأسئلة، ولم يكتف الجد إسماعيل، بل أضاف المزيد من الحيرة تتشابك مع فضولي إذ قال:

- أنا أعرف سبب حادث الجمعة، لذا أنا هنا بأمر من أبنائي وآخرين، الآن أنت تعرف لماذا اختفيت بعد الحادث، لكنك لا تعرف أين أخفوني.

انتهى الوقت المخصص للجلوس في الحديقة وانتهى معه وقت الزيارة، فقام العاملون بدفع المقاعد المتحركة للجالسين عليها، وتوكل البعض على عصيهم، بينما سار آخرون على مهل، وغابوا داخل المبنى، بقيت واقفاً في ذهول، وددت لو طال الحديث، ولا أدري لماذا انتهى وقت فسحة النزلاء فجأة، وركنت في ظني أن المكان مراقب من قبل الإدارة بواسطة أجهزة صوت وصورة، وربما قطعوا الوقت فجأة، هكذا حاورتني شكوكي، وزادت مخاوفي ولهفتي لكشف حقيقة الأمر، وقبيل أن يختفي الجد إسماعيل بالداخل أشرت له مودعاً، وألحقت بإشارتي طلب أن يكتب مايريد قوله لي.

أسير بلا هدف أنتقل من شارع لشارع، لا أحدد وجهة لسيري، ضائع أنا في تشابكات الماضي بالحاضر.

هل أنا غاضب؟ هل أنا حزين؟

الغضب هو ذاك الشعور بالاحتقان الذي يعترينا حين نصطدم بأحداث جارحة، أو نخدع حين نكون آمنين.

الحزن ما الحزن؟ ذلك الوله الشجي القابع على حواف المقل، المقتصد في نسج الحرف، الذي لا يندمل بذرف الدموع، ولا دموع له. أشعر بثقل الحمول ولا أجد لدي رغبة في رفعها عن كاهلي، ولا وسيلة حتى الآن تفك طلاسـم التشابكات، وتفسح طريقًا للحلّ.

تلك الطرقات التي نسير فيها بمفردنا، لا تزدهر فيها الورد والخضرة، ولا تصاحبنا فيها الموسيقى الحاملة، نحن الذين صدقنا حكايات الأمهات والجدات، وآمنا بأبطالها، وفي بيت كل منا تمثل لنا البطل أبا أو عمًا أو خالًا، ثم أفقنا على السراب، ذلك الذي حول أبطالنا إلى مجرد حكايا وأحاديث، ثم غياب.

الليل والظلام وبيتي الصغير، وورقة تحمل وصية، ورسالة استغاثة إلكترونية، وصبي يستنجد بي من مجهول لا يأمن شره، ورفيق طفولة ضائع من زمن، وطيف يراودني، وسيدة دخلت حياتي وخرجت، وظنون تساورني، ثم ينبش عم إسماعيل ذاكراته، ويأتي بصورة أُمي.

هل ساءني ما ذكره الجد إسماعيل وأنا أنبش ماضيه، أنا الذي عشت أقـدس أُمي، وتساورني شبهة اتهام لنفسي، كأنني ارتحت لرحيل أبي بالسفر، ثم تنعمت برعايتها لي وحدي.

هل كانت أُمي تعلم ما يدور في نفس عم إسماعيل، ولم تتقبله؟ أنا أرغب في إرضاء نفسي المتشككة وأركن إلى تلك الفرضية مدعمة بمشهد يوم الزلزال.

يجافيني النوم فأشعل سيجارة وأخرج إلى فضاء السطح خارج جدران شقتي
المثقلة بأحمال الذاكرة، في غمرة الحديث ومفاجآته لم أسأل عن تلك التي
طلبت مني زيارة الجد، ولم أسع لرؤية الفتاة التي قابلتني في الزيارة
السابقة.

يدركني الصباح وأنا لا أزال جالسًا، أطالع الشارع من أعلى، أطلب رقم
بهاء، يفتح الخط على أصوات الضجيج والزحام، وصياح واستغاثة وأبواق
سيارات طوارئ الاسعاف والشرطة.

- والله أنا معدي بالصدفة ياباشا

- امش من سكات.. التحريات هتثبت إن كنت معدي بالصدفة ولا بتحوم
حوالين مكان الجريمة

- صدقني يا حضرة الأمين

- الظابط قال تركب البوكس... دي أوامر

- طب معلش سيبني أودي التوكتوك عند البيت وهارجع لك تاني

- التوكتوك ده من الأحرار

تأتينني الأصوات عبر هاتف بهاء الذي أنهى عمله بالصيدلية وكان في طريقه
إلى بيته لينام حتى سمع بالحادثة التي أحدثت ضجة بالشارع فأسرع
كعادته يستطلع الخبر.

- إيه الحكاية يا صاحبي؟

- حادث زي حوادث كل ساعة في خمسة وأربعين

- وليه الزيفة دي كلها؟

- اغتصاب وقتل

عند هذا الحد من الحديث، أنهيت المكالمة ورحت أستعد للنزول كي أستوضح الأمر بنفسى، تتساقط على ذهنى توقعات الحدث، من كثرة تكرار الأحداث وتشابهها.

لا شيء يشبه أن تعيش فى الزحام، وأن تترك قلبك جانباً، حين تحتاجك الحوادث المؤلمة، كي تُعَمِّلَ عقلك فى نبش نسيج الافتراضات، حينها لا ترى سوى المتناقضات باتساع الفروق بينها، حتى هؤلاء الذين حملوا قلوبهم مثقلة بأوجاعها لا تلبث أن تركز جانباً فى الصدور حين تزاوحها مناقشات العقل فى البحث.

الحادث فى نهاية الشارع القبلية، بينما امتد الضجيج والزحام حتى عبر النفق للجهة البحرية، وعيًّا أن أسير مخترباً الجموع و زحام السيارات ووسائل الانتقال الأخرى حتى أصل، أما رجال الشرطة فقد انتشروا بطول الشارع، مستوقفين الصبية والرجال قائدي المركبات ذات الثلاث عجلات (التوكتوك) يأخذون بعضهم ويتركون آخرين، وكذلك فعلوا بسائقي (التريسكل) الذي يستخدمونه فى نقل سلع وبضائع من مكان لآخر، كما أنهم جمعوا بعض الشباب المشتبه بهم.

أسير حاملاً بطاقة تحقيق الشخصية، وتصريح عملي كصحفى، وبطاقة عضوية نقابة الصحفيين.

مخترقًا زحامًا مختلطًا بين الآليات والناس، الوجوه المألوفة والوجوه العابرة، رجال الشرطة في ملابس مدنية، ونساء متسوقات يتلкан لاستطلاع الخبر، وصبية صغار ينتقلون بين الدكاكين لشراء احتياجات صغيرة، وهناك صبية آخرون خرجوا لتقصي الأخبار وحملها إلى داخل الأزقة حيث ينتظرهم رجال توقف نشاطهم حذرًا لوجود الشرطة، وهؤلاء الصبية يقومون بعمل البصّاصين.

اختفت من الشارع مركبات (التوكتوك) عدا تلك التي تم التحفظ عليها، كما اختفى عمال اليومية الذين يجلسون على الرصيف الفاصل بين نهري الطريق في انتظار طالبي الأعمال البدنية، وهناك على أول شارع جانبي جلس بعض رجال الشرطة لا أدري ماذا يفعلون.

وصلت إلى بؤرة الزحام، حيث تحلق الناس حول موقع الحادث، حاولت أن أستطلع ما بداخل الدائرة البشرية ولكن منعني الزحام، ورجال الإسعاف والشرطة، فاكتفيت مؤقتًا بالتقاط أطراف الحديث من الأصوات المحيطة.

- خطفوها وهي نازلة الصبح بدري تدور على شغل
- لا دي ضحية عركة بين ولدين صيع
- البنت غلبانة صاحبته قالت لها تعالي قابليني وهنروح شغل سواء،
وبعدين سلمتها

- يقولوا فيه ست مشت جنبها وطلبت منها توصلها بالشيلة عشان ثقيلة، رشت عليها مخدر وسلمتها اغتصبوها وقتلوها

- ماهو لازم يقتلوها عشان أكيد هي عرفاهم

تعددت الروايات والنتيجة واحدة؛ اغتُصِبَت الفتاة ثم قُتِلَت، مثل تلك الأحداث تتكرر بنفس الطريقة في أماكن مختلفة.

وصلت سيارة الطوارئ، اخترقت الزحام وفرق رجال الشرطة المتزاحمين، كانت هناك سيارة خاصة قادمة من مدخل الطريق الدولي حتى وصلت الشارع، أوقفتها الشرطة، حتى يفسحوا المكان لحاملي الجثمان بعدما انتهت معاينة الحادث.

.....

انفض التزاحم عن دائرة الحادث بعد نقل الجثمان، ظهر مكان الجثة مغطى
بآثار دماء، رغم قول البعض أن الجثة وجدت ملفوفة ومعبأة داخل أحد
أجولة الدقيق أو السكر بجانب الرصيف الأوسط.

على أثر ظهور الدم بعد تفكك الزحام؛ لمحت سقوط فتاة فاقدة الوعي كانت
تقف بجوار سيدة أخرى خارج السيارة التي حملتهما بانتظار إفراح
الطريق للمرور، لولا مرور سيدات متسوقات ممن تلكأن بدافع الفضول،
لذا وقفن لتقديم المساندة.

بعد خطوات كنت في مواجهة السيدتين، لم أكن أتوقع رؤيتهما في تلك
اللحظة، فاجأني وجه سمية حين أفاقت ورفعت رأسها عن كتف السيدة
سناء صديقة أمي.

- هذه عمتي التي حدثتك عنها.

- وهي خالتي أيضًا وصديقة أمي.

وقفت صامتًا في حيرة وخجل، وددت لو أخبرتها أنني ما أهملت استغاثتها،
ولو وجدت وسيلة اتصال بها ما تأخرت عنها، لكنها فاجأتني:

- جئت للإقامة مع عمتي بأمر من والدي، سأكون هنا حتى يأذن لي
بالعودة.

لم أجد ما أقول، فأشرت لهما معتذراً حتى يعودا للسيارة، ووعدتهما بزيارة قريبة.

لا فائدة من البحث عن بهاء الآن، وعليّ أن أعود لأرسل ملخصاً عن الحادث إلى الجريدة، وأنتظر الرد لأكتب عن هذا الحادث.

من دماء الأحداث الجارحة تكتب الوثائق، كيف نبقي على حيادنا فوق السطور، ونحن ننزف حزناً أو غضباً، ونختبئ داخل أردية ترسم صورنا، تلك الصور التي تواجه الواقع نيابة عنا.

ألف سؤال وسؤال يأخذني يطوف بي عبر الأحداث الماضية والآنية، ترى ما حال تلك الفتاة المغدورة، كيف انتهت هكذا جثة ملقاة على قارعة الطريق، بل متى تمكن الجناة من إلقائها وكيف تم ذلك في شارع يضج بالحياة ليل نهار.

وكما زحام شارعنا وضجيج الحياة وتناقض الأحداث كنت أنا، ولست كالواقع المحيط بي يفيض ويهدر، على العكس تماماً أكون أنا كلما تصادمت المتناقضات داخلي، وتزاحمت الهموم والأفكار فإني أغيب في تلايف تشابكها.

.....

أجلس على مقهى مرارة بعد مسافة سير ذهاباً وعودة بطول الشارع المزدحم بالسيارات التي توقفت طويلاً وقت إغلاق الشارع، تمر غالية داخل سيارة يقودها سائق، أستطيع أن أتحقق منها وممن معها بالسيارة عندما يزدحم نهر الشارع بالسيارات فتبطئ أو تتوقف.

في الأمام يجلس رجل يتخفى بغطاء رأس ونظارات شمسية، وعلى المقعد الخلفي تجلس هي، بدت لي مختلفة تماماً لا أدري هل تغيرت خلال تلك الفترة الوجيزة أم هكذا رأيتها.

تتشغل بدفتر بين يديها تتمعن في سطوره، وكوب بغطاء يحوي مشروباً ترتشف منه برقة مفتعلة.

يأكلني فضولي لأعرف ماذا تقرأ، تلك التي لم تقرأ سوى المقررات الدراسية وبعض من كتب مثيرة.

أمام المقهى تتوقف السيارة المقلدة للسيدة سناء بصحبة سمية ابنة أخيها، ويظهر بهاء أخيراً من بين الزحام، كمن شق الأرض وخرج فجأة، فيضيف إلى فضولي مزيداً من الشغف، لم يعد بي طاقة كي أحتمل المفاجآت؛ انتفضت واقفاً.

- صاحبك أخدوه ضمن الي لموهم

هكذا صاح بي بهاء من مكانه بجوار السيدة سناء، كان يحمل دواءً ناوله لسمية، مضيئاً وموجهاً حديثه لي للتوضيح:

- هاتفتني العمة سناء طالبة دواءً للأنسة جلبته من الصيدلية.

بعد لحظة صمت عدت لجملة الأولى، أيقنت أنه يقصد البرنس سائق التوكتوك كان ضمن من جمعوهم من تلك الفئة، ورجحت أن الصوت الذي سمعته من خلال هاتف بهاء كان صوته، والآن لابد من إيجاد وسيلة للوقوف بجانبه، ما الذي يمكن أن أفعله من أجله، وهذا هم آخر أضيف إلى قائمة همومي.

تتخبط بداخلي المشاعر، بين غضب وغيرة، فلا أجد قولاً، أقف صامتاً وحالة الصمت تلك تناسب زحام الأحداث التي مررت بها خلال يومين.

لا بأس، ستقيم سمية هنا بالقرب، وسيكون في الوقت متسع لاختبار المشاعر، لكن ماذا عنها هي؟ أتراها تفكر كما أفكر؟

رمقني بهاء بنظرة فاحصة، هذا الفتى يعرفني، يستطيع أن يستقرئ ما يدور بداخلي، في صمت رفع حقيبة من السيارة المتوقفة مشيراً لي برفع الحقيبة الأخرى، حتى ننهي تلك الوقفة.

أشعر بارتياح مؤقت لمرور الموقف وصعود سمية بصحبة عمتها، بينما بقي بهاء لا يبدو على وجهه تعبير يمكن ترجمته وبناء حديث عليه.

عدت إلى طاولتي بالمقهى مصطحباً بهاء، نتابع ضجيج الشارع بصمت، بدا بهاء حزينا، هذا الحزن الهادئ يخفي سراً.

- مالك يا صاحبي؟

كلمة (مابك؟) تلك، هي مفتاح خزانة الأحزان، كلمة السر التي تنتظرها الذاكرة حتى ترسل سطورها المحملة بالأوجاع، غيمات حزن تتقاطر، قبل أن يتبلور جواب السؤال، وربما أخذتك أيضًا إلى بحور أحزانك وأنت تسأل بها إنسانًا قريبًا منك، تغوص فيها وتنتظر أن يبدأ حديثه عمّا به، وكأنك تحدش قشرة الجرح البنية فتعيدها جرحًا طازجًا.
بدا بهاء كمن يوجه أسئلته إلى نفسه:

- هل كنت أنا السبب في...هل اتقتلت بسببي؟

- أنت بتقول إيه؟ أنت بتهلوس يا صاحبي؟

- لا، أنا باتكلم بوعي وعقل

بدأ يحكي:

أنا أعرف تلك الفتاة المغدورة، كانت تأتي إلى الصيدلية وقت عملي، بحجة شراء دواء؛ في البداية لم ألاحظ اهتمامها بي، لكنها بدأت تطيل وقوفها في حديث بلا فائدة، تسأل عن أدوية لأمراض تبتدعها، وأجيبها بأنني لست صيدلانيًا، والأدوية لا تصرف إلا بوصفة طبية، كنت أدلها على أطباء تستشيرهم، فتعود إليّ بسؤال جديد، أو لشراء شيء من مستحضرات تجميل تباع لدينا، وأحيانًا تحضر قطعة شوكولاتة تقسم أن أقبلها منها، فأتركها كما وضعتها، لم أكن أثق في ما يقدم لي من الزبائن العابرين الذين

يشترتون دواءً متاحًا بلا وصفة طبية، لكنها لم تياس وتمتنع عن المجيء، بل بدأت تأتي بلا سبب، رغم نفوري وأحيانًا طردي لها بأدب.

- وبعدين؟ هل ملت لها؟ هل استهواك اهتمامها؟

- لا سئمت طردها وتغاضيت عن تكرار تردها على الصيدلية، حتى جاءت ذات مساء تطلب دواءً مدرجًا ضمن الأدوية المحظور بيعها من دون وصفة طبية.

كانت مرتبكة ولكنها حاولت أن تبدو طبيعية، ناولتني ورقة مكتوب بها اسم الدواء بالإنجليزية، وكأنها قد كتبتها بيدها، مبدية جهلها بما فيها. أعدتها إليها مبدئيًا راضي، فاجأتني بتوسلها إلي أن أعطيها طلبها مدعية أن أحد أفراد أسرتها يحتاجه لتسكين آلام مرضه، وهم لا يملكون أجر الفحص لدى طبيب.

وصفت لها طبيب شارعنا المسن، الذي يأتي إلى الصيدلية أحيانًا، ويجلس على مقهى مرارة مساءً يصف الدواء تطوعًا؛ بكت، وأخبرتني أن هناك من يتوعدها بالفضيحة، إن هي لم تحضر لهم ما يريدون كل ليلة، رَفَضْتُ بشدة، تعلم يا صديقي أنني ومنذ عملي بالصيدلية لم أتعرض لمثل هذه المواقف، رغم وجود هؤلاء الأشقياء من حولنا ورغم إنهم يعرفونني، كنت مطمئنًا آمنًا من أذاهم، وكأنه عهد بيننا منذ الصغر، حين كنا رفاق المدرسة والشارع، أعرف أن ألم الإدمان لا يبقى على صاحب، وهم

يلجئون لمن يدبر لهم حاجاتهم بوسائل مختلفة، الشوارع الخلفية تأوي بعض الموزعين وصبيانهم، وهم يجيدون التخفي.

- ليه فتحت عينيهم عليك دلوقت؟

- هم دائماً يلجأوا للصيديات بحيل مختلفة، ولكن دي أول مرة تحصل معايا، بسبب إن البنت دي اترددت على الصيدلية علشان تشاغلني.

- وربما تابعتها شاب بيحبها، أو وشى بيها حد

- هما أخذوها فرصة علشان أتورط معاهم.

شردنا أنا وبهاء بعد آخر جملة له، ربما شرد هو في أوجاع ضميره وتساؤلاته عن دوره فيما حدث للفتاة، وفي تبعات الحادث وما سوف تأتي به الأيام القادمة.

وأنا تبعثر تفكيري في شأن بهاء، هل أحب الفتاة أو مال إليها وحزن لموتها بمثل تلك الطريقة.

ثم تذكرت ثباته الانفعالي في استقبال سمية وعمتها، ومدارة مشاعره في التفاعل مع الحادث الذي واكب حضورهما.

أفكر كيف أستخلص من الحادث موضوعاً للجريدة، ليت بهاء لم يحك لي؛ بوحه هذا عرقل تفكيري في الكتابة عن الحادث.

قد تكون حوادث القتل المرتبطة بتأثير الإدمان والمخدرات معتادة في كل زمان ومكان، والكتابة عنها كتابة تقليدية، لكن هنا نحن بصدد حادث مركب، حب وإدمان واغتصاب وقتل.

من الأفضل إذن أن أتحرى عن أبطال الحادث والمحيطين بهم، وعن علاقات تلك الفتاة، وعن تعرف، وأتحرى الحذر حتى لا أثير الشبهات، هذا الحذر الذي يستغرق وقتاً وأنا لست متعجلاً، قد أكتب للجريدة عن الحادث كما هو، وأترك أمر التحقق للكتابة السردية فيما يخص حكايا شارعنا المضطرب بالأحداث والقصص.

لا نزال نجلس أنا وبهاء صامتتين، كل منا يغوص في حزن اللحظة، ورغم أنني ضبطت نفسي متلبساً في تفكير عملي يخصني، تاركاً أمر توترات بهاء وأحزانه للوقت.

- أعتقد الأحداث طيرت النوم منك، يلا نطلع البيت عندي، نفطر ونشرب شاي ونتكلم.

تذوب الحوادث في شارعنا سريعاً ويبقى منها أحاديث الناس الذين تحلقوا حول مكانها، والأضرار التي تنال بعض الذين لهم صلات أو جاء ذكر أسمائهم أثناء التحري.

لا أدري هل كان للبرنس صلة بالحادث، أم تم أخذه بالشبهة، ولكنني أنوي لقاءه والحديث معه، أستزيد منه بالمعلومات وأعرف كيف أستطيع أن أساعده.

كنا لا نزال واقفين بين بوابة البيت ومدخل المقهى، حين جاء رجل شرطة بري مدني يستدعي بهاء، فتبعتهما بوسائل مواصلات مختلفة ووقفت أنتظر

خارج الغرفة التي اقتيد إليها، حينها مر البرنس بصحبة شرطي، ما إن رأيته حتى صاح بي :
- أنا برئ يا أستاذ...أنا معملتش حاجة...ولا حتى أعرف مين الي عمل كده.

مضى به الشرطي إلى الحجز الذي لا أعرف ماذا يمكن أن يلقاه هناك من أذى أو مشكلات.

لا أدري كم من الوقت مر وقطعته بالخروج لتدبير وجبة طعام أرسلتها للبرنس وكم عدد أكواب القهوة والشاي التي شربتها حتى عاد بهاء صامتاً، فصحبته وعدنا دون حديث يذكر.

لسنا مؤهلين للحديث والتحاور، كلانا يغوص في أفكاره التي لو انكشفت لصاحبه لأزاحت غطاء الصحبة وكشفت عورات حديث الذات ومهارات الشكوك، ومحاولات البحث عن شرعية لما نفعله من أجل منفعة شخصية.

يدق هاتف بهاء فينظر من الطالب ثم يعيده إلى جيبه دون رد، وأستوقفه قليلاً بلا هدف، فيدق هاتفه وأستأذنه في الانصراف دون توضيح.

.....

ظلام في الطابق الثالث إلا من هذا الضوء الشحيح القادم من نافذة بين الطوابق، وصوت موسيقى قادم من الداخل، الباب مفتوح ربما لعلمهما بقدومي بعد استدعائي بالهاتف، دخلت على ضوء هاتفي، حيث المشهد العبي.

سمية مغمضة العينين بعصابة كالتى يربطها الأطفال حين يلعبون، تجلس أمام آلة البيانو تعزف مقطوعة موسيقية، بعض الكتب مبعثرة على طاولة الطعام، و السيدة سناء جالسة بيدها حافظة الصور، تتأمل اللقطات القديمة.

- عندنا عطل كهرباء، كان لازم يكون معنا رجل نعرفه علشان نطلب كهربائي.

كنت أتابع سمية التي بدت مستغرقة في العزف دون أن تنتبه لوجودي، ولم أشأ أن أقطع توحدها مع الموسيقى، فجلست على أقرب مقعد للباب، لأبحث في ورقة بمحفظتي عن أرقام عمال الأعطال الكهربائية، أضاءت خالتي سناء شمعة قربتها من مكاني، عندها طرقت سمية أصابع البيانو معاً وأنهت العزف، ثم فكت العصابة عن عينيها وبدت بوجه غاضب.

- الضوء كده كفاية، مش عايزين كهرباء، ولا أضواءً كاشفة، فيها إيه لو
نستمع بالموسيقى على ضوء شمعة، بصحة حكاية.
تبدو خالتي سناء معتادة على غرابة تصرفات سمية، فقابلت الموقف بصمت
حين كنت أود أن ألفت النظر للحالة التي مررنا بها منذ الصباح، فبدلت
حديثي برد مجامل:

- حكاية؟ ده اقتراح رائع، وأنت عندك حكايات مشوقة.
انفلتت العبارات مني بعفوية ناسياً أننا لم نصرح للسيدة سناء بتعارفنا من
قبل، فتلعثمت لأبرر دون جدوى، حينها قطعت سمية حرجي:
- مش هحكي لوحدي، أنا أعزف وأبدأ، ولما أتم المقطوعة، يبدأ واحد
منكم وهكذا، على شرط أن تُحكى الأحداث والحكايات حقيقية وفيها
أسرارًا تعلن لأول مرة.

ساد بيننا صمت؛ غاص كل منا في خزانة أسرارهِ، وطال الصمت حتى كادت
الشمعة الوحيدة تذوب، فقامت خالتي سناء وجاءت بكيس من الشمع،
أشعلت واحدة جديدة، فدقت سمية على أصابع البيانو معلنة أنها ستبدأ،
ومضيفة للمسابقة شرطاً جديداً:

- هنشوف مين الي هتدوب شمعته مع انتهاء حكايته.
أعادت سمية العصابة إلى عينيها وبدأت في عزف مقطوعة موسيقية، لم
تعترض السيدة سناء على شيء، كانت غارقة في تفقد الصور التي تناثرت

حافظاتها على الطاولة أمامها، تتوقف عند كل صورة لحظات ثم تعيدها، وربما تقرأ جملة مكتوبة خلف الصورة.

- الآن أطلق لكما سرًا حبسته في صدري لبعض الوقت، لا ليس سرًا بل بضعة أسرار، لم أسعَ بفضولي إليها، ولم ترفق بي حين انهالت عليّ، أنا سمية التي تبدو كفتاة مدللة، والحقيقة أنا لست كذلك، فلم أحظ بحياة أسرية سعيدة أو مكتملة.

أبي الذي أدمن الغيابات، من غيابات الحرب إلى غياب السفر، حتى انتهينا إلى غيابات متكررة حيث مسقط رأسه في الجنوب، وحتى أيام مضت لم أكن أعلم أن وراء سفره المتكرر سرًا، ذلك أن أبي له زوجة وولد يصغرنى بأعوام قليلة.

قد لا تكون مفاجأة لك عمتي، ربما تعلمين وربما لا تعلمين، ولكن ما لا تعلمينه الآن أن ابن أخيك هذا قاتل.

ألقت سمية السر بضربة على أحد أصابع البيانو كأنفجار القنبلة، فتوقفت الأنفاس في انتظار تداعيات المفاجأة.

تضاربت المشاعر بداخلي، رأيته سمية أخرى غير تلك التي التقيتها بالقاهرة، وتحدثت إليها وشغلتنى كأنني استثنائية، الآن تفتح هذه الأنثى صندوقها الأسود، وأنا لا أود أن أسمع وأعرف، لا أرغب في خدش الصورة التي رسمتها، حاولت الإفلات من التجربة، تمللت وقمت لأنصرف،

فوجئت بتمسك السيدة سناء بوجودي، اعترضت سمية على مهماتنا بدقة (دوم) وتوقفت عن استكمال الحديث حتى عاد الهدوء فبدأت من جديد: - كنت أملك دليل إدانته بين يدي وأنا لا أدري، حين سلبني أبي ذلك الدليل، اعتقدت أن أبي يفعل ذلك ليحميني من خطر ربما أعرض له، ولم يخطر ببالي أنه يحمي ولده.

لهذا السبب استدعاك أبي يا عمتي لتأتي، وخصص لنا سيارة تحملنا إلى هنا، أتدرون الآن من القاتل ومن المقتول؟

القاتل أخي والمقتول صديق شاب كان يعبر الطريق ليأتي إليّ ليصحبني حتى نحضر ندوة، ومن غرائب الأقدار أن أقف أنا (بالكاميرا) لأصور عشوائياً، فأرى الحادث، لم أكن أعلم أن هذين اللذين تسببا في الحادث؛ أحدهما يكون أخي، يومان مرا وأنا لا تفسير لدي لثورة أبي ومحاولاته لإسكاتي، حبسني حتى جئت يا عمتي لتحمليني إلى هنا بوصايا مشددة ألا أبرح باب البيت.

هو أبي الذي عشت حياتي فخورة ببطولاته، وأنا لم أع منها إلا صوراً جسدها بالحكايا، لكني وعيت على أبي بغموض تسلطه الماكر، وخيبات أمني واستسلامها، حياتها الباهتة بلا لون للفرح، غيابه المتكرر عن بيتنا، صور الصبي الذي يظهر دائماً ملتصقاً به، ومن الغريب أن والدتي لم تكن تتساءل بل كانت تمنعني أنا أيضاً من السؤال، في الآونة الأخيرة كنت أتعجب من محاولات أبي لتقليص أنشطتي، وهو الذي رباني على الجراءة

وكلمة الحق بعد وفاة أمي، حينها التمسست له عذر تمسكه بوجودي حوله، أو معاناته من الوحدة، حكيت لك يا حسين من قبل عن أبي، كانت تلك حكاية ماضيه الذي يشبه الكثيرين ممن قابلتهم من الآباء والأجداد.

أندرون ما ثقل أن أرى أخي قاتلاً وأتستر عليه؟ أن يكون لي أخ لا أعرفه ولا يعرفني؟ أن يفاجئني أبي بوجود هذا الأخ في مثل تلك الظروف؟ أريدكما أن تجيبا، أريد إجابة لأسئلتني المشروعة.

هنا دقت سمية (دوم) عالية معلنة انتهاء بوحها، وأنا لا أزال مستغرقاً في وجوم الصدمة التي تعانيتها، وتزدحم بداخلي تفاصيل من حيوات تأبى أن تمضي دون أن تترك جروحها علامات فارقة.

ما الذي يمكن قوله؟ كيف تواسي من يحتاج حلاً؟ المواساة لا تجدي نفعاً، فلماذا يلجأ المتعثر في العقد لمن حوله؟ ما الذي يبتغيه من حكاياه وهو وحده من يعرف كيف يفكك عقدها، أو يتحمل ثقل معاناتها.

أما أنا فلم يكن ينقصني إلا أن أرى وجهاً آخر لمن رأيتها من قبل أنثى استثنائية، كانت بالأمس القريب تبحث عن روابط الدم التي تعقد جدائلها بالبطولات والتضحيات الماضية ولا تدري ما فعلته عوامل التعرية بتلك الروابط، كيف نالتها بالتغيير كما تنال ملوحة البحر جدائل السفن.

أبطال الأمس تغضنت بطولاتهم على المقاعد، واختلفت مقاعدهم بحسب أماكنهم في السلم الاجتماعي، كما الاختلاف بين مقعد في مقهى، ومقعد

التقاعد في ركن البيت، وأعلاهم وأرفعهم مكانة، وأكثرهم طراوة هو ذاك المقعد الذي يدير شئون المال والأعمال.

انتبهت على صوت السيدة سناء تعقب على حديث سمية:

- فاجأني كلامك يا سمية، أنت عارفة أبوكي له أسرارهِ الي محدش يعرفها، وأنا من وقت ما خالفته في موضوع الزواج وبقيت لوحدي بين سفر وعودة، مكنتش بهتم إلا بشأنك أنت فقط.

هكذا عقبَت الخالة سناء على حديث سمية باقتضاب، كنا لا نزال نجلس في ضوء شمعة، ويبدو أن سمية كانت تود مواصلة اللعبة التي بدأتها، وترغب في الاستزادة من تفاصيل الأيام التي لم تعيشها، وكنت مثلها لكنني أخشى أن يأتي دوري فلا أجرو.

جادلت نفسي في شرودي ما الذي يمكن أن أحكيه إذا ما جاء دوري، هل تتقاطع بعض من أسرار عمري مع أسرارهما في نقاط؟

هل أحكي عن تلك الجلسة التي فككت شمل الصحبة في ماضي الآباء، وقرأت أنا سيرتها في أوراق أُمي، هل تبدأ من هنا الحكاية وتتسلسل حتى تصل بنا إلى ما نحن عليه الآن في جلستنا؟

أم أحكي عن ورثة الأبطال، وعنا، عن هؤلاء الذين تركونا ليوفروا لنا أسباب الحياة، فغادروا وما عادوا، هل أحكي سيرة ضياع رفيقي، وبحي الدائم، هل كان أُمامي وأُفلته أم شبّه لي؟

تزاممت في رأسي الأفكار، منذ وعيت وحتى وقتي هذا، كأنها كتاب التاريخ يستعرض الأحداث، هل حدثت كما تتوارد في خيالي الآن؟ أم كنت أعيد صياغتها من جديد كما تتلاءم مع دوري فيها.

دقت سمية (دوم) معلنة بداية جديدة، كانت عمته سناء تتابع سمية بالسمع بينما البصر كان يغوص في الصور، تحت ضوء شمعة وحيدة تتراقص شعلتها بفعل هواء نافذة مفتوحة، فينتقل بعفوية من وجه لوجه، وتدقق السيدة سناء النظر في الوجوه، لا أحد يعلم ما يدور بداخلها من أفكار، وما يتوارد على ذاكرتها من مشاهد الماضي التي سجلتها آلة التصوير.

- أول الضياع زحام الموانئ

هكذا بدأت خالتي سناء حديثها، اختارت الحد الفاصل بين الداخل والخارج، بين الموطن والاغتراب، أعلم أنها تتحدث عن تجربة خاصة. هي امرأة خاضت تجربة السفر والحياة بعيدة عن الأهل والوطن، منيت نفسي بالاطلاع على عوالم النساء المغتربات بصدق وبلا مبالغات.

دقت سمية مرة أخرى، وأشارت إليّ فانتبهت وبدأت حكاية خالتي سناء: - هناك عند الحد الفاصل تتهاوى الروابط، ويبدأ خط جديد أول نقاطه تلك الخبطة التي يحدثها ضابط يضع خاتماً يطبع كلمة خروج ممهورة بتاريخ اليوم والسنة، بعدها تبدو كأنك محاط بهالة من فراغ، وكأنك تسبح في فضاء بلا جاذبية، كيف تركت كل شيء خلفك لتمضي؟

تمسك خالتي سناء صورة بين أصابعها وهي تتحدث، توجهها لضوء الشمعة، وهي توجه سؤالها:

- كيف تركت كل شيء خلفك لتمضي؟ سؤال وجودي، يمكننا أن نطرحه في كل الأوقات، وفي بعض الأحوال، ليس منا من لم يترك خلفه كل شيء ويمضي، نمضي كي نهرب من مواجهة، أو نمضي كي ننسى ولا ننسى، ونمضي كي نتغير، نمضي أحياناً كي نبدأ من جديد ولا جديد، قد نغير المكان والناس، وتظل أطيايف الماضي تحاصرنا، كلما خلونا إلى أنفسنا أطلت علينا بكل حمولها.

ترى ما الذي جناه أشرف بعد الرحيل؟

سؤال طرحته السيدة سناء لم يكن له لدينا أية إجابات، فلسنا ممن حضروا ذلك الماضي بمجاداته، ولا نملك منه سوى بضعة سطور في مذكرات وحكايا شفوية، ولم نكن نعلم لمن توجه السؤال، أهو لأخيها الذي اعتاد الغياب أم لحب عمرها الذي تركها ورحل، أم كانت تسأل نفسها عن سنوات غربتها؟ وتستكمل حكايتها:

- أعلم أنكما تنتظران أسراراً، وأكون مخالفة للحقائق لو أدعي أن حياتي تخلو من الأسرار، ذلك لأنني عشت وحيدة زمنًا، الوحدة بئر الأسرار العميق، أنت تفرح سرًا وتحزن سرًا، وتتلقى الهزائم وتسرها في نفسك، وتفعل وتستقبل ردود الأفعال ولا تبوح.

فماذا فعلت أنا وماذا أخفيت، منذ تعلمت ألا أفصح؟

في رعونة الصبا يجتاحنا الحب، بعضنا يختار البوح لصديق والبعض يفضل الكتمان، ويأوي إلى نفسه، وحين نختار البوح، نعيش احتفاليات الحب، حين نفضي بأسرارنا، نحكي ما حدث وما نتخيله ولم يحدث، ونشارك إحساس السعادة مع رفاق ربما لم يجربوا ذات المشاعر.

وضعت السيدة سناء الصورة التي بين أصابعها على الطاولة أمامها، ورفعت كفها أمام وجهها لتحجب الرؤية، الآن أنا بين سيدتين لا ترياني، وضعت كل منهما بينهما وبين محيطها حجاب، وحدي أنا من يجاهد كي يرى على ضوء شمع شحيح، فماذا لو أغمضت أنا أيضًا، ما الذي تضيفه واحدة من الحواس الخمس لأخواتها حين تتعطل تاركة لهم بعضًا من طاقتها؟

وكأنها تسمع ما يدور بداخلي وتجيبي:

- الآن الخيال وحده يملأ كل الحواس، ونحن في الفضاء الممتد بيننا وبين البحر، الصباحات تحمل الأسرار، وتفضي بها في اللقاءات القصيرة، وكنا نلتقي، نتهامس، نقترّب أكثر، تزيدنا قربًا تلك الروابط الأسرية، والجلسات التي تجمعنا ببيت عم جمعة والد أشرف.

حينها لا شيء يعادل سعادة أكواب الشاي التي أحملها إلى الجلسة فتتيح لي نظرة قريبة إلى أشرف، رغم لقاءاتنا الصباحية.

نصحتني وفيّة ذات مساء أن أقلل من لقاءاتي بأشرف، أخبرتني أن الاعتياد أول الطريق إلى الملل، وافقتها مجاملة.

رضوى ووفية تكبراني سنًا ببضع سنوات، متى أحسست أن فارق السنوات جعل منهما وصيتين عليّ، أنا التي هربت من وصاية أخي، وفية كانت الأكثر قلقًا والأشد وصاية، لذا فقد بدأت أول خطوات الكتمان، حقيقة لم يكن كتمانًا كليًا ولكنه انتقائي، أفضي لها بعض الأسرار و أخفي أسرارًا تقلقها بشأني، حتى كان اليوم الفاصل ذلك أوائل التسعينيات من القرن الماضي، كنت لا أزال صغيرة، اجتزت المرحلة الثانوية والتحقت بالجامعة، بينما رضوى ووفية قد أنهيتا دراسة متوسطة وتزوجتا علي و جمال.

لا أنسى تلك الجلسة التي فككت عقد الصحبة، ونحن لا ندرك منها سوى صيحات الخلاف في شأن تفكك المعسكر الاشتراكي، ثم اتهامات متبادلة بين الرفاق حتى أطلق أشرف مفاجأته التي أعد لها من قبل، ذلك أنه بدل قناعاته، وانضم لحزب جديد، كما أعد نفسه للسفر، لا ندري إلى أين، وبدا ناسيًا ما بيننا، حينها نصحتني وفية بالنسيان والابتعاد.

ليس ما حكيت هو ممكن السر، فلم أنسه، ولم أبدله بزواج ممن يتقدمون لي من رفاق أخي، وتخرجت ووجدت فرصة للسفر إلى دولة خليجية أعمل مدرسة، هنالك قابلت أناسًا من مختلف التيارات، وصدفة جمعتني بمن يعرفون أشرف، أخبروني أنه أصبح ناشطًا ضمن جماعة ذات رؤى ومعتقدات تختلف عما تربينا عليه، وهم ينتقلون من بلد لآخر، يؤدون مهامًا توكل إليهم.

لم أبح لأحد من عائلته بالسر، خشيت على والديه اللذين كانا ينتظران عودته كل يوم، وقد انقطعت أخباره منذ سنوات، حتى ماتت والدته ولم تره.

وها نحن قد توافرت وسائل الاتصال المتعددة بلا تواصل معه، أتدرون لِمَ؟ لأن أشرف مات في عملية بالعراق بعد سقوط بغداد. عند هذا الحد من حديث السيدة سناء دقت سمية على البيانو، وبدأت بعزف مقطوعة تبدو لي حزينة، وحمدت الله أن غاب بهاء عن تلك الجلسة هو الذي لا يزال محتفظًا بذاكرة طيبة عن الغائبين. وفي محاولتي للهروب من البوح بالأسرار في تلك الجلسة، قمت أعبث بلوحة الكهرباء المعلقة فوق الباب، فعادت الكهرباء وأضاءت البيت، بينما ظل داخلي يموج بالحيرة والقلق حول ما تركه بوح الجد إسماعيل وما حكته سمية وما أضافته السيدة سناء.

.....

كتبت في موضوعات شتى للجريدة، وأعترف أنني لست مقتنعاً تماماً بما كتبت، وأنا أدخر بعضاً مما أفكر به لكتابات أخرى، ربما ظهر جديد في قصة الفتاة.

رغم مرور الشرطة كل ليلة، وجمع بعض المارين عشوائياً، والزج بهم في الحجز، بعضهم يعودون للشارع وبعضهم ينتظرون حتى يضمنهم أحد أقاربهم هؤلاء الذين لم يكونوا يحملون بطاقات تحقيق الشخصية.

حتى الآن لا أدري ماذا حدث للبرنس، وأعترف أيضاً أنني نسيت في غمرة المشاغل وكان لابد أن أسأل عنه، أو أذهب لرؤيته، وكذلك لم أتذكر حال العم إسماعيل بغدادي وغفلت عن زيارته.

لماذا أخذتني الغفلة بعد تلك الليلة؛ ثلاث ليال بعيداً عن همومي القريبة، كنت أصحو وأنام وأتدبر طعامي مما هو مدخر في البيت، وأكتب موضوعات أرسلها للجريدة، وتأخذني الأفكار لحال سمية وقضية أخيها.

ثلاث ليال غابها بهاء أيضاً منذ آخر لقاء بجانب مقهى مرارة يوم وصول سمية، وهو الذي اعتاد على زيارتي ومهافتي يومياً، لماذا لا أبادر أنا بالسؤال عنه؟

ولماذا منذ تلك الليلة لم أتفقد أحوال خالتي سناء وسمية؟ لا أدري ما الذي أصابني بهذا السكون! أهو الخوف مما قد أبوح به؟ وماذا لدي لأبوح به؟ أهي جرأة سمية في المبادرة وتعقيدات قصة انتقالها للإسكندرية؟ وأين هي الآن؟ لماذا لم تهاتفني؟ لماذا لم ترسل لي رسالة كما فعلت أول مرة؟
يأتيني صوت من داخلي:

- كيف تنتظر أن تفتح لك الأبواب بالصدفة، لماذا لا تسعى لكشف المجهول وتقصي أسباب ما تراه من نتائج.
- هل أنا وحدي هكذا؟
- لا أدري ولكني أرى الأقرب لي وليس مثلي.

بهاء لا يسعى ولكن بحكم وجوده بالشارع عشق التفاصيل حتى إنها تأتيه طواعية دون أن يسعى إليها.
- ولكنه يفندوها ويبحث أسبابها.

أتوقف عند هذا الحد من الجدل النفسي، أقوم من جلستي أود أن أشعل سيجارة، لا يوجد لدي المزيد من السجائر، فقد أتيت على محتوى علبتين منها خلال عزلتي ولم تكن تلك عادتي فلست مدخنًا شرهًا، أود لو أطلب علبة من الشاب الذي يقف على ناصية الشارع يبيع السجائر على طاولة عرض لأنواع مختلفة، وأتحرك لأهاتف أحدًا ممن في (مقهى مرارة) كي يتحدث إلى البائع فيرسل لي بعلبة سجائر، وقبل أن أطلب الرقم، يستدعي

خيالي صورة الشاب بائع السجائر، ولا أحد يعرف ماذا يبيع أيضاً، وهل يتكسب من هامش الربح ما يكفيه، ليقف ساعات النهار بجوار المقهى. يبدأ يومه بعد الثانية عشر ظهراً قادماً من أزقة جانبية، مرتدياً ملابس ضيقة زينت بكثير من العلامات التجارية المقلدة صيفاً، والجلدية شتاءً، يصفف شعره ملتصقاً برأسه لامعاً بشكل مبلل، أما ذراعه وأكتافه التي يحرص على أن يُظهر أجزاءً منها صيفاً لم تنجُ من وشم برسومات مختلفة، وذراع يحمل رسم سيف ووجه حرص على أن يظهر قوةً وشراً، وشم أسد، ولم تساعدني أطراف الوشم الظاهرة على كتفيه وربما امتدت لظهره أن أعرف معالمها، توالى عليّ تفاصيل الشاب بائع السجائر، وأنا أفكر كيف أحصل على علبة منه، دون عناء النزول وإضاعة وقتي في زحام الشارع الذي لم أكن أشعر بحاجة للخوض فيه.

تتلخص حاجتي الآن في تدخين سيجارة مع كوب الشاي، وجلسة هادئة أكمل فيها ترابط موضوع واحد من تلك التي تدور في عقلي لتكون مادة لكتاباتي، وإن لم يكن لدي وسيلة أحصل بها على علبة سجائر، فإنني تراجع عن فكرة أن يرسلها لي البائع عبر الصبي الذي يعمل بالمقهى، حين تذكرت أن بهاء حدثني يوماً عن تلك الوسيلة في الحصول على علبة السجائر عبر وسيط، هي واحدة من وسائل تبادل المخدرات، فإذا ما فعلت ربما أصبح موضعاً للشك.

ما الذي لم أتعلمه من بهاء هذا الذي يصغرنى ببضع سنين؟
أطلب بهاء عبر الهاتف فلا يجيب، أنتظر ربما يكون مشغولاً وسيعود
ليرى مهاتفتي فيتصل بي، لكن ذلك لم يحدث عبر ساعتين من الزمن.
في الطريق حملت معي سجائر وفطور وقفت أدق على باب شقة بهاء وهي
شقة صغيرة ضمن شقق سكنية ومحلات ومعارض بنيت فوق أرض كانت
كلها بيت آل أبو ناصر، فمنحوها لمقاوّل بعد رحيله ليرفع عليها البنيان
ويتقاسمها الأبناء والبنات، لم أكن من قبل أبادر بزيارتي له معتمداً زيارته
لي، وذلك تقليد اتبعته منذ كبرنا، فأنا وحيد، وهو ربما أحياناً تفاجئه
زيارات الأخوات وبنات الأخوات، الآن وجب أن أعرف ما به.
- أسف يا حسين مش وقتك.

أجابني بهاء حين نظر من خلال عين سحرية خلف الباب ليرى من
الطارق، وأنا أقف بخجل لا أدري ماذا أفعل، أعرف أنني تأخرت في السؤال
عنه، توقفت قليلاً في محاولة يائسة لاسترضائه، ولكن بلا جدوى
فانصرفت وأنا أتبع تحولي عن الباب بجملة:

- لما تروق تعالى نتكلم...هانتظر

الآن ليس أُمامي إلا أن أجلس على مقهى مرارة، أتناول فطوري وأتابع
الشارع بضجيجه.

توقف أُمامي اثنان من الشباب أحدهما يقود دراجة نارية ملحق بها
صندوق خلفي لنقل بضائع من مكان لآخر (تريسل) والثاني يقود مركبة

ذات ثلاث عجلات لنقل الأفراد (توكتوك)؛ أوقف كل منهما مركبته بجانب الرصيف، كنت أهم برفع كوب الشاي الذي وضعه أمامي صبي المقهى، حينما صعد السائقان الرصيف وأصبحا قريبين من طاولتي، يكملان حديثهما.

- أنا شفته بالليل كنت رايح أودي له أكل

- ما خفتش من الحكومة

- لا أنا رايح أودي له أكل بس...أنت عارف البرنس مالوش في حاجة هي اللقمة والسيجارة.

أفقت على ذكر اسم البرنس الذي لا يزال رهن الاحتجاز بقسم الشرطة، هذان الشابان من رفاق مهنته سمعتهما يذكران اسمه وبعضاً من أخباره ومما يعاينيه داخل الحجز.

من وقت وقوفهما يتحدثان بالقرب مني، سرق انتباهي سائق (التوكتوك) دون الشاب الآخر الذي يقف معه، وكأنه لوحة مرسومة لواقع عادي مدهش بتفاصيله المستهجنة، وجهه و ملابسه وحديثه، إيماءاته وضحكته التي لا تكتمل ولا تترك بعدها ظل ابتسامة، كان خليطاً من نموذج هذه الفئة ومن الأناس التقليديين بتوابل صنعتها ظروفه الخاصة جداً، يرتدي بنطالاً ساقطاً من الخلف، يتحسس جيب مؤخرته بين الحين والحين أثناء حديثه، كمن يطمئن على وجود أشياء يحتفظ بها، ويلبس قميصاً تجتاحه خطوط طولية من الأبيض والأسود وقد تحول لون

أبيضها رمادياً بفعل الأتربة و العرق، عيناه زائغتان لا تستقران على تأمل شيء، يتحدث إلى رفيقه وهو ينظر فيما حوله، يكيل لصاحبه النكات والطرائف البذيئة، ولا يكمل ضحكه.

شردت في تأمله حتى إنني أخرجت ورقة وقلماً وسجلت ما خطر لي في وصفه، ناسياً الوقت الذي يمر وأني يجب أن أتحرك قبل انتهاء فترة العمل النهاري لقسم الشرطة، ربما لا يسمح لي بعدها بزيارة البرنس حيث يُحتجز.

انتهيت من كتابتي وشربت آخر رشفة من كوب الشاي، ثم قمت متوجهاً إلى الشاب سائق التوكتوك سألته إن كان بإمكانه أن يوصلني حتى أول الشارع من الجهة البحرية، هز رأسه موافقاً، وأشار لصاحبه بانتهاء وقتهم، وتبعني حيث جلس أمام المقود وأدار المحرك وجهاز الصوت الذي راح يصدر إيقاعاً مزعجاً، بهدوء طلبت منه أن يخفف الصوت حتى يسمعي، فاستجاب واستبدل الصوت المسجل بفتح حديث متبادل.

- أنا عارفك يا باشا بشوفك هنا في الشارع كثير

- فعلا أنا من سكان الشارع

- أي خدمة حضرتك زي ما انت عايز أوديك

- شكرا يا...

- اسمي حسن ...قول لي رايح فين، يمكن أقدر أوصلك من غير ما تبدل مواصلات وتتعب نفسك

- أنا رايح قسم المنتزه، هتقدر توصلني لحد هناك؟
دار الشاب السائق المدعو حسن عائداً للخلف قليلاً، ودخل شارعاً جانبياً
سالكاً دروباً ملتوية من شوارع صغيرة وأزقة مزدحمة وعشوائية، تمتلئ
بباعة الأرصفة وباعة جائلين بمكبرات صوت يعلنون كل عن سلعته بين
منظفات وخضروات وفواكه وأشياء لم أستطع معرفتها من خلال نداء
الباعة.

فجأة توقف السائق ودار بحركة بهلوانية ليعود للوراء حين اكتشف أن
الشارع الضيق الذي نسير فيه، يقطعه زحام شكلته اشتباكات بين رجال
ونسوة وتبادل شتائم واتهامات.

- ملناش في اللبش ده يا باشا

- هنعمل إيه دلوقت؟

- مفيش سكة سالكة تانية بس خلينا متتاويين هنا لحد العركة ما تنفض
- أنت تعرف هتنفض إمتى؟

لو أن الراكب شخص آخر غيري لفضل أن يغير الوسيلة بدون انتظار
محفوف بأحداث لا يدري عواقبها، لكنني وجدت لها فرصة ساقها إليّ القدر
لتفصلني عن ثلاث ليال عزلة صمت، ولأرى أحداثاً يمكنها أن تكون
مادة لكتاباتي ولأستمع إلى هذا الشاب القريب من البرنس.

في جذب لأطراف الحديث الذي يملأ فراغ الانتظار؛ أوضح لي الشاب أن
الشجار الدائر بين عائلتين، ارتبطتا بصلة نسب حين تزوج شاب من بنت

جيرانه، لم يدم زواجهما سوى عام واحد قضت الزوجة معظمه في بيت أسرتها.

كنت أفكر في ملخص الحكاية التي قد تبدو مكررة في واقعنا، رغم اختلاف التفاصيل التي ربما تكون قد صادفتني في حكايات سمعتها.

سألت: لماذا الشجار الآن إذن؟

ابتسم الشاب ابتسامة باهتة، وفرك كفيه، وسألني عما إذا كنت أحمل سجائر، فمنحته سيجارة، ترجل من المركبة ووقف ينفث دخانها للأعلى ويتابعه، حتى نبهته أن يرى هل أصبح من الممكن أن نتحرك؟

عاد وجلس على عجلة القيادة وألقى ببقايا سيجارته على الأرض، وبدأ يحكي وأنا أتابع أصوات الشجار الذي بدأ عاليًا ثم تراجع شيئًا فشيئًا واقتصر على جمل متبادلة وردود وأصوات رجال تحسم الخلاف ثم عاد عاليًا يقطعه صياح امرأة تستغيث يتلوها صياح نساء.

أما الشاب السائق فقد أسند رأسه بكفيه، وغاب شاردًا، وأنا ألوم نفسي على اختياري له الذي لا أدري عواقبه، ولا أعرف إلّا يقودني في هذا النهار، كنت أغوص في أفكاري حتى أفقت على صوت الشاب، يتحدث لا أدري هل كان يحكي لي أم هو يبوح بما يثقل صدره لينفض عن نفسه ثقل حديث يحمله.

لست خبيرًا في تحليل الحالات النفسية لمثل هؤلاء الناس، وما الدوافع التي تحركهم، لذا فأنا أتوقف خائبًا مسلوب القرار، بانتظار أن يأتي قراره وكأني

محبوس في قفص، أستعرض في ذهني كل ما يمكن أن أفعله لو طال توقفنا هنا، وماذا يمكن أن يحدث، ويدور بخيالي أننا ربما نكون هنا في منطقته وعلى أرضه التي يعرفها وله فيها رفاق، وربما لم يكن صدفة دخولنا إلى تلك الأزقة وإنما عن رغبة منه لسبب لا أعلمه.

هكذا شطح خيالي خلال فترة سكون وصمت الشاب السائق، حتى أخرجني صوته من أفكاري تلك، وقد علا فجأة مختلطاً بنحيب مكتوم. - خلاص يا أستاذ ما تقلقش قربنا نتحرك هتخلص العركة حياخدوا بنتهم حية أو ميتة ويمشوا.

أنصت إلى أصوات الشجار التي تحولت إلى أحاديث رجال، واختلط صوته القريب بأصواتهم الأبعد، كان يحكي بوجع عن تلك الفتاة التي أحبها. وها أنا أتحوّل من شكوكي إلى حالة فضول عفوي ومهني، أجلس في مركبته الصغيرة وكأنني ما كنت معه إلا لأستمع إليه تاركاً مشاغلي الأخرى جانباً. يفاجئني بأنه متورط بشكل خفي في هذا الشجار الذي قد يتطور إلى جريمة قتل، يعاودني التوتر، وبعض من توقعات لتطور الأحداث مما ينسجه خيالي مبنياً على تحليلات ما يحكي، وحتى أصل إلى يقين بشأن ما يحكي، رأيت أنني لابد أن أستمع إليه جيداً، ربما استطعت أن أفعل شيئاً أو أمنع جريمة ذكر أنها ربما تحدث.

تبدو قصة هذا الشاب في أولها مكررة وعادية، شاب فقير أحب فتاة فقيرة، ربما أوهمته بحبها وصدقها وربما أحبته حقاً، ولكنهما لا يملكان ما

يمكنهما من تتويج هذا الحب بالعيش معاً، وهما في سن اشتعال الرغبة، لا يكفيهما اختلاس القبلة، واحتضان الأيدي، والتصاق الجسد، فاجأته الفتاة برغبتها في الزواج.

معادلة صعبة تلك التي فكك هذا الشاب عناصرها بسرده البسيط الموجه، فتاة شابة متوقدة، تحيا في بيت صغير، شقة أرضية من غرفتين بين أب وأم، وأخت، وطفلين.

أربعة أبناء لأسرة ينامون بغرفة صغيرة لا تتسع سوى لسريرين صغيرين، يقتسمون فراش النوم، على كل سرير فتاة وطفل، تلثم حين أفهمني أن الفتاة تنهشها الرغبة للجنس، حتى إنها كانت تذوب إذا ضغط يدها حين يلتقيان ويسيران على الشاطئ، أوحين يجلسان ملتصقين على أحد المقاعد أمام البحر، حكى بعضاً من المواقف التي واجهتهما وهما يجلسان معاً، كمثل أن كتب أحدهم على خلفية المقعد: أترضاهم لأختك؟

وآخر هاجهما وهددهما وبصعوبة تركهما بعد نوبة من الوعظ شديد اللهجة لم يحظ بها غيرهما ممن يقفون بسياراتهم في مواقف السيارات على البحر وقد احتموا ببلطجية دفعوا لهم أكبر من قيمة أكواب شاي لم يشربوها.

لم تستطع الفتاة تحمل الانتظار، بين زحام البيت وصعوبة اختلاق الحجج للخروج حتى تلقاه، والخوف من عواقب ما يحدث أثناء لقاءاتهما، ولم تحتل شك أمها حين ترفض أحد المتقدمين للزواج منها.

لم تحتمل رغبتها في حضن رجل يحتويها وبیت يكون لها، لم تحتمل سماع حكايات صديقاتها عن ليلة العمر وما يحدث فيها، والألم الذي يتلذذ به. تلتقيه لتحكي له آخر ما حدث في ليلة زفاف عروسين قد يعرفهما وربما لا يعرفهما، وتثير فيه الرغبة، حتى كان آخر لقاء جلسا على مقعد في حديقة، خلفهما شجرة، فرشت فتاته قطعة قماش على فخذيها ووضعت طعاماً حتى إذا انتهيا منه، امتدت يد الشاب تعبت بين فخذي الفتاة من تحت الغطاء، وكذلك فعلت هي حتى ذابا تماماً، حينها انتبها على رجل يقف خلفهما، كان يراقبهما من مكان قريب أمام الحديقة، أصر الرجل على أن يأخذ حقه من الفتاة، وهددهما بالقوة حين أخرج من جيبه مطواة لوح لهما بها مهدداً بتشويه الفتاة وطعن الشاب.

كاد هذا الشخص أن ينتصر في اقتياد الفتاة إلى مكان يخصه، وهو يلف يده خلف ظهرها ويضع سن مطواة في جنبها، حتى أنقذها القدر، حين اصطدم الخاطف برجل يعرفه، فاشتبكا معاً حول تقاسم الغنيمة، حينها فرت الفتاة.

- من ساعتها يا أستاذ قررت تقبل أول حد يتقدم لها.

بعثت تقولي:

- هأقبل الحلال واعيش، أتمتع زي باقي البنات من غير تهديد ولا خوف، سألتها:

- أنت مش بتحبييني؟ قالت: بحبك وهأفضل أحبك وأنام معاه وأتخيله أنت.

ساد صمت خجول بيننا، لم أجد ما أقوله له، ولم أحدد انخيازي لطرف منهما، وربما ظن هو أن سكوتي تحيرًا له، فواصل حديثه:

- طب هي تتجوز وتنام في حضن راجل وأنا اعمل إيه؟ أنا لا مؤاخذه يعني مع نفسي مش بتخيل حد غيرها، وحتى ده مش بيكمل كل ما أقرب أوصل افكر إنها هتكون دلوقت في حضن غيري، أضيع، زي الي عنده عجز جنسي.

لساني صامت أمام حكاياه، وخيالي شارد فيما يمكن أن يكون حسن قد تخيله عن فتاة ذاق معها اللذة، فعرف خباياها.

حين أراد أن يواصل حديثه عن تلك الخبايا فيخبرني كيف كان يتخيل دعاباتها للزوج، وكيف تستطيع استثارته بكلمة محملة بالشبق، لم أدعه يواصل، أشرت له مستنكرًا منه إفشاء السر فسكت وقام يدخن سيجارة بجانب المركبة.

استعرض خيالي صور مشاهد أيام الإعداد للأعراس في شوارعنا، الزغاريد والفُرش المعروضة على حبال للتباهي بجهاز العرائس؛ ومهما كانت حالة أسرهم الاجتماعية، وقدراتهم المادية، فإن الجمعيات المقسطة والسلع المقسطة تقوم بدور كبير يعاني منه أهل العروسين فيما بعد، وكم من الأمهات الغارمات يقبعن خلف أسوار السجون.

تذكرت أيام الجمع التي تحفل بسيارات نقل الأثاث لاستعراضه أمام الجيران، ثم نقله للشقق المؤجرة بنظام القانون الجديد كما يسمونه، رغم مرور سنوات على استحدثه، وزيادة الإيجارات سنوياً بموجبه، ورحلة أثاث الزوجية التي تنتقل به وبالزوجين من مكان لمكان، كونهما لا يملكان قيمة مقدم الشقق المخصصة للشباب ولا يستطيعان توفير أقساطها الشهرية، حتى إذا ضاقت بهم الأحوال فالحل في العودة لبيت الأسرة، بالطلاق أو بسكن غرفة في بيت أهل الزوج أو بيت أهل الزوجة، انتبهت على صوت السائق حسن يكمل:

- أنا يا أستاذ مكنتش عامل حساب حكاية الجواز

- يعني أنت كنت بتحبها وتمشي معاها وبس

- لا كنت عايزها بس ما باليد حيلة، أنا معايا دبلوم صنايع وباشتغل سواق توكتوك وعندي أم واخوات باصرف عليهم.

كنت حائرًا في أمر الفتاة وأمثالها، كيف تجاريه وهي لن تكون له، ولماذا لم تنتظر فرصة الزواج دون أن تعشم شابًا بالحب، هكذا وجدت نفسي متلبسًا بانحياز ذكوري، مستنكرًا على الفتاة مشاعرها الطبيعية ورغباتها وغرائزها.

عاودتني ذكرى غالية التي تزوجت التاجر ولا أدري لماذا تخيلتها واحدة من هؤلاء، ولا أعرف الآن كيف تتدبر أمر نفسها بعد أن تباعدت عنها أو

بعدت هي عني، هل كان في جعبتها من يحل محلي، ربما يكون هو الذي رأيته معها في السيارة يوم الحادث.

أيقظتني تنهيدة الشاب، وصوته النادم يحكي عن يوم زفاف حبيبته، فانتبهت لأستمع باهتمام إلى التفاصيل التي يحكيها قبل أن يصل إلى الحدث الأهم، لأعرف كيف يكون سبباً في خلاف بين عائلتين وقد يؤدي إلى جريمة قتل كما ذكر.

- يوم الفرح يا أستاذ كنت مش طايق نفسي ولا طايق حد، وهالين عليا أنتحرأو أروح الفرح أحوله ميتم، كنت بفكر في كل اللي هتديه للعريس وهي لا مؤاخذه ماصدقت تبقى في حضن راجل؛ جالي واحد صاحبي كان مسافر به، قال لي:

- ليه يا صاحبي تضيع نفسك، اهدأ وأنا هجيب لك من الآخر وأدي لك الناهية.

انتبهت لما سيحكي الشاب، وأنا لا استطيع تخيل ما يمكن أن تفعله كلمة (الناهية) ذلك المصطلح الشوارعي الذي يتردد كثيراً على ألسنة الشباب في المناطق الشعبية وقد اتسع استخدامه مؤخراً حتى انتشر على نطاق أوسع عبر شباب الجامعات والمدارس، يستخدمونه كدلالة على القدرة واختصاراً للإنجاز العملي السريع دون مبالغة.

- صاحبي طلع شوية براشيم من جيبه، عد كام واحدة وقالي: خد الأمانة دي، قلت له: ده مش دماغي ماليش فيه، ومفيش حاجة تخفف الي أنا فيه، قالي: ده مش لك، دول للعريس
عند هذا الحد من حديث الشاب احتشدت كل حواسي حتى أقصى درجات الانتباه، أستمع وتسبق سمعي كثير من التوقعات.
صاحبي قال لي:

- دول بأه هيخلوا السبع (هلهولة) في الليلة دي، ولمدة كام ليلة.
خدتهم وحضرت الزفة وناولت العريس الأمانة بهدوء وحتى يقبلها أفهمته أنها نقوط المعلم (شريف طيارة) عشان العريس يتبسط ويدعي له ربنا يفك الضيقة.

طبعا اسم شريف طيارة معروف عندنا وخدماته ومساعداته للناس معروفة رغم وجوده في السجن؛ المعلم شريف هو الي جابلي التوكتوك ده عشان آكل عليه عيش، كل يوم أدعي له ربنا يفك الضيقة، هو دخل في قضية مخدرات لكن هياخد براءة بإذن الله عشان بيعمل خير كثير.
سألته:

- طيب ماخفتش إن حد يسأل المعلم شريف؟
- لا يا أستاذ هدايا المعلم شريف تتاخذ بس من غير ما حد يذكرها
أكمل حكايته ذاكرًا إنه عاد من الزفة، وسهر بجانب النافذة مهمومًا يستعرض شريط ذكرياته، ويتخيل فتاته وما يمكن أن تكون عليه في

بيت رجل غيره، يقطع شروده بين الحين والحين خطوات أو أصوات قادمة من الشارع ربما تحمل الأصوات أخبارًا، فبيت العروسين بنفس الشارع، حتى رأى سيارة الإسعاف تحمل العريس الذي أصابته غيبوبة.

- طيب يا حسن يعني أسعفوه ورجع

- أيوه يا أستاذ بس فضل هلهولة لحد دلوقت، والبت تروح عند أهلها تقعد شوية ويرجعوها وتحصل خناقات زي ما شفت كده.

شردت في هذه الجرائم المستترة والتي لا يستطيع المجني عليه أو أحد من ذويه الإفصاح عنها، ونسيت أن في الأمر جريمة منتظرة حتى نبهي حسن.

حكي لي ولم أعرف كيف وقف على كل تلك التفاصيل الخاصة والشائكة التي تخص مجريات الأحداث في الغرف المغلقة، حتى أخبرني أن الجيران يتناقلون الحكاية من بيت لبيت، والسيدات اللاتي يزرن والدته يحكين لها تطورات المشكلة، من ليلة الزفاف حين تعثر الشاب في القيام بواجباته الزوجية، ثم فقدانه الوعي والوعكة التي ألمت به، ولا يزال يعاني منها.

وكنت أدرك ماذا يعني ذلك في تلك الأزقة المتفرعة من الشوارع الكبيرة بالأحياء الشعبية؛ حين ينتظر أهل الفتاة دليل عفة ابنتهم حتى يتباهوا به أمام الجيران ويتأخر، كم من مرة وأنا صغير شاهدت أناسًا يرقصون بقماش بيضاء ملطخة بالدم، ولم أكن أدرك وقتها لماذا يرقص الناس فرحًا بدم مراق.

وحين تتأخر علامة العفة، يسود الغضب وتنتشر الشائعات، راودتني تلك الصور وأنا أستمع إليه.

- عملوها بلدي يا أستاذ

لم أفهم مايقصده بمجملته الأخيرة، فأفاض بشرح ماحدث، حين اجتمعت نسوة من أهل العروس وأهل العريس، و قيدوا الفتاة حتى تمكن العريس من فض بكارتها بإصبعه فأراق دمها على قماشة بيضاء، وعمت الزغاريد وانصرفت النسوة حاملات دليل العفة، بينما أغلق الباب على الفتاة والشاب، ومن يومها والفتاة لا تستقر في بيت الزوجية أسبوعًا حتى تعود لبيت أبيها، والحكايات تنتقل من بيت لبيت عن الشاب العاجز عن القيام بواجبه، تضاف لها شائعات عن أخلاق البنت التي تتمرّد على زوجها وقت ضعفه، و يروج أهل الشاب عن البنت ادعاءات عن سوء سلوكها، وتورطها في علاقات محرمة.

توقفت عند ذكر تلك المعلومة وسألته: عما إذا كان هو وراء تلك الأقاويل أو أنه تورط مع الفتاة مستغلًا وضعها المأزوم، وسهولة الفعل إذا كان الباب مفتوحًا فلا خوف من فقدان بكاره، أو ربما يكون قد خطط لكل ماسبق حتى يقطف الثمار دون أعباء أو قيود.

- عيب عليك يا أستاذ، تصدق أنا غلطان إني اتكلمت معاك بصراحة، أنا ممكن أكون شقي، والشارع علمني حاجات كتير وسخة، بس كمان الشارع علمني حاجات تانية يمكن تكونوا ما اتعلمتوهاش في الجامعة.

لم أنتظر حتى يكمل حديثه عن الفضائل التي تعلمها من الشارع وقد يكون صادقاً، وبادرت بالاعتذار عن اتهامه رغم تورطه في بذور المشكلة، كنت أرغب في استدراجه لمواصلة الحديث كي أعرف أكثر.

- إذن لماذا تتوقع حدوث جريمة؟

- جريمة قتل يا أستاذ... البت لما بتروح بيت أبوها أهلها بيرجعوها عشان يقطعوا الكلام بتاع سوء السمعة، وييهددوا البنت إنهم يقتلوها وينضفوا سمعتهم لو ما رجعتش، ولما بترجع بيت جوزها كمان بتتهدد بالقتل، عايزين يرتبوا لها جريمة شرف ويخلصوا.

- وأنت؟

- والله يا أستاذ ما لمستها ولا كلمتها من يوم ما حددوا الفرع.

صمت الشارع إلا من صياح الصبية وصراخ البنات الصغار ودعوات الأمهات، وبكاء أطفال مُنِعَتْ عنهم حلوى يشتهونها أو لعبة، أو حُبِسُوا عن الركض في الشارع، واختلط ذلك بأصوات الباعة يأتي من أزقة قريبة بعضها أصوات لا أتبين ما تعلن عنه من سلع، وبعضها مما تحتاجه ربات البيوت من منظفات وخضروات. ولا شيء مما كان حين دخلنا الشارع، ومن لحظة لأخرى تمر دراجة لا يلتفت راكبها، أو يعود طفل يحمل حاجيات لأمه.

هل حقًا هناك جريمة منتظرة، وهذا الذي يجلس بالقرب مني متورط في أسبابها، وماذا عني أنا الذي استمعت وعرفت، ماذا عليّ أن أفعل؟ لا جريمة واضحة ولا قرائن تثبت تورط طرف ولا أدلة.

طال وقوفنا بلا سبب وقد انتهى الشجار، بالشارع ليشتعل بداخلي، ويواصل أزمته داخل الشاب المتحير في أمر نفسه وما سببه للفتاة وأهلها في لحظة ضعف بشري.

أدار الشاب محرك مركبته متنهدًا بيأس، وتحركنا صوب هدفنا، بين الأزقة الضيقة والشوارع الخلفية التي قرر الشاب أن يسلكها، وسط الضجيج الذي أصبح لا يعني شيئًا، بيد أنه يفيض بحكايا كثيرة مشابهة، وجرائم قتل منتظرة، وحقوق مسلوقة، وخفايا صادمة.

خلف قسم الشرطة ترجلت في الشارع الجانبي حين توقف الشاب ودفعت له الأجرة وبقايا علبة سجائري، وسرت ببطء نحو الباب الكبير من الشارع العام.

أن تسير نحو باب قسم الشرطة باختيارك، فإن هذا لا يمنع عنك تسارع دقات قلبك، ولا يمنع تلعثك في تدبر ردود أفعالك أو أقوالك، في افتراضك لما سوف تصادفه، لا يوقف ذلك من سيل استعراض المواقف التي ربما تتعرض لها وربما تضعك تحت طائلة السؤال مهما كانت بساطتها، و تحاول استحضار أسماء يمكن أن تستعين بهم وقت الحاجة، ربما تجد جعبة معارفك خالية من أسماء ذات أهمية تفيدك عند الشدة، وكذا فإنك

تتفقد من تعرفهم وبسرعة تستعرض تاريخهم ومن يمسك من معرفتهم شبهة، عند هذا الحد أذكر هذا الشاب الذي حملني بمركبته، وهذا الشاب الذي أنا قادم لمساندته، ولا أدري هل لديه شبهات أو جرائم مستترة كصاحبه؟

أردد آيات مما حفظت، لتحفظني مما أعلم ومما لا أعلم، وأخطو متردداً لأصعد درجات المدخل المتسع الذي يموج بالداخلين والخارجين. رجال شرطة يصطحبون المكبلين نحو حافلة مغلقة إلا من شبك عال صغير مدعم بسلك وباب خلفي تم تصغيره بجديد يتقدمه شرطيان يجلسان، نساء قادمات بصحبة رجال شرطة، وأخريات بصحبة محامين، وثلة متسولين ومتسولات تم اقتيادهم إلى الداخل، مشاهد لا تراها إلا هنا حيث أقف متردداً قبل أن أدخل إلى حيث يُحتجز إبراهيم البرنس.

تعثرت على إحدى الدرجات حين لكزتي سيدة غريبة بصحبة شرطي، تغوص تفاصيل وجهها بمساحيق تَجْمُل رخيصة، وكأنها لا تعباً بالحالة التي هي عليها ولا ما ينتظرها، تسير بخطى واثقة، وأنا القادم إلى هنا في مهمة انسانية بلا شبهة أسير متردداً، ربما تلك ليست تجربتها الأولى، هكذا لخص لي خيالي حالها، لمحت نظرتي المتأمللة لها؛ غمزت لي بعينها حين توقفت لحظة لأفسح مكاناً للنازلين، وفي لمح البصر دست تحت إبطي بيدها المتحررة من القيد ورقة، دون أن يشعر أحد حيث تفاصيل الزحام تحجب بعض منمنمات المشهد.

أكملت سعودي، فاجأني رجل كان يتابع المشهد من أعلى آخر درجة قائلاً:

- آداب؟

...

- فأردف ضاحكاً:

- زُمل يعني؟ لك في الصنف؟

أدركت مايقصد، تركته ومشيت ببطء نحو الردهة الطويلة ناسياً تلك الورقة المدسوسة تحت إبطي؛ أبطأت من سيرتي وبجركة تمويه لا أجيده، أخرجتها ودسستها في جيبي، فليس من العقل أن أقف لأقرأها هنا، أو ألقياها في سلة مهملات، خطواتي هنا محسوبة وأي خطأ عفوي ليس مضمون العواقب.

كنت لا أعرف كيف سأقابل البرنس داخل الحجز كما يسمونه، وهل هذا الحجز في نفس القاعة التي يجلس بها الضباط المناوبون ورجال الشرطة أم له قاعة أخرى وهم يرسلون شرطياً لإحضار الشخص المطلوب.

حين أصبحت على بعد خطوات من القاعة، توقفت أرتب الحديث الذي أتقدم به لرجال الشرطة ثم للضباط المناوب بالحجز حتى يتسنى لي لقاء البرنس، هل أخبرهم أنني صحفي جئت لأمر يخص عملي؟ أم أتعلل بأنني جار لهذا الشاب جئت لأزوره وأعطيه ما يكفيه لتدبر طعامه وشرابه في محبسه.

كنت حائراً أفند عواقب كل تبرير سوف أقدمه، هل أنا فقط هكذا أخشى الاقتراب من سلطة الشرطة؛ حتى لو كنت بلا جرم أو شبهة، أم أن أجيالاً سبقتني من أمثالي، وفي خيالنا الجمعية تكمن صورة الشرطي متحفزاً للانقضاض.

من أين جئنا بلعبتنا الشعبية (عسكر وحرامية) في الشوارع والحارات نتوارثها جيلاً بعد جيل، وهل حقاً تتم مطاردة اللصوص ويُقبض عليهم، أم نحن في زمن انتصار اللصوص والتصفيق لحيلهم في الهروب. قفز إلى رأسي سؤال: كيف حال اللصوص الذين جنوا الأموال ولوثوا الغذاء، كيف حال أصحاب شركات توظيف الأموال الذين فروا بكل ما جنوه، وكيف حال أصحاب العبارات المتهاكة الآن؟، مثل تلك العبارة التي ضاع أبي ضحيتها.

كنا نلعب عسكر وحرامية أنا وصديقي مهاب، وكنت أنا العسكر حين اختفى مهاب في محاولة مراوغي حتى يهرب، وأفشل أنا في الإمساك به، أو معرفة من سرقوه، ولم أفلح في الوصول إليه حتى الآن.

لا أدري هل تزاممت الأفكار والذكريات في رأسي وأزاحت بعضها بعضاً حتى أخذتني من الوعي فلم أعرف كم مر من الوقت وأنا متردد في دخول القاعة، حتى أفقت على أصوات ضباط صغار ربما حديثي التخرج يضحكون بصوت مرتفع ويمرون بجانبني دون أن يلتفتوا لوقوفي، كدت أسأل أحدهم وتراجعت حين لفت نظري فجأة خروج البرنس بصحبة

شخص رأيته مرات في شارعنا مؤخرًا، كان يضع على رأسه عصابة تغطي حتى أعلى حاجبيه ويضع نظارة سوداء، ويرتدي زيًا عاديًا قميصًا ملونًا وبنطالًا أزرق؛ شخص رأيته مرارًا، آخرها حين كان يقود السيارة وفي المقعد الخلفي تجلس غالية وذلك يوم الحادث.

لم يكن البرنس بصحبة شرطي أدركت أنه قد أطلق سراحه، اقتربت منهما، وتحدثت إلى البرنس وأنا أرقب الشخص الغريب من طرف خفي:

- كنت جايلك.. أخبرك إيه؟، اعذرني تأخرت عليك شوية

- ولا يهمك يا أستاذ ولاد الحلال كتير (مشيرًا إلى الشخص الذي يصحبه)

- طب على فين؟

- أنا خلاص خرجت يا أستاذ، خلاص عرفوا إني بعيد عن الشبهات
خرجوني

- حمدا لله على السلامة يا برنس، أشوفك هناك في الشارع.

لم يلتفت إليّ الشخص المصاحب له، وبدا متعجلًا، تنحيت عنهما، فأشار البرنس لي مودعًا وانصرفا.

نزلت الدرج المؤدي إلى الشارع بارتياح لا أدري هل كان سببه أنني انتهيت من تلك المهمة دون عناء الدخول في تفاصيل السؤال والإجابة مع الشرطة، أم بسبب انتهاء أزمة البرنس كما تصورت وربما كلاهما معًا.

انحرفت نحو الشارع الجانبي الذي أتيت منه، بعد خطوات تبعد عن قسم الشرطة كان حسن يجلس على حافة الرصيف بيده كوب شاي، قام حين رأني:

- مشوار وداني ومشوار رجعتني... ليا نصيب أقابلك تاني
لم أكن واثقاً من صدق ما يقول، ولكنني سرت إلى جانبه نحو مركبته التي تركها في زقاق جانبي تحت شجرة، ركبت خلفه ليعيدني إلى بيتي، بدوت صامتاً أنتظر حديثه ربما استطعت تحليل ما رأيته حين خروج البرنس بصحبة الرجل.

- قضيت المصلحة الي جاي لها يا أستاذ
- أيوه شفته وهو خارج من الحجز، الحمد لله مفيش عليه حاجة
- مين يا أستاذ

- صاحبك البرنس... مين الي كان معاه ده؟
صمت حسن قليلاً يفكر، وسألني لماذا لم أخبره أنني قادم لزيارة البرنس، ثم اعتذر عن حديثه هذا، وساد صمت ريثما خرجنا من ضيق الزقاق لاتساع شارع داخلي، كنت أعرف أنه يحاول أن يفتح باباً للحديث معي، وأنا لا أرغب في العودة لحديث الفتاة وزوجها.

- سألتك تعرف الراجل الي كان مع البرنس؟
- ده راجل بقاله كام يوم يتوسط عشان يخرج البرنس من الحجز، يا أستاذ
البرنس مالوش دعوة بالجريمة، البرنس غلبان في حاله.

- عارف... أنا سألتك عن الراحل الي خرجہ
أخبرني إن هذا الرجل ظهر مؤخرًا في الشارع، وهو يعيش في جهتنا القبلية
أحيانًا وأحيانًا يظهر على مقاهي الجهة البحرية، نفذ صبري وأنا أرمقه
بنظرة استفسار عمّن هو الرجل، فاخبرني عما يقال عنه إنه ابن أحد
التجار بالشارع وقد تربى صغيرًا لدى أخواله في إحدى قرى محافظة
البحيرة، ثم سافر لاستكمال تعليمه الجامعي بالخارج، وهو الآن يعيش
متنقلًا بين مصر والخارج بعد أن حمل جنسية أجنبية.

- عرف البرنس ازاى؟

- الي حصل يا أستاذ إن البرنس مرة اتصادم مع عربية كان راكبها الراحل
ده، وطبعًا خناقة وضرب والبرنس اتعور وبعدين بالليل اتصالحوا معاه.
تذكرت يوم الحادث الذي تعرفت فيه أكثر على البرنس وتحديث معه على
المقهى وضمت جرحه فصار يثق بي ويعتبرني صديقًا، وينتظر أن أدعمه
بالرأي والمشورة، ويوم أوصلني لزيارة الجد إسماعيل وحكى لي عن بعض
الذين يهددون أمنه ويغرونه للعمل معهم.

عدت إلى الشارع، وإلى بيتي مباشرة، لأدون أحداث يومي، لم أشأ أن أثقل
على بهاء رغم احتياجي للحديث معه، ولسوف أنتظر حتى يصفو ويأتي.
مرت أيام قليلة ثقيلة لم أحسبها، وددت لو تحدثت إلى أحد، هل من
المناسب والوقت قد تجاوز الظهر أن أتحدث إلى سميرة أو خالتي سناء،
أتعلل أنني أسألهم إن كانتا تحتاجان شيئًا مما يمكنني أن أؤديه لهما.

طلبت الرقم الأرضي لبيت خالتي سناء، جاءني صوت سمية على خلفية موسيقى تنبعث من أحد الأجهزة.

بعد فاصل من التحايا تلعثمت في إجادته، وهي على الطرف الآخر تستمع بصمت، انتهت كلماتي ولم أكن قد أعددت موضوعًا مسبقًا للحديث فبادرتني هي:

- فكرت تشارك في اللعبة؟

- لعبة؟

- نسيت لعبة البوح الي بديناها.

- معنديش حاجة أقولها

- كذاب

فاجأتني بجديتها المباشر من دون مجاملة، فقررت أن أتحدث بوضوح ومباشرة وأخبرتها أنني مشوش الذهن وبحاجة للحديث مع أحد من معارفي.

كنت أتوقع أن تدعوني لتستمع لحديثي، لكنها اعتذرت وتعللت بأن لديها موعدًا للخروج في جولة بالإسكندرية.

لم أطلب التحدث إلى خالتي سناء، واكتفيت بأن أتعجل إنهاء الحديث لأدعهما تستعدان للخروج، ظننت إنها ستخرج بصحبة عمته سناء، لكنها لم تدعني لظنوني حين ناولت عمته سماعه الهاتف لتكمل الحديث

معي، سألت الخالة عما إذا كانت تود لو أكون بصحبته، فأخبرتني إنها لن تخرج، فقط سمية هي من ستخرج بصحبة بهاء. أنهيت المكالمة ببعض كلمات المجاملة، جلست أستبعد خواطر المجادلات التي تعتمل بداخلي عما يحدث من حولي، هل غيرت سمية وجهتها ورأت في بهاء الصديق الأنسب لها، كيف ولم يمض على حضورها سوى أيام فقط. كنت أود لو تحدثت إلى شخص قريب مني (بهاء أو سمية) بشأن ما حدث معي اليوم من لقاء حسن وشجار الشارع، وخروج البرنس بصحبة شخص غامض.

ولماذا لا تكون خالتي سناء؟ تلك السيدة الحكيمة، والتي أعلم أن لديها من سعة الصدر ما يجعلها تستمع إليّ وتمنحني من خبرتها؛ وأنا أضمن سرية ما أبوح به وكم حملت تلك السيدة أسراراً.

.....

وكأنها خرجت من كتاب الأساطير، تستقبلني بوجه هادئ وابتسامة شجن لم أرها على وجه امرأة من قبل، ربما حين قُسمتْ أنصبُّه الابتسامات، كان نصيب تلك السيدة ابتسامة فريدة لا تتكرر.

موسيقى هادئة ورائحة بخور خفيف تتسلل إليك، تمنح القادم للبيت إحساس الانتقال من عالم الزحام وروائح الطعام، ومخلفات الآليات والناس؛ إلى رحابة بيت صغير متسع بالخيال.

كيف قضيت الوقت ليلة البوح بينهما وكأنني في بيت آخر، أخذتني مفاجآت سمية من الخيال إلى الأحداث، وشغلتنني عن التفاصيل.

الآن تأخذني التفاصيل من زحام يومي وكدر وحدتي، ومحاولاتي الائتناس بشخص قريب، إلى عوالم الخيال، أنا رجل يتعامل مع الواقع، ثم يعيد صياغته ببعض من توابل الخيال.

الآن أنا في حضرة تلك السيدة التي عرفتني صديقة لأمي في سنين عمري الأولى، ثم قرأت عنها فيما خطته أمي في صفحات دفاترها.

أحلق بين جنبات بيتها المنفتح خارج حدوده، لوحات الحوائط، مفارش الطاولات، حتى قطع الأثاث لم تكن تقليدية، كالتي في بيتنا أو بيت خالتي رضوى، بيت صنع على عين صاحبتة.

جاءت سيدة البيت بكوبين من العصير، وأنا لا أزال واقفًا منذ فتحت لي الباب وسمحت لي بالدخول، كنت قادمًا بلا موعد، رحبت بي وأفسحت بإشارة يدها لأجلس.

الآن ماذا أحكي لها، تلعثت في بضع عبارات من ردود الترحيب والمجاملات، وفركت أصابعي، وحين نطقت سألتها:

- هل أحبت أُمي رجلًا بعد أُمي؟

تَعَجَّبْتُ من سُؤالي، وَصَمَتَتْ قليلًا قبل أن تبادرني بأنني لم أحضر من أجل هذا السؤال، ولكنه داهمني للتو.

أطرت خجلًا ثم سردت لها وقائع يومي، وإنني كنت بحاجة للحديث، حكيت لها عن عم إسماعيل بغدادي، وما ذكره في حديثه عن حبه لأُمي، فلم تعقب، وإنما وعدتني أن تصحبني يومًا لزيارته، وهي لم تكن تعلم أين اختفى، وعدت بأن تعمل على عودته لبيته، لم أطل الزيارة واستأذنت للانصراف دون السؤال عن سمية.

لكنها بادرني بإجابة لم أطلبها:

- سمية هترجع قبل الغروب، هي دلوقت في جولة للقلعة ومتحف الأحياء المائية، راحت مع بهاء، عازية أعمل لها ارتباط نفسي بالإسكندرية.

لم أجد ما أقول سوى استحسان صنعها، وانصرفت دون أن أسألها مشورة فيما سمعته اليوم، وهل هي جريمة حقًا ليس من الحق السكوت عنها، لكنني تراجعت حين بدت لي سيدة تحتزن الكثير من هموم الحياة من

حولنا، وتحاول بقدر ما تستطيع أن تشارك في الحلول، لكنها ربما تقف عاجزة أمام بعض المشكلات الخاصة والمرتبطة بالتشابكات الأسرية، وهي الآن لديها همها الخاص الذي فاجأنا به سمية.

أنهيت الزيارة كما جئت مؤقتًا بضرورة الحديث مع بهاء الذي يملك الكثير من خبرة التعامل مع مشكلات الشارع.

أسير دون تحديد هدف، حتى أصل إلى بداية النفق من جهتنا، أعبره سيرًا وكأنني أجبر شريط أفكاري وذاكرتي المختلطة من جهة إلى جهة، أقف في مواجهة البحر دون أن أعبر نهر الطريق إلى جهته، ليست تلك هي المرة الأولى التي أقف فيها هكذا، أفعل ذلك دون وعي كلما استغرقني التفكير في أمر يستعصي عليّ، لا أدري كم من الوقت يمر حتى أعود دون أن أصل إلى شيء.

.....

شهر يونيو، بدايات الصيف توافينا بنهاراتها الحارة، وشمسها الحارقة، الفضاء الفسيح خارج جدران الشقة تفترشه الشمس فلا ملجأ إليه إلا ليلاً، وليس لدي ملاذ في تلك النهارات سوى البيت ومروحة السقف التي تدور فوق، لا تخفف من حرارة شقتي التي لا يعلوها بناء آخر، فتظل تحت الشمس نهاراً، بينما ترسل جدرانها كل ما اختزنته من حرارتها ليلاً، أتمدّد على سريري مستنداً للوسائد خلف ظهري وجهاز الحاسوب فوق حجري، أتصفح المنشورات على شبكات التواصل، وأطالع الجرائد والمواقع الإلكترونية.

تقلقني رسائل السيدة منال رئيس التحرير أتردد في فتحها وقراءتها وكأنني أؤجل قدرًا، لأضع افتراضات تطمئنني، بعدما أرسلت للجريدة كتابات من واقع ما مررت به، وكنت أنوي الكتابة مستعينًا بالوقائع التي سمعتها من حسن دون ذكر الأسماء، ومن قبل كنت قد كتبت عن حادثة الفتاة المغدورة، وحتى الآن لم نسمع عن نتائج التحقيق في تلك الحادثة شيئًا، ولم يُعلن عن الجاني، وربما قيدت الحادثة ضد مجهول.

تفاجئني رسائلها بوابل من التوبيخ لإغفالي حادثًا هامًا في مدينتي، لم تذكر أية معلومة عن ذلك الحادث وأين وقع، وضعتني في حيرة.

أعيد تصفح المنشورات ومواقع الأخبار، بعضها يخص إضرابات عمالية في مدن أخرى، بعضها يخص حوادث فردية نشرها متضررون، والبعض كتب عن ممارسات رجال الشرطة.

خبر يتكرر في صفحات متعددة ومختلفة الآراء، يذكر شاباً احتجزته الشرطة في أحد الأقسام بمدينة، تعرض للتعذيب حتى الموت.

شُغِلت بالبحث في هذا الخبر قبل أن أسارع بالرد على رسائلها، اختلفت الآراء والأحاديث حول الواقعة، وكلما قرأت منشورات تندد بتعذيب الشاب، وجدت منشوراً مختلفاً ينفي التعذيب، بل يذهب إلى إدانة الشاب وإلصاق تهمة تعاطي المخدرات به، بينما تقوم الصحافة الرسمية بتغطية مثل تلك الحوادث على استحياء وضمن حوادث المجتمع والخارجين عن القانون، تسعى الصحف الخاصة لجذب القراء واللاحاق بالسبق الصحفي، أنا أسعى إلى البحث عن الحقيقة، ولا أنكر على السيدة منال رغبتها في الوصول للحقيقة ولكنها أيضاً تبحث عن سبق صحفي يميز الجريدة.

أعود إلى الشارع من جديد، بحثاً عن خيوط الحقيقة، قبل أن أكتب ردّاً على رسائل السيدة منال، التي قد لا يجدي معها رد دون معلومات وأخبار، لأبدأ من مكان الواقعة.

أصل إلى الجهة البحرية من شارعنا، سأعبر النفق الذي يخترق بطن الشارع إلى رصيف البحر، وهو عادة ما يكون مكتظاً بالعابرين في موسم الصيف.

في بدايات الصيف حين يكون مرتادو الشاطئ من سكان المدينة الذين يفضلون تلك الأوقات التي لا تزدحم بالكثير من المصطافين من مدن أخرى حيث انشغال الأسر باختبارات الثانوية العامة. الدرج النازل للنفق، يجتاحه اللون الأسود، أجساد تنزل فتفرش المعبر بالسواد.

شباب وشابات، رجال في مقتبل العمر، نساء وأطفال أصغرهم في العاشرة تركوا ألوان المرح من أحمر وبرتقالي، واكتسوا باللون الأسود أو مشتقاته، وأنا غريب بينهم بملابسي العادية قميص ملون، وبنطال أزرق، نقطة وسط نهر صغير، أتوقف حتى يمر ركب السواد فيأتي من خلفي فيض جديد.

أخرج من النفق إلى رصيف البحر، تتضح الرؤيا، يكمل الموكب الأسود امتداد سلسلة بشرية مكلمة بالسواد على طول الرصيف. أطلع اللافتات الصغيرة المكتوبة بخط اليد، كلمات حداد على روح الشاب الذي استشهد تحت التعذيب، كلمات تنديد بممارسات الشرطة، اللوحات والأوراق تتحدث نيابة عن الناس، وأنا ماذا أفعل هنا؟

انتابني شعور بالخجل لجهلي بالموضوع، واختلاف شكل ملابسني عن غالبية من حولي، وكأني أحضر جنازة بملابس عرس، لا أدري كيف يراني الناس؟ وهل ينتقدون فعلي؟ تحولت ببصري فوجدت البعض من الرجال والنساء والفتيات يسرعون لاجتياز زحام الأسود بملابس ملونة، بدا هذا

الزحام عقبه في طريق سيرهم المسرع نحو هدفهم، مر رجال يحمل بعضهم أدوات عمل، مرت حافلة متجهة إلى وسط المدينة، ووجدت نفسي بين ركابها جالساً أتابع امتداد المشهد عبر النافذة.

يقطع جلال المشهد موكب تسابق دراجات ترفرف عليها أعلام ملونة لا أدري هويتها، ولا لماذا تنطلق الآن وسط المشهد الحزين، ومن الذي رتب لانطلاقها!

تأخذني التفاتة مني للجهة الأخرى فيطالعي تمثال التائر الذي يولي وجهه شطر البحر، أنتبه لضرورة النزول بعد مسافة قريبة، أنبه السائق ليتوقف، أعبر الشارع للجهة الأخرى.

وسط البيوت والمحال حيث الهدوء النسبي، أنتبه لصوت الآذان قادماً من جامع قريب، الصوت ناعم ومحمل بخشوع مخملي، يبعث الطمأنينة في النفوس، يحملني الصوت عبر نسيم البحر المحمل برائحة اليود وحفيف صوت الموج القريب إلى حالة روحانية وصفو، فأردد بعده تسبيحات وتكبيراً، شاردًا أثناء سيرى أتعثر فجأة، أتوقف قليلاً حتى يزول الألم ثم أواصل السير، يستدعي التوقف مقارنة تقفز إلى عقلي، عن صوت الآذان في شارعنا حيث الزوايا والجوامع الصغيرة الملحقة ببعض العماثر، يأتينا منها أصوات اختلطت بعضها بلكنة خليجية، ربما جاءت مع هؤلاء الذين هاجروا إلى هناك للعمل ثم عادوا محملين بالأموال فابتنوا عمائر وجعلوا تحتها الزوايا والجوامع طمعاً في أجر الآخرة ممزوجاً ببعض المزايا الدنيوية.

يجي صوت الأذان لدينا محملاً بالزجر، وإذا كان الوقت فجراً فإنه يوشك من فرط الزجر أن ينالك بعضاه لتستيقظ.

هنا في هذه المنطقة الأمر مختلف حيث الأغلبية من قدامي الملاك والمستأجرين، كانوا يوماً ما يمثلون درجة مرتفعة في السلم الاجتماعي، وهناك في حيناً حيث كانت تلك المناطق البعيدة عن وسط المدينة ملجأً للفقراء الفارين من ارتفاع الإيجارات في زمن مضى، كما نزع بعض سكان القرى الذين تركوا الأرض والزرع، وامتلكوا بيوتاً صغيرة ثم شاركوا بها في بنايات عالية، وبعض ممن هاجروا للعمل بدول النفط وعادوا حاملين تأثيرات سلوكية ظنوا أنها الأفضل لتمييزهم عن من لم ينالوا حظاً من سفر، ودوا لو أن ذلك يرفعهم عن غيرهم، وصدقهم البعض فاستمعوا لهم، و استغلهم البعض من ذوي التوجهات المتطرفة فجعلوهم أداة لنشر أفكارهم وربما تنفيذ خططهم.

أتذكر الآن حديث الجد إسماعيل عن ذلك الرجل الذي بدأ ممثلاً وأراه الآن شيخاً داعية جاء إلى شارعنا في موجة انتشار الدروس الدينية للنساء في البيوت، فكان نجم الدرس الديني في بيت الست مفيدة ثم لمع نجمه فأصبح يحوب الفضائيات.

يتباعد صوت الأذان تدريجياً حتى ينتهي وأنا أوصل سيرى هدي في ولا أدري ماذا يمكن أن أفعل وماذا ينتظرني هناك.

أمام قسم الشرطة يتوقف بعض الناس يرتدون ملابس سوداء، بينما يتوقف رجال أمن مسلحون يحمون مداخل القسم، يتعثر سير المرور قليلاً عند تلك النقطة، حيث بعض السيارات تبطئ لاستطلاع الأمر، ومركبات وحافلات قادمة من عدة اتجاهات نحو الشرق.

يصلني صوت أداء غنائي يصدر عن مجموعة من الواقفين أمامي على الجهة الأخرى قبل عبوري الطريق إلى قسم الشرطة.

انتبه ما الذي أريده من قسم الشرطة؟ لماذا جئت إلى هنا؟ ولماذا لم أتوقف بين المصطفين في سلسلة على طول طريق البحر؟ أستمع إليهم.

يتضح لي صوت الغناء جلياً وأعرفه بالسمع، حتى إذا عبرت الطريق واقتربت من المجتمعين، وجدتهما.

سمية وبهاء يحيط بهما شباب وشابات رجال ونساء يرددون معهما الغناء، بينما يقف قبالتهم رجال الشرطة.

جاورتهمما بهدوء رددت معهما الغناء ونسيت ما جئت من أجله، بينما واصلاهما ما يفعلانه دون أن تبدر منهما التفاتة.

مر من الوقت ما يقارب نصف الساعة، رحل بعض الناس وانضم آخرون، بدأ رجال الشرطة يفرقوننا، عدنا أنا وبهاء وسمية دون مناقشة لما حدث، لا أدري كيف مرت مراحل العودة بين السير، وركوب أكثر من وسيلة حتى نصل إلى وجهتنا، ثم نتفرق كل منا إلى بيته.

مدفوعًا بمشاعر مختلطة أكتب موضوعًا للجريدة، لا أتناول فيه تفاصيل الواقعة التي لم أحط بها علمًا إلا من خلال وسائل التواصل الاجتماعي وأحاديث تناثرت حولي أمام قسم الشرطة الذي شهد الحقيقة، حينها لم أر جدوى في دخول القسم ببطاقة صحفي لأبحث عن الحقيقة بسؤال صانعها.

سجلت في كتاباتي مشاهد الشارع، ومشاعر الناس وتفاعلهم مع الواقعة. بانتظار أن يهاتفني بهاء بعد تلك الصدفة التي جمعتنا من جديد؛ أعيد ترتيب أفكاري، أنظر في مرآة نفسي، أراني قليل الخبرة رغم عملي بالصحافة، فهذا بهاء الذي يصغرنى ببضع سنين، يمتلك خبرات تفوق خبرتي، ويبدو أكثر تفاعلاً على أرض الواقع، بينما أنا أكتفي برصد الوقائع وتدوينها بوجهة نظر سطحية وإرسالها للجريدة.

تابعت مراحل القضية الأكثر تأثيرًا وحراكًا في الشارع، أرصد تفاعلاتها على أرض الواقع، من وقفات احتجاجية ومراحل محاكمة الجناة، على مدى عدة أشهر كان الأمر يزداد سخونة واحتقانًا ينذر بأحداث ساخنة.

شيء ما حدث في شكل علاقتي مع رفيقي المقرب بهاء، حقًا عدنا نتحدث ونتحاور يوميًا كما كنا ويحجى لزيارتي أحيانًا، لكنها ليست تلك اللقاءات التي يسودها المزاح والمشاكسة واللعب حتى إننا كانت تثقل علينا البسمة، وكأننا كبرنا سنوات في شهور.

صباحاتنا مشحونة بالأحداث المربكة، والقلق يلتف حولنا دوائر تتسع من الخاص إلى العام.

تكررت مشاركتنا في الوقفات الاحتجاجية، لأسباب متعددة، نشر أحد الناشطين مقطعاً مصوراً، مسجلاً بالصوت والصورة واضحاً لسمية تقود الغناء ونحن والواقفين نردد معها.

استدعتنا خالتي سناء، بدا عليها الضيق وهي تبلغنا بأن والد سمية أمرها ألا تسمح بتكرار ما حدث، وعليها أن تستبقي سمية داخل البيت إلى أن يستعيدها إلى بيته، وعليها أن تذعن للأمر ولا تعرض ابنته للخطر.

انتهى بلاغ السيدة سناء، ساد بعده صمت ثقيل، اجتاحتنا أنا وبهاء مشاعر مختلطة، لا أحد يدري فيم يفكر الآخر، وأعاد إليّ هذا الأمر ما حدث لعم إسماعيل.

الإقصاء أمر محزن، كيف ستتقبل سمية هذا الأمر وكأنه السجن، وكيف لأب مثل أبيها أن يفعل ذلك، لم أكن أعلم عن مشاعر الأبوة شيئاً حتى أجد له تبريراً، وربما يحمل الرجل من الحكمة ما لم نتسلح به نحن الشباب، لم تكن سمية قد انضمت إلينا بعد في جلستنا، ولا نعرف هل سمعت عن قرار احتجاجها بالبيت قبل مجيئنا أم لا؟

لا أستطيع توقع انفعالاتها، لكن من المؤكد أنها لن تبكي، ربما تتور، أو تضرب الحائط، تحطم أشياء في متناول يدها، وربما تضحك بهستيريا، أو

تفتح الباب وتخرج إلى حيث لا يعلم أحد، توقعات شتى تتوارد على مخيلتي ومع كل توقع صور لحوادث وفواجع.

ربما كان ذلك ما يشغل تفكير بهاء أيضًا، وهو حزين لفقد صحبتها التي لم تدم سوى أيام، لكنه مطرق بهدوء وصامت بامعان.

تُفاجئنا سمية بظهورها، حاملة كؤوسًا من عصير الفواكه، تبدو بلا تعبير واضح يمكن أن تستنج منه شيئًا.

لم نكن نتوقع ألا تقاوم خالتي سناء قرار أخيها، وتوافقه في قراراته بشأن ابنته، وتحرص على تنفيذها، وتبدأ بوضع تصور للحياة في ظل تلك العزلة المفروضة على سمية وعلينا أن نلتزم به.

هكذا أرى أننا أصبحنا جزءً ممن فرضت عليهم سلطات السيد والد سمية، لكنني لا أملك التصريح بذلك، وأنتظر كيف يتصرف بهاء.

يتحدث بهاء دون أن يبدي اعتراضًا، وإنما يعرض فكرة الخروج من المأزق، بشيء من المرونة، تقلل معاناة فترة العزلة التي لا نعلم متى تنتهي.

يعرض أن نقوم بزياراتنا لهما بالتناوب، يقوم كل منا خلال دوره في الزيارة بتلبية ما تحتاجه الخالة وسمية من طلبات لهما وللبيت، وعليه أن يحمل معه مشاهد رآها أو حكايات سمعها أو مشكلات يمكن أن تعوض فترة العزلة وتصنع ترابطًا بالمجتمع الخارجي.

راقني هذا الاقتراح كونه يتوافق مع ما أعمل عليه، وما يصادفني خلال جولاتي من تفاصيل يومية، وكل ما اخترته من مشكلات تمنيت مشاركتها مع سمية والخالة سناء، ربما أعدنا لعبة البوح وشاركت فيها.

بهاء يجلس صامتاً بانتظار أن يعقب أحداً برأي عن مقترحه، بينما تترك سمية جلستنا وتغيب بالداخل ثم تعود بيدها ذاكرة إلكترونية صغيرة، تلوح لنا بها ثم تضعها في فتحة ما بشاشة العرض التلفزيوني المثبتة على الحائط، وتجلس بمقعد منفرد في مواجهتنا، ممسكة بجهاز التحكم تحرك برامج مكتوبة على الشاشة، وسط صمتنا بلا توقع لما سوف تقدمه سمية من خلال شاشة العرض، بدت الخالة في حالة ترقب قلق، هي التي تدرك حجم المجازفات غير المتوقعة مما تقدم عليه سمية.

تشاغلته بحديث جانبي مع بهاء بسؤال عن الأحوال، وألقيت له ببعض رؤوس موضوعات مما أود مشاركته الرأي بها، وأنا أحاول إعادة الحياة إلى جلساتنا بعد أن انقطعت لعدة أيام.

أسكتنا الصوت القادم من شاشة العرض التي بدت سوداء، صوت مهممات مصحوب بموسيقى وإيقاع جنائزي، بدونا كالجالسين بقاعة سينما نترقب أن تسفر شاشة العرض عن مشهد مرئي.

دائرة من رجال وشباب يحيطون بشاب يحمل آلة عزف موسيقي مخترنة في جراب خاص بها، بينما مجموعة من الشباب يلتفون حوله أحدهم يحاول نزع آلة الموسيقى من كتفه، يقاوم، تعلو أصوات شجارهم، يشتبكون،

يتدخل المارة فيفضون الاشتباك، يمضي الشاب وحده حاملاً آله الموسيقية.

إظلام تدريجي ...

مشهد جديد من مكان آخر؛ ينقشع سواد الشاشة تدريجياً عن المشهد، الذي أضيفت له المؤثرات التوضيحية كالأسهم والدوائر الحمراء التي تشير إلى العناصر الهامة أو التعريفية، سهم يشير إلى شخص الفاعل وسهم آخر يشير إلى شريكه ثم ينسحبان في غفلة من زحام الناس، وسط الدائرة الحمراء شاب ملقى، وقد تفجر الدم من رأسه فسال على الأرض، تتحرك اللقطة لأطراف الدائرة تظهر رجالاً يحاولون فض الزحام، تتابع انصراف بعض الناس فرادى، ويغلق المشهد بقدم سيارة الإسعاف.

تغلق سمية شاشة العرض، وسط الوجوم والصمت، كنت شاردًا فيما رأيت، أحاول أن أفند ملابس ما رأيت، بينما بهاء مطرق يفكر، فتلك وجوه بعيدة عن محيطه كما يتضح من تفاصيل المكان رغم قلتها بسبب اقتراب اللقطة والزحام.

أما خالتي سناء فتبدو وقد اعتادت مفاجآت بنت أخيها، لكن ذلك لم يجد من مسحة الحزن التي انتابتها حتى تقاطرت دموعها في صمت.

سمية تلك الأنثى الاستثنائية تستطيع أن تصنع من أحداث حياتها ومن كل ما يصادفها من فواجع وثنائق حية، هاهي تقطع الصمت الذي يلفنا ويحبس التساؤلات بداخلنا.

- ماذا رأيتم؟ هل تعرفون؟ أيعرف أحدكم شيئاً عن هذا المشهد؟
لا أحد يجيب، حقاً لا أحد منا يعرف شيئاً عن هذا المشهد، لكن ذاكرتي
استجمعت ملامح وجه الشاب الملقى على الأرض، تذكرته في مشهد آخر،
لم تكن ملامحه قريبة ولكن سمات الوجه والجسد، والعوامل المشتركة
كالموسيقى وسمية.

آثرت الصمت وكأنني نسيت المشهد المصور الذي عرض على أحد مواقع
التواصل الاجتماعي حيث كانت سمية تغني يصحبها هذا الشاب عازفاً، فلم
أكن ملماً بكافة التفاصيل والملابس التي صاحبت الواقعتين، وجوم
يخيم على جلستنا حتى قطعته سمية بسؤالها:

- كيف تعرف أحمد على قاتليه؟

هي إذن تتحدث عن قتل وقاتل ومقتول، لا نعرف عنهم شيئاً، فنظّل
مطرقين بصمت حزين، نحن الجالسين هنا جئنا بدعوة من سيدة البيت
الحالة سناء، كي نخفف أثر الأمر الأبوي الذي أطلقه والد سمية ونكسر
حدة عزلتها.

الآن تضيف سمية سؤالاً آخر غامضاً، لا أحد سواها يعرف تفاصيل
وقائعها، لذا نحن نلوذ بالصمت في انتظار ما تفيض به من حديث.
يتملّص بهاء في مقعده، ربما أصابه الضجر، وهو الذي اعتاد على المواجهة
المباشرة دون مقدمات، أما خالتي سناء فلا تفصح عن ردة فعل، رغم
الدموع المناسبة وقت المشاهدة، والتي ربما اختلطت بأحداث الماضي

واستحضر ذكريات من رحيل الأحباء، لكنها تماسكت وجففت دموعها وأطرقت في صمت.

وأنا سيد التفاصيل بكل ما تحمل، تتزاحم في رأسي التوقعات، وتنزاح الواحدة تلو الأخرى بصمت في انتظار تفسير يحمل صورة واضحة يصحبها حديث.

- ده أحمد زميلي الي أنا صورته من بلكونه بيتنا لما ضربته عربية ومات، وبابا صادر الكاميرا مني، ده طبعاً مش تصويري، ده تصوير متسرب لكاميرا مراقبة من مكان قريب، مفيش حاجة صعبة حالياً، ليه بابا مصعبها على نفسه؟

هكذا تتحدث سمية وأنا أنتظر من الحديث مفاجآت وملابسات فمسألة أن يصلها المقطع المصور أمر سهل بعد تطور وسائل التواصل التي أوصلتنا لجلستنا هذه، بعد أن كنا أغراب لا يعرف أحدنا الآخر.

وجهت سمية حديثها إلى عمته، تخبرها أن القاتل ليس سوى ابن أخيها الشاب الذي تربى على يد أخواله هناك في الصعيد في غياب أبيه، الآن وقد أصبح شاباً أهمل دراسته الجامعية وانتقل ليعيش بالقاهرة.

- أحكي عن أحمد؟

هكذا اندفعت أنا في تعجل، أشارت سمية بكفها كي ألزم الصمت، أعادت تشغيل المقطع المصور، ثم أوقفت اللقطة بواسطة جهاز التحكم عند شاب يقف وسط الناس يتابع، حَرَّكَ المشهد، لى الشاب يتحرك منسحباً يتحدث بالهاتف، بينما نسمع صوت سيارة الإسعاف يقترب. التفتت سمية لعمتها توجه إليها توضيحاً:

- ده ابن أخوكي... شفتيه قبل كده؟

انتابنا أنا وبهاء رغبة ملحة في ضرورة مغادرة الجلسة التي ربما تتكشف فيها أسرار عائلية، ليس من أجل سمية التي لا تأبه لمثل تلك التحفظات، ولكن كنا نود أن نترك للخالة سناء مساحة من الخصوصية، وقفنا أنا وبهاء معاً، وقبل أن نهم بالانصراف أوقفتنا سمية أمرة بجرأة:

- لا مفيش حد يتحرك من هنا قبل ما تتكشف قدامكم الألغاز المستخبية.

تقول سمية هل خدعتكم مقولة الولد سر أبيه؟ أو هذا الشبل من ذاك الأسد؟ لا أحد يجيب، فتكمل:

- تلك خدعتكم لأنفسكم.

رغم بساطة المقولة وتردها المعتاد في مناسبات التفاخر بالولد فلم يخطر على بال أحد منا؛ أن تلك المقولة ترسخ للانحياز الذكوري، إلا حين تذكرها سمية، مقترنة بسعي والدها لإنجاب الولد حين لم تكن أمها قادرة على الإنجاب بسبب استئصال الرحم المريض بعد ولادة سمية بسنوات قليلة.

وكأنه ليس سرّاً أذاعته سمية من كثرة ما بتنا نرى من مثل تلك الأحداث،
لكن تمللنا يعلن أن جلستنا هذه توشك أن تنفض، كنت أنا أول من
نفض عن نفسه السكون، انتفضت واقعاً معلناً دون حرج رغبتني في
الانفراد بنفسي.

.....

وتعود زيارات شيخ الفضائيات لبيت الست مفيدة، يصحبه تلميذه الشيخ الذي كان قد عهد إليه أن يؤمّ الدرس وقت انشغاله، وتتجدد معها أشكال مرتدات الدرس مختلفة عما كانت عليه من قبل، حيث كانت مرتدات الدرس من نساء شارعنا والشوارع المحيطة، الآن أصبحن يأتين من خارج دائرتنا تحملهن السيارات الفخمة، ويصحبهن سائقون مهندمون ينزلونهن ويغادرون.

وسط توافد السيارات التي تحمل السيدات ألمح سيارة الرجل الذي صحب البرنس أثناء خروجه من قسم الشرطة، يظل هذا الرجل دائماً يرتدي على رأسه قبعة تميل على وجهه فتخفي أعلاه بينما يزيد عليها نظارة سوداء نهائراً.

تذكرت أنني لم أر البرنس في زحام مشاغي منذ خرج من الحجز بصحبة هذا الرجل.

توقفت على الجهة الأخرى أتابع مشهد الرجل الذي توقف بالسيارة أمام بيت الست مفيدة، نزلت هدى تلك الفتاة التي ساهمت في تطوير الدرس الديني، صارت سيدة ترتدي زياً مختلطاً ما بين الحجاب الخليجي والفستان ذي الأزرار الأمامية أسود اللون، أنيقة ومحتشمة، نزلت من السيارة

يصحبها الرجل إلى داخل بيت الست مفيدة، بينما ظهر البرنس، فجأة لا أدري من أين أتى، ركب السيارة وقادها حتى أقرب فتحة تحول، التف وعاد للجهة الأخرى حيث مكان انتظار السيارات أسفل عمارة على الجهة الأخرى.

حينما صعد البرنس بعد أن ترك السيارة وجدني أمامه عند المدخل، توتر قليلاً، قبل أن يبدأ التحية والسلام، ثم وقف حائراً حينها وضعت يدي على كتفه بود، سرنا دون حديث حتى وصلنا مقهى مرارة، وعلى غير العادة اخترت الجلوس داخل المقهى رغم ضوضاء شاشة العرض التلفزيوني الذي يذيع مباراة كرة قدم.

بدا الجلوس داخل المقهى مناسباً للبرنس، بعد لحظات صمت حين هممت بالحديث أسرع هو يحاول شرح ما رأيته:

- شوف يا أستاذ أنا مش بعمل حاجة غلط، ده شغل يضمن لي مرتب بعد ما ضاعت كل حاجة.

- ماهو التوكتوك كمان كان شغل بيحبيب لك عائد

- التوكتوك هو فين؟ حضرتك مش واخد بالك التوكتوك خلاص راح من يوم الحادثة وما رجعتش.

لم أجد كلمات أرد بها على البرنس، وليس لدي وسيلة أوفر بها عملاً له، لذا ساد الصمت الحائر الذي لا يغلب لغة الحواس وإيماءات الوجه، وتوترات الحركة، كدت أنهي الجلسة بعد الفراغ من شرب الشاي، ولم

أكن أعرف طبيعة عمل البرنس مع الرجل الغريب، ولم أسأل عن علاقته بتلك السيدة التي كان يصطحبها إلى بيت الست مفيدة، بينما تطوع البرنس بمنحي المعلومات التي ظن أنها تشغلني.

- أنا يا أستاذ بشتغل مع البيه الي أنت شفته معايا، شغل مفهوش شبهة وكمان زي ما شفت هو الي طلعي من ورطة الحجز

- بس أنت برئ يا برنس

- أيوه والله برئ بس طول ما التهمة ملقوش لها فاعل أفضل أنا وغيري محل شبهة

- المهم أنك خرجت

- أيوه واشتغلت معاه شغل بعيد عن بهدلة الشارع وحوادثه

لم يكن في ترتيب حديثي أن أسأله عن عمله، حين أخبرني إنه يقوم بإنجاز كل ما يحتاجه البيه من طلبات، فقد استخرج له البيه رخصة قيادة تمكنه من التنقل إلى حيث يوجهه لأمر ما، وبجانب ذلك يقوم بخدمة الدرس الديني كما رأيته، كلما جاءت وافدة تركت سيارتها عند الباب ليقوم هو بنقلها لمكان الانتظار ثم يعيدها عندما ينتهي الدرس.

قبل أن ينتهي من شرب كوب الشاي، رفع بصره يتأملني، كنت صامتًا لا أعلق على حديثه حتى ألقى آخر ما في جعبته من حديث حين أخبرني أن تلك السيدة التي صعدت بصحبة الرجل، هي زوجته التي اختارتها له الست مفيدة.

تتبدل حالتي بتبدل موقعي، وتبدل الوجوه التي أجالسها، وها أنا ذا أجلس في حضرتها متوترًا.

تتعدد الموضوعات والمناقشات التي تشملها، وأنا أجتهد في متابعتها من دون أن يشرد تفكيري، ذلك لأنني أكون مفتونًا بها كأنثى، رغم جديتها وعبوس وجهها أحيانًا، أحاول أن أبدو جاذبًا ولا أدري هل تستطيع هي أن تستشرف ما يدور بداخلي، يحدث ذلك بعد فترة من الانقطاع عن تلك الخيالات الماجنة التي كانت تراودني حين أختلي بنفسي، والتي زادها بعدي عن غالية.

الحقيقة أنني كدت أفقد الثقة بنفسي، وربما فكرت في الذهاب إلى طبيب أمراض الذكورة، فمنذ هجرت غالية أو هجرتني، انهالت على كاهلي الحوادث، وشغلتنني هموم كثيرة، بعضها قريب مني وبعضها عام يخص الواقع والأحداث المحيطة، اعتدت أن أمضي لياليّ دون أن يستثيرني وجه أو جسد أو حديث لفتاة أو سيدة، حتى يوصلني لإفراغ رغبتى ذاتيًا.

كانت السيدة منال منذ جلستي الأولى معها، هي سيدة فراشي بعد أن خلا من غالية، أعريها من عبوسها وجديتها ويعيث خيالي بها مجونًا، فأسمع ضحكاتها المثيرة، وأنطقها ما حلا لي من ألفاظ خارجة، أنخيلها في أوضاع

مختلفة، أستمتع حتى أصل إلى ذروة النشوة وتحمد رغبتى، فأنام وأنساها حتى إذا راسلتها عبر الشبكة الإلكترونية، أكون جادًا وكأن لم تكن هي التي عبثت بها خيالاتي الماجنة طوال الليل.

توقف فيض رغباتي وسكن بعد انشغالي بالأحداث الجارية، وحكايات حسن والبرنس، فقدت شغفي وصرت أمشي محملاً بالهموم، وأعود إلى بيتي كي أغيب في تلافيف حاسوبي حتى يغلبني النوم.

جئت إلى القاهرة كي أتحدث إلى السيدة منال في شأن متابعة تطورات حادث الشاب الذي مات في قسم الشرطة، ولا تزل ردود الأفعال تتوالى حوله.

أصبح أيقونة مقاومة الظلم، حين تولى بعض الشباب فتح مجموعة على أحد وسائل التواصل الاجتماعي باسم الشاب، يتبادلون فيها الآراء وما سوف يقومون به لمقاومة مثل تلك الأحداث، والسعي لمحاسبة المتورطين.

تبدو السيدة منال في حالة توتر، تطول جلستي في مكتبها من دون الإفصاح عن سبب الزيارة، تدخن وتشرب قهوتها بمزاج متعكر، تقوم، تروح وتجيئ وتعود إلى مكتبها من دون أن تلتفت إليّ، أفتعل سعالًا خافتًا كي تنتبه.

تقلب أوراقًا أمامها، فجأة ترفع وجهها، تسألني:

- من إمتى أنت هنا؟

- أنا جيت من إسكندرية الصبح، و....

تقاطعي بصوت مرتفع وحاد:

- من إمتى أنت قاعد هنا في مكتبي؟

كتمت ضحكة تنطلق عفوية مني، ورسمت على وجهي ملامح الجد لأخبرها إنني أجلس منذ سمحت لي بالدخول، أنتظر عرض بعض الموضوعات عليها.

قلبت الأوراق التي مددتها إليها ثم تركتها، وأخبرتني بلا اهتمام أن أستمع بمتابعة الأحداث في مدينتي.

لا أجد ما أقول سوى أن أستأذن في الانصراف، كمن جاء في موعد غير مناسب.

ليس لدي رغبة بالبقاء ليلة أخرى في القاهرة، ولا النزول في الفندق الذي يحيط به الضجيج، ولا مزاحمة الجالسين في مقاهي وسط المدينة، يتابعون الأحداث أو المباريات، أو وسائل الترفيه، أو حتى محالطة مثقفي المدينة المتوترين بالأحداث.

حجزت مقعدًا بالقطار لأعود إلى مدينتي وهموم شارعنا وتوترات رفاقي. لا أدري هل غفوت على مقعدي بالقطار؟ لكنني رأيت الجد إسماعيل يعاتبني، ويدير وجهه عني، انتبهت فزعًا، طلبت بهاء لعلني أقطع بالحديث معه وحشة الطريق وساعات السفر.

- أنت فين يا حسين؟ سمية خرجت من الصبح ولسه مرجعتش

- أنا في الطريق من القاهرة.

ساد الصمت لحظات، فقدت فيها بوصلة التواصل مع بهاء، انتبهت إلى إن بهاء قد يظن إن سمية سافرت بصحبي، بادرت بإخباره أنني سافرت وحدي لعمل خاص بالجريدة.

تنهد بهاء وتمتم بكلمات لم أتبينها ثم أضاف موضحاً ارتياحه قليلاً لعودتي حتى نتشارك معاً الآراء بشأن موضوع سمية، ونكون بجانب الحالة سناء حتى تطمئن عليها.

يعاودني طيف الجد إسماعيل مراراً، أحاول الانشغال بالقراءة حتى أظل منتبهاً، أقلب مذكرات أمي؛ تأتيني صفحة لم أرها من قبل، تقول أمي: هل كان للحب أن يجعل حياتي أكثر سعادة، هل كان سيغير مصيري، أنا التي اخترت زوجاً ارتضيته دون تجربة.

من قبل حاول إسماعيل الذي يكبرني بسنوات أن أكون له، لكنني اخترت جمال، وحين عاد إسماعيل يحاول بعد وفاة جمال، لم أكن أرى سوى ولدي، قالت لي سناء: لا بأس إن أردت خوض تجربة حياة جديدة، هي التي لم تكن تقبل بديلاً لحبها الوحيد رغم تخليه عنها، وأجيبها: لن أكون لأحد سوى الرجل الذي ارتضيته ومن بعده لولدي.

هاهي أمي أمامي واضحة صريحة، ولو اختارت لحياتها شكلاً آخر لكان من حقها، طويت المذكرات وخرجت من حالة الحيرة التي عانيت بها بشأن أمي. لم أكن قلقاً بشأن غياب سمية، أعرف فيها طباع المفاجأة التي صادفتني معها خلال معرفتي القصيرة بها، ربما قررت الذهاب لمواجهة والدها حتى

تكسر طوق الحصار عنها، وربما ذهبت للبحث عن تفاصيل لقضايا تخص الأحداث التي مرت بها مؤخراً، ومن المؤكد أن الحالة سناء تعرف جيداً طبائع بنت أخيها، لذا فهي تنتظر دون التحرك لأية إجراءات. عدت لغفواتي المتقطعة حتى وصلت، كانت مفاجأتي عند وصولي لباب البيت وجدت سمية تنزل من سيارة أجرة.

لم أجد في نفسي رغبة للاستفسار عن شيء، كانت هي في حالة غريبة مبهمة لا أستطيع تفسيرها

لفت نظري وقوف أحد أبناء جابر مرارة بباب المقهى بحالة متوترة، اقتربت لأعرف ما يحدث، أخبرني أن والده خرج ليحضر جلسة عرفية بين عائلتين متخاصمتين، كنت أعرف من حكايات أمي أن أهل الشارع القدامى كانوا يحكمونه في خلافاتهم وحل المشكلات التي تنشأ بينهم، وقد اعتادوا أن يرتضوا حكمه، لكن الآن ومع ازدحام الشارع وتفرعه ووفود سكان جدد في كل يوم، اقتصرَت هذه العادة على العائلات المترابطة بصلات نسب وقربة أو جيرة قديمة، ثم تلاشت تدريجياً حتى كادت تختفي بسبب متاعب كبار السن ورحيل بعضهم، واعتاد الناس على اللجوء للشرطة في الخلافات الحادة، أو تأنيهم الشرطة مباغتة في بعض الأحوال.

فمن العجب أن يتحرك الجد جابر مرارة من جلسته التي اعتادها لسنوات بعد رحيل معظم رفاقه وتراجع دوره بين الناس.

ذهب الجد جابر ليكون حكمًا بين أهل الفتاة وأهل العريس الذي أصابه العجز ليلة زفافه، تلك مشكلات لا يلجأ الناس فيها للشرطة خجلًا، مهما اشتد الصراع إلا أن تأتيهم الشرطة مباغثة فيتوارون خلف مشكلات يومية بسيطة.

طمأنت الشاب أن الوالد جابر مرارة سيعود بعد أن يحسم الخلاف فالناس تهابه وتحترم كلمته، رمقني بنظرة غريبة كمن يستخف بي، وانصرف إلى داخل المقهى، أما أنا فقد كنت أشد قلقًا منه، وأتطلع بحذر إلى معرفة نتائج أحداث ربما تصل إلى حد الخطر الذي يهدد حياة أحد أطراف المشكلة.

.....

مرت عدة أشهر على وجود سمية بالإسكندرية، لم تخل حياتنا من مفاجآتها، ولم يكشف لي الوقت عن تفسير عواطفها تجاهي، بينما كنا نتشارك مع عمتها جلسات السمر، جمعتنا السيدة سناء كأسرة أنا وبهاء وابنة أخيها، ملأت فراغ وحدتنا وعوضناها عن حرمانها من الأبناء.

لم أكن أعلم تفاصيل ما يحدث على الطرف الآخر، حيث والد سمية الذي علم بما عليه ابنه، حتى فاجأتنا سمية ذات مساء تحكي عن والدها، الذي زارته يوم اختفت، ثم عادت مساءً محملة بالأسرار التي تحتفظ بها لوقت معلوم.

وهاي تفتح خزائن أسرارها ونحن نستمتع كعاداتها تحاول أن تقايض بوحاً ببوح، على سحر انسياب الموسيقى تقول:

أحدثكم عن والدي الذي أراد الولد ليحمل اسمه ويحفظ تاريخه وبطولاته، واختار له التنشئة الحشنة كما اعتقد، فتركه مع والدته وبين أخواله في بلدته بسوهاج، غاب عن أبي تأثير عوامل التغيير التي أصابت المجتمع، حيث يهاجر بعض الناس طلباً للرزق بعد أن ضاقت بهم سبل المعيشة، فتأخذهم الغربة بكل ما فيها وتخدعهم المغريات، وينخدعون

في دعوات مسمومة ويعودون ليبتوا سمومهم بين الناس، فكان أخي صيداً لهم، وقت غياب الأب الذي اعتاد زيارته على فترات متفرقة، لم ير أخي صور بطولات أبيه، وربما حكى له أبي بعضاً من تاريخه؛ لكنه لم يتلمس ذلك عن قرب، واختلط عليه الأمر بين طباع أبي وأسلوب حياته وبين تنشئته وسط أقاربه من أعمام وأخوال.

كيف ترون حالي الآن؟ وأنا لي ثأر عند أخ لم أعرفه، تسبب في موت صديق بمثابة أخ لي عرفته عن قرب.

قامت سمية بحركة درامية متجهة إلى عمتها، أمسكت كتفيها تحدثها كأنها مسؤولة عما حدث:

- اختفى الولد يا عمتي اختفى، لا أبويا ولا أحد يعرف عنه حاجة، ولا حتى والدته وأخواله الي كان عايش معاهم، أبويا سافرعلشان يكون هناك يشوفه لو ظهر

عند هذا الحد من حديث سمية الذي بدا لي في بدايته كحديث تقريرى اعتدنا سماعه بواسطة وسائط الاعلام، ثم تطور إلى بوح محزن، كنا نجلس في صمت، ورغم أوجاع سمية كنت أتوق إلى حدث ينهي الجلسة، لأعود إلى بيتي ووحدتي.

أقدر تلك الحالة التي عليها سمية، أدركت الآن لماذا اجتهدت في البحث عن رفاق أبيها حتى عرفتني، كمن تقول لنفسها: أنا ليس غيري من يقدر.

عاودتني صورتها عندما التقيتها لأول مرة وهي كالفراشة، بريق عينيها وهي تحكي لطرف له صلة بما تحكي، عرضها للصور، قدرتها على جذب انتباهي، ومنحي ذاكرة تاريخية أفتخر بها، منحتني صورة لأبي كانت غائبة عني، أدركت أنها أرادت أن تقول أنا التي أحفظ تاريخ أبي وبطولاته. لا أدري كم مر من الوقت وأنا شارد، أفقت وقد علا صوت الموسيقى، متوترًا، بينما ينظر بهاء للساعة المعلقة على الحائط أمامه، يبدو مشغولًا لاقتراب موعد عمله الليلي بالصيدلية، يتململ بحركة عفوية في جلسته، ويوقع كوب الماء الذي أمامه، فينسكب الماء وينكسر الكوب. أوقفت سمية الموسيقى، وتلعثمت خالتي سناء وتمتت بكلمات ترد بها على اعتذار بهاء، ثم جاءت بمنشفة تجفف الماء، بينما جرحت يد سمية وهي تلملم الشظايا.

.....

لا يهدأ شارعنا ولا ينام، فلا تستطيع أن تصنف نفسك ككائن ليلى أم نهاري، فربما سهرت طوال الليل لعمل ما، أو كسهرة ترفيه مع الصحاب، أو قضيت الليل خارج البيت، ثم تعود ليستقبلك الصباح بضجيجه، فإذا ما قضيت النهار مستيقظًا جاءك الليل بمفاجآت.

تركت الجهة القبلية من الشارع دون هدف محدد سوى الخروج من دائرة التوتر لالتقاط الأنفاس، كنت أبحث عن نفسي، عن ذلك الذي كنته وتاه مني في زحام الأحداث.

هل أعادت الأحداث تشكييلي؟ فجعلتني شخصًا مهمومًا، أحمل رأسًا مزدحمة بالأفكار، أدور في تلايف المتاهة، أقابل التائهين أمثالي، ننظر إلى بعضنا البعض بعيون زائغة.

رأيتها كانت تساعد شابًا كفيفًا؛ ليعبر الطريق إلى رصيف البحر، تلك هي السيدة التي دست تحت إبطي رقم هاتفها على سلم قسم الشرطة، في البداية لم أكرث لها، وهي أيضًا كانت مشغولة بمساعدة الشاب، جلست على سور الشاطئ موليًا ظهري للبحر، رحت أتابع المارة والحافلات المكتظة بالركاب، أخلق من وجوههم قصصًا، فهذا شاب يركض ليلحق بالحافلة

ليس لديه وقت لينتظر التي تليها، ربما لديه موعد مناوبة عمل ليلي، و أعود أجادل نفسي كيف يتأخر عن موعد عمله الذي اعتاده، تراودني الافتراضات والتبريرات حتى يخطفني مشهد آخر، يعود مشهد الكفيف الذي يسير بصحبة السيدة الغريبة، حتى يصل إلى رصيف الشاطئ، تُجلّسه السيدة بجاني وتبتعد قليلاً غير آبهة لوجودي، وكأنها لم ترني من قبل، بينما رحت أتابع الفتى وأسأل نفسي: كيف يتفاعل هذا الفتى مع المشاهد دون رؤية؟

وهل يمتلك ذاكرة بصرية تمده بالخيالات والصور حين تستنفر بالحواس الأخرى كرائحة اليود في حالة البحر، وضجيج السيارات في مشهد الشارع، وأنقل إلى حيرة علاقته بسيدة تبدو لي محط شبهة أخلاقية، كيف تعارفا وهل وجودها بصحبته مجرد مساعدة إنسانية، انتهت على حركة الشاب بجاني حين أخرج هاتفًا من حافظته ولمس أزراره وقربه من فمه، وبدأ يتحدث مستخدمًا هاتفه لتسجيل حديثه:

البدر الذي اختمر وطاب
كرغيف خبز يراود الجوع
وأنا يا ليلاي عجوز شاب
وهن العظم مني اشتياقًا ولوعة
أرض المياه تسقينا السراب
يا معذبتى....

فجأة توقف الكفيف حين تعثر شاب يمر بطرف عصاته، كاد يوقعها فقطع
استرساله.

وجدت سبباً للاقتراب منه أكثر، اختلقت حديثاً بعد اعتذار الشاب،
وجلست بجواره.

- أنا حسين جمال المصري أعمل بالصحافة، سمعتك تقول شعراً، اسمح لي
أن أجلس بجوارك أستمع إليك

- لم يعد لدي ما أكتبه بعد ذلك الفاصل، يمكنني أن أكمل فيما بعد،
الآن دعنا نجلس في ضيافة البحر.

فهمت بعد حديثه أن الصمت سيد الجلسة طالما كنا في ضيافة البحر،
كنت أحتاج هذا الفاصل من الصمت معه، كي أغوص في كيفية تفاعل
الكفيف مع البحر، كمشهد، كيف تصوره مخيلته؟ فيتفاعل معه
بمشاعره.

البحر؟ ما البحر؟

أغمض عينيك بجوار كفيف، وتخلص من صور الذاكرة، وأطلق لخيالك
العنان، لتحلق في الفضاء من حولك، تتلمس وتتساءل ماهذا؟ ثم تقلب
الافتراضات، وتلقيها جانباً لتبتكر مسمى جديداً.

البحر ذلك الفيض الدائم الحنون حيناً، الهادر الشائر أحياناً؛ حين يغمرك
اقتراب واحذر، تلمس بقدميك تردد الرمل بين الخشونة والهشاشة حين
يتخلخل، ربما لا تدري شيئاً عن هذا الزبد الأبيض، بينما تسمع هسيس

شقشقته أثر انحسار الموج الذي فاجأك اندفاعه المتهور، فاتخذت قرارك،
إما بإنهاء اللعبة أو الاستمتاع بمزيد من التهور؛ غير عابئ بالبلل، وعلى
ذكر البلل فتعريفه الآن يعني ذلك الالتصاق الرطب بملمس النسيج الذي
ترتيده، ولا تعرف شيئاً عن تغير لون النسيج بين الجاف والرطب، وأنت
تدرك تغير الملمس.

وها أنا الآن أصطحب رفيق البحر وأبدأ تجربتي، أتأبط ساعده وأعتمد على
خيالات من ذاكرة البصر.

نسير حتى يوقفنا خط انحسار الموج، فنلامس البحر، لا أدري لِمَ لم
يعترض وتركني أصطحبه، هل كان يدري ما سوف أقوم به؟ لا أعرف،
لكنني أراه مستمتعاً، لم نحسب مرور الوقت وكلانا لا يرى، حتى أفقنا على
صوت مكابح السرعة لسيارة مسرعة على طريق البحر وأصوات صراخ،
فتحت عيني واستعدت مشاهد الواقع.

عدت برفيق البحر لأعلى حيث التقيته، وجدت لها تزال جالسة، وتصنعت
اللامبالاة، ودون التفات لما أقوم به، قررت استكمال الوقت معه حتى يقرر
العودة، سألته:

- دلوقت هتعمل إيه؟
- هاخذ تاكسي وأرجع، متشكر على الصحبة والتجربة
- أنا كنت محتاج التجربة أكثر

- منحتك فرصة إنك تعيش كيف لبعض الوقت، هل استمتعت بالتجربة؟

ضحك، وضحكت:

- كنت عارف وحاسس أنا بفكر إزاي؟

سكت ولم يصرح، ثم طلب رقم هاتفي، سجله صوتياً لديه، وطلبني لأسجل رقم هاتفه.

الطريق الآن متوقف بسبب الحادثة، جلسنا على المقعد في مواجهة البحر، سمعت أصوات الناس وعلمت أن السيارة المسرعة أصابت شخصاً عابراً، أحدثت كسوراً بساقه، وفي انتظار وصول سيارة الاسعاف وشرطة المرور للتحقيق.

عدنا للصمت حتى انتهى الزحام وعادت سيولة الطريق، أوقفت له سيارة أجرة، حملته إلى حيث يريد.

أشعر بدوار وتعب، لابد أن أعود إلى بيتي قبل أن يشتد عليَّ التعب، جلست على المقعد الحجري وطلبت بهاء، كان هاتفه غير متاح.

لا أعرف كم من الوقت مر حين أفقت لأجد نفسي على سريري بجانب خالتي سناء، تختبر درجة حرارتي بوضع كفها على رأسي، وعلى طاولة بجانبها بعض الأدوية.

أشعر بالخلج فألملم الغطاء حول جسدي، أحاول الجلوس في فراشي،
تدرك هي ما ينتابني من خلج فتربت على كتفي:

- أنت مش ابن وفيه بس... أنت ابن وفيه ورضوى وسناء.

أوافقها بامتنان، وأتفقد بعيني غرفتي باحثًا عن بهاء، تخبرني أن بهاء ذهب
ليحضر بعض الأشياء وسيعود.

لم أسأله عن سمية، ولم تصرح هي بكلمة عنها، ساد صمت بيننا قبل أن
تفاجأني بالسؤال:

- مين الست الي جابتك لحد البيت؟

أتعجب من سؤالها، ثم أتذكر هذه السيدة التي اصطحبت الكفيف؛ أكون
هي؟

يبدو أن خالتي سناء قررت أن ترفع عني الحرج فتناست السؤال،
وتشاغلت بترتيب بعض الأشياء، ثم عادت إلى بحالة جديدة:

- أنت لسه بتدور على مهاب؟ كنت بتقول اسمه كثير وأنت نايم من الحمى.

- مش بنسائه، زي ما وصتني خالتي رضوى

أحضرت كوبًا من الماء، ربتت على كتفي وقالت: سيعود مهاب.

قالتها خالتي سناء بلهجة أكيدة وحاسمة، كعادتها لا تتحدث بشيء
مرسل، أصابني تصريحها بدوار مفاجئ، وتزاحمت صور الشخصوس الغرباء
الذين مروا بي منذ حادث شارعنا، وتضاربت المشاعر داخلي، هل أخشى
اللقاء أم انتظره بفرح الذي سيصل أخيرًا إلى محطته المبتغاة.

لا أدري هل نمت أم اجتاحتني غيبوبة وكم من الوقت مر حتى أفقت على صوت بهاء بجانب سريري يحدثني:

- مش وقت النوم ده، فيه حاجات كتير منتظراك

- حاجات إيه؟ أنا كده من إمتى؟

أحسست بنوع من التحسن؛ تحاملت على نفسي، وجلست أتفقد الحياة من حولي، ساعدني بهاء لأخرج من غرفتي إلى فضاء السطح الخارجي، انتعشت بلفحة الهواء البارد، واقتربت من السور المطل على الشارع.

الناس محتشدون، اصطفوا على جانبي الشارع، يحملون لافتات يتصايحون ثم يصمتون، ويعودون للصياح:

- كل يوم من ده... كل يوم من ده... كل يوم من ده

استفسرت من بهاء عما يحدث، حين رأيت سيارة تخرق صفي التظاهر فيعترضها حاجز بشري.

- حضرتك غايب عن الدنيا يومين

- إيه الي حصل؟

- الناس محتجة على قطع المياه كل شوية، ومفيش استجابة للشكاوى، قرررو يقفوا ويبلغوهم احتجاجهم كل يوم من ده

عادت سمية بعد غياب أيام تحمل أخبارًا عن والدها وأخيها، استدعت عمته لتفضي لها بما تحمل من أخبار، كنت أعلم أن بهاء يرغب في متابعة

الأحداث بالشارع، لكنه مضطر للبقاء معي بسبب مرضي، عرضت عليه أن يذهب للمشاركة في أحداث الشارع، وحين أحتاحه أطلبه على هاتفه. كتبت للسيدة منال اعتذارًا عن تأخري في إرسال موضوعات للجريدة بسبب مرضي، وأرسلت لها ملخصًا بموضوع الاحتجاج بشارعنا، وافقت على الموضوع في رد فوري لم أعتده منها.

لم أطل الجلوس بعد تلقي رسالة السيدة منال ووجدت بي رغبة للخروج إلى الشارع، تجهزت للنزول.

على مقهى مرارة كان الجد جابر كعادته جالسًا في ركنه يغلبه النعاس حينًا ويوقظه رواد المقهى وصوت التلفاز أحيانًا.

اقتربت منه وبى رغبة في تقصي أخبار ما تم في خلاف الأسرتين من ذوي العروسين، شاركته الطاولة فلم يشعر بوجودي حتى جاء صبي المقهى مدفوعًا من قبل أحد أحفاده وأبلغني اعتراضًا على جلوسي بنفس طاولة الجد، دار جدال حاد بيني وبين الصبي استيقظ على أثره الجد جابر مرارة، فصرف الصبي ورحب بي.

- أنا حسين ابن جمال ووفية

لماذا عرفته بنفسى على هذا النحو، لأذكره بما بيننا من قرابة أسرية، بعد غلظة استقبال صبي المقهى بإيعاز من أحد أحفاد الجد جابر، لكنه ربت على كتفي بمحبة:

- كنك فاكرفي شيببت ياواد وصابني مرض النسيان، لسانی حی وفاکر کل من في الحي
- فكرت أن أحكي له عن أسباب مشكلة أهل العروسين، جلست متردداً، وبخرج سألته:
- عملت إيه يا جـد في المشكلة الي رحت لها؟
- ودك تعرف؟ عايز تفهم كيف جدك يحل مشاكل؟
- عايز أتـعلم منك، آخذ خبرة
- حكى لي كيف جلس بين رجال الأسرتين، واستمع لحديثهم، وكل طرف ينسب الخطأ للطرف الآخر، فلم ينحز لأي منهم، وطلب لقاء الشاب وحكى معه، ثم التقى الفتاة واستمع لها، وطلب مهلة ثلاثة أيام يعود لهم بحكم الجلسة العرفية.
- مرت الأيام الثلاثة يا جـدي
- نعم وطلقت البنت أمام الكبار من الرجال، بتعهد عدم التعرض لها ولأهلها، وتاخذ كل مستحقاتها.
- ولكن يا جـدي...
- شوف يا حسين الراجـل لازم يكون مسؤول وشرط الجواز الكفاءة والأهلية
- ولكنه كان أهلاً للزواج قبل أن ...

- ومعادش يا ولدي... ما كانش عنده ثقة بنفسه، انساق للمغريات الي اتسببت في مرضه... كيف نآمنه على البنت؟ وكيف تعيش البنت كده، أنت شاب وعارف.

لم يبحث الجد جابر عن جذور المشكلة، تلك قضية أخرى من وجهة نظره، حين حدثته عنها ذاكرًا إن هناك أطرافًا خفية متورطة، متمثلة في من جلب له العقار الذي تعاطاه، وأوهمه بفوائده في ليلة عرسه، رأيتَه ينظر لي نظرة من يستطلع ما أخفيه، ثم حدثني عن تفشي تجارة وتعاطي العقاقير في منطقتنا، ومحاربة ذلك ليس من شأنه في تلك المشكلة، وإنما هو يحكم بين طرفين أحدهما أخطأ فأصاب نفسه والآخر بالضرر.

.....

منذ عادت سمية من بيت أبيها حاملة أخبارًا تفيد تستر والدها على أخيها المختفي بعد حادث صديقها، تبذلت ملاحظتها، واكتست بحزن عاصف، ليس كالحزن الذي يستوجب البكاء أو الشكوى، إنما هو حزن متغلغل في الروح، مثقل للنفس، يختصر العبارات في أقل الكلمات. كأن الخريف الذي يسقط أوراق الشجر، ويخطف اخضرارها، قد أصابها بكآبة شجنه.

أفقت من نقاهة مرضي، عدت وعلى طاولتي موضوعات متضاربة، وعقلي يعصف بالمتناقضات، فلم تكن حالة سمية هي أكبر ما يشغلني، بينما تقفز إلى عقلي صورة السيدة التي رأيته في قسم الشرطة مرة؛ ورأيته مؤخرًا تصطحب الفتى الكفيف ليعبر الطريق، فهل هي تلك المرأة التي أعادتني إلى بيتي حين فقدت وعي يومها كما أخبرني خالتي سناء.

تذكرت الورقة التي دسها لي تلك السيدة في قسم الشرطة مدون بها رقم هاتفها، لا أدري ما الذي دفعني بعد عودتي من قسم الشرطة أن أحتفظ بالورقة بلا هدف محدد، فالأحداث حينها كانت تسير في طريق اجتناب

العلاقات الشائكة، في ظل حادث فتاة الصيدلية المغدورة، والتي احتجز بسببها البرنس سائق التوكتوك.

لكنني الآن أجد نفسي مدفوعًا لكشف غموض أفعالها أين إذن احتفظت بالورقة؟

تذكرت.. إنني احتفظت بها بين أوراق رواية بطلتها سيدة من المسجلين بشرطة الآداب، يبدو أن الأمر حينها ارتبط لدي بتعليق مخبر الشرطة الذي أطلقه حينها، ليخبرني عن حالها كما يظن هو.

أخرجت الورقة، وجلست ممسكًا بهاتفني، مترددًا يدفعني فضولي وتردني شكوكي ومخاوفي.

تغلبت على ترددي وطلبت الأرقام المكتوبة، جاءتني نغمة هاتفها بأغنية ليست من أغاني هذه الحقبة، كانت أغنية من أغاني شادية:

- ألو...

- فاكراي؟

عرفتها بنفسني فلم تدّعي المفاجأة، استقبلت محادثتي وكأنها كانت تنتظرها، بينما كنت أود لو تبينت لي حقائق اللقاءات التي تبدو كما الصدف، سألتها:

- أنت مين؟

- انا جارتكم نادية

- جارتنا؟

لا أعرف جارة بهذا الاسم، فظننت أنها ليست جادة في قولها، وربما تفتح أبواباً لأحاديث متصلة، وأنا أيضاً أريد أن أعرف ما خفي عني، فسألتها أن توضح أكثر فحكت:

- كنت واحدة من زوجات التاجر، اختارني الست مفيدة، قبل ما تنتقل لإسكندرية علشان نعيش مع والدي هنا حسب تجارته وعمله وده قبل جوازة الراجل من غالية.

صمتت قليلاً بعد ذكر اسم غالية وكأنها تعرف ما كان بيني وبين غالية، منحني صمتها مساحة من عرض بعض مشاهد الذاكرة، قطعها صوتها، تستكمل حكايتها لتخبرني بتفاصيل عنها.

هي لم تكن من أسرة فقيرة تحتاج تلك الزيجة، والدها أيضاً تاجر أخشاب ربما لم تكن تجارته بحجم تجارة هذا الرجل المزواج، الذي يسيطر على تجار السوق، ويملك أن يتسبب في إفلاسهم، وهذا مافعله بأبيها حين رفض زواجه من بنته.

- الست مفيدة كانت تعرف أمي، كانت بتزورنا مع جوزها فطلبت من أمي إنها تخطبني لجوزها... أبويا رفض

- طب اتجوزتیه إزاي لما والدك رفض

- شفت أبويا لما تجارته خسرت ومرض بسبب غانم، بلغت أمي إني موافقة أتجوزه

- واتجوزتیه

- طلقني بعد سنة واتجاوز غالية وشرط إنني أفضل في البيت عند الست مفيدة.
- تعرف أنا أول واحدة عصيت الست مفيدة رفضت أكون عبدة عندها.
- وبقيتي عبدة في حنة تانية أسوأ
- أنت فاكرني بشتغل إيه؟
- أنا قابلتك طالعة من القسم زي المسوكين في قضايا الآداب
- تعرف تسكت وتسمع
- حكّت كيف أن الست مفيدة لم تنسَ لها ما فعلت وقررت معاقبتها ولو بعد حين، حتى تحكم سيطرتها على النسوة بعد رحيل غالية، وعودتها لعادتها في تبديل الزوجات الأبقار لزوجها.
- للمال سطوة ويد طولى، به تشتري الأشياء والضمائر، و به تمكنت الست مفيدة من شراء واحدة ممن تحت سطوتها، كي تتم خطتها في تأديب المارقات فيكن عبرة للباقيات.
- والخطة أن تقوم التابعة للست مفيدة بخداعهن بأنها خرجت من سيطرة الست مفيدة، وترغب في تدبير حياتها بينهن.
- طبعاً يا أستاذ سكنت معايا، في شقتي الصغيرة على السطوح وشغلتها معايا
- شغلتيها إيه؟

- أنا بتاجر في ملابس العرايس و المكياج، قلت أساعدها تاكل عيش؛ هي تسوق البضاعة بين ستات الحي الي بيجهزوا بناتهم، وتعمل دعاية للبنات عشان يشتروا.

- من الآخر إيه الي وصلك لإيد الحكومة بالشكل ده؟
حككت نادية كيف دبرت الست مفيدة بواسطة المال سيدة من المسجلات آداب، كانت محتجزة بقسم الشرطة لتقوم بجمع بعض المسجلات من خارج الحجز يأتين بصحبة تابعتها إلى شقتي، وكن يقومن بتجربة بعض أدوات التجميل، حين جاء بعض الرجال لاصطحاب فتيات زعنمن أنهن أخواتهم. حينها تركتهم تابعة الست مفيدة مدعية أنها ستذهب لتشتري لهم مشروب الضيافة، جاءت الشرطة وحملوهم جميعاً بتهمة ممارسة البغاء.

تنهدت محدثي وسادت بيننا لحظات صمت قبل أن تكمل:
- كلمت غالية بعنت لي محامي كتر خيرها، خرجني من التهمة دي لعدم كفاية الأدلة، يعني مكناش متلبسين ولا عريانين وما كانش ليا قضايا قبل كده يعني مش مشبوهة.

لفت انتباهي ذكر اسم غالية في قصتها، ولم أتعجب من مساعدة غالية لها، فهناك خصومة بين غالية والست مفيدة، وغالية تعرف مؤامراتها التي تؤذي بها من تعصاها.

الحقيقة كنت أفكر فيما جعل هذه المرأة تحاول الاقتراب مني، وكان لابد أن أسألها مباشرة.

- يا أستاذ أنا قربت وسبت لك الفرصة تختار، وأنت اخترت تكلمني
- كنت عايز أعرف؛ إذا كنتِ أنتِ الي رجعتيني البيت بعد جلستي مع الكفيف وتعبي ولا حد تاني
- أنا كنت بساعد الشاب الكفيف لأنه جاري ولقيتك صدفة فسيبته معاك، ولما تعبت رجعتك علشان عارفة مكانك، كنت عايزة أتكلم معاك واحكي لك حكايتي تكتبها في الجورنال من يوم ما شفتك في القسم.
- أنهيت الحديث على وعد بأن أتواصل معها من وقت لآخر، كنت أغالب نفسي كي لا أسأها عن غالية، وأتتبع أخبارها.

.....

ونحن على وشك انتهاء عام واستقبال عام جديد، في شارع مثل شارعنا الذي يختص بتوليفة سكانية متنوعة، بين اختلاف الديانات، و التنوع الطبقي، و التنوع الثقافي والاجتماعي، لذا فاستقبالنا لعام باحتفالاته يبدو مختلفاً عن الشوارع السكندرية التي ورثت تقاليد وطقوس المدينة متعددة الثقافات بحسب من سكنوها من أقدم العصور وبحسب انفتاحها على مختلف الثقافات من جهة البحر.

هناك في وسط المدينة لا يزالون يمارسون بعض الطقوس الاحتفالية فتبدو المحال متأهبة لاستقبال العام الجديد بوسائل الترفيه من طعام وحلوى وزينة للبيوت بأشجار رأس السنة المحملة بالهدايا.

بينما لا يظهر ذلك واضحاً في شارع مستحدث تكون من انتقالات سكانية من أماكن مختلفة من أقاليم بحري وقبلي، وممن ضاقت بهم بيوت وسط المدينة في أحيائها الشعبية، ورغم ما اختص به الشارع من وجود الكثير من الأقباط، واختصاصهم بكنيسة قرب نهاية الشارع، يكفي شارعنا بالقليل من مظاهر الاحتفال المعلنة، كعروض محلات الحلوى والتسالي، بينما يأتي المحتفلون بوسائل الاحتفال الأخرى من أماكنها المعروفة لهم.

لا يقتصر الاحتفال على السكان من الأقباط فبعض الأعياد في مصر أعياد عامة كرأس السنة وعيد الغطاس وعيد شم النسيم؛ رغم محاولات التخصيص التي راجت في وقتنا هذا وتفوه بها بعض من المتشدين بالدين، فحرموا على المسلمين تلك الاحتفاليات، تبعهم البعض وبقي الكثير على ما كانوا عليه.

في طريقي لزيارة عم إسماعيل بغدادي بعد غياب، لا أدري كيف سيكون حاله، أسأل نفسي هل غيابي عن زيارته كان بسبب ما صرح به عن حبه لأمي؟ ربما هو لا يدري ماذا صنع هذا الحديث بي، ورغم أنني أتعلل بأسباب أخرى أجدي مدفوعاً لزيارته وأعاتب نفسي بسبب غيابي عنه، بعد أن طيبت خالتي سناء نفسي حين حدثتها بما سمعته وسألتها عن هذا الحديث.

أصل إلى الدار دون أن ألتفت إلى معالم الطريق من حولي كما تعودت، شغلني أفكار شتى متناقضة، ولم أعد حديثاً يشغل اللقاء، كيف سيكون هو وكيف سيجري لقائي به؟

أمر بالإجراءات المعتادة للزيارة حتى أصل إلى غرفته، يفاجئني وجود خالتي سناء.

حين وصلت جالستنا قليلاً ثم استأذنت لتذهب إلى إدارة المكان لأمر ما. الرفاق الثلاثة الذين يجالسون عم إسماعيل هذه المرة صامتون، كل منهم يغوص في عالمه وأفكاره، واحد فقط منهم يتصفح جريدة يقلبها ويتنهد.

يجئ فجأة إلى عم إسماعيل ناشرًا صفحة من الجريدة، يشير له على صورة، يطوي الصحيفة ويعود في صمت.

لم أجد من الموضوعات ما يتناسب مع الحالة، حاولت أن أتحدث في حالة الطقس الذي يبدو ربيعياً رغم دخول فصل الشتاء، انتقلت إلى إلقاء بعض الطرائف الخفيفة، فلم يتبسم أحد، سألت عن الأحوال والصحة فكانت الإجابة المعتادة القاطعة للاسترسال: نحن بخير.

هل هم حقًا بخير؟ وددت لو كنت أعرف شيئًا عن أحوالهم وحكاياهم، تحركت بالغرفة كي أثير انتباههم، لكنهم ظلوا على حالهم من السكون والصمت.

جاءت الممرضة التي التقيتها عند أول زيارة لي، لم تلتفت لوجودي، وقامت بعملها المعتاد، من متابعة القياسات الحيوية للنزلاء، ثم قدمت أدوية للبعض، وانصرفت، عادت حينها خالتي سناء بوجه حزين، وقفت إلى جوار عم إسماعيل، تحدثت معه قليلًا حديثًا معتادًا، جاء ذكر ليان فابتسم بأسى، ختمت اللقاء بمجملته قصيرة:

- سيكون كل شيء على ما يرام

بدأنا الحديث أنا وخالتي سناء بعد مغادرة المكان والخروج من الشارع إلى الطريق العام، بدا حديثها مقتضبًا ومباشرًا:

- رفضت إدارة المكان خروج عم إسماعيل.

- ليه؟

- مش هيجر إلابطلب من ابنه، هو الي جابه هنا، وأوصى بكده.
- عم إسماعيل حر، ممكن يطلب الخروج بنفسه
- لا هو تحت وصاية ابنه وبنته، رفعوا قضية بالحجر عليه بعد اختفائه يوم الحادثة وحكاية الجنية الي خدته تحت الأرض.
- أحسست بدوار فتوقفت، وقفت خالتي سناء حائرة، طمأنتها أنني بخير، كنت أشفق عليها من تلك الحمل، فلديها مشكلات متشابكة، تتعقد في كل يوم بقضايا جديدة وهي التي اكتفت من مباحج الحياة بدور الداعمة، اختارها القدر لتكون سندًا للمحيطين بها، فتكدست حولها القضايا المعقدة، لم تعد المشكلات تحل ببساطة كما كانت حكاية تعليم أمي وخالتي رضوى شغل الإبرة، أو محاولات المشاركة في تربية بنت أخيها، أو تقديم العون لجارة.
- تعقدت الحياة من حولها وعجزت قدراتها عن الحلول السريعة، فهناك قضية قتل صديق سمية وتورط ابن أخ لم تعرفه، وتوترات سمية وجنونها. كدت أقع عندما دارت بي تلك القضايا وأخذتني في تلايف عقدها، أشارت خالتي سناء لسيارة أجرة حملتنا إلى البيت.

.....

نهايات ديسمبر تحمل مع عواصفها اشتعلاً وتوترًا تفيض به تفاعلاتنا وردود أفعالنا، بدت خالتي سناء متحفظة بشأن تحرك سمية، خشية عليها من عواقب الأحداث المحيطة بها، بينما لا يكف والدها عن توصياته لأخته بشأنها، حتى باتت محددة الإقامة ببيت عمته، نزورها من وقت لآخر نتحدث في مشاهد يومنا، نستمع للموسيقى ونمارس ألعاب الذاكرة وحكايا المفاجآت، نفعلها بلا شغف، وندناقش في الأحداث الجارية، فتلك هي آخر حيلنا لتمضية الوقت ومشاركة بعضنا البعض فيما نعيشه من أحداث.

خالتي سناء تجلس صامتة في أغلب الأحوال، منذ عودتنا من زيارة عم إسماعيل، وفشلها في إعادته. تلك هي آخر ليلة في العام، دعتنا خالتي سناء لقضائهما معهما، أعدت للسهرة بعض الحلوى والعصائر من صنعها، تبدو جلستنا هادئة من الظاهر بينما ينغلق كل منا على بركان يعصف به، فيشكل انفعالاته. جئت أحمل معي جزءً من مذكرات أمي، وأنا لا أدري ماذا سأفعل به في جلسة كهذه.

صمت يسود الجلسة حتى جاءت سمية من الداخل، تبعها صوت موسيقى من جهاز بالداخل، لم يكن لدينا ما نقول غير تلك الأحداث التي تتوالى. بهاء يحمل أوراقاً سلمها له شخص كان يبحث عن أسرة (جمعة أبو ناصر) حين بحث باسم الابن الأكبر حسام لم يدله أحد، فبحث باسم بهاء، حتى وصل إليه، سلمه الأوراق ومضى دون أن يعرفه بنفسه سوى بكونه صديقاً لأشرف، وهذه الأوراق تخص أشرف أودعها لديه حتى يسلمها لأحد من عائلته.

فتح بهاء الأوراق أماناً، أخرج منها مظروفاً مخصصاً باسم خالتي سناء لا يفتح إلا بمعرفتها، ناوله لها، وتفحص بقية الأوراق لم تبد المفاجأة على وجهه حينما وجد ورقة تفيد موت أشرف في بغداد على إثر خلافات مذهبية بينه وبين آخرين قاموا بتصفيته جسدياً، ولا أدري هل كان يعرف من قبل أم لا، قلب الأوراق ونشرها أماناً، بدا حزيناً وصامتاً، كانت خالتي سناء ممسكة بالمظروف كمن تخشى التعرف على محتواه ولم تسعَ للنظر إلى أوراق بهاء لمعرفة ما بها.

ما هذا الاحتفال الورقي الذي يجمعنا وفي يد كل منا صفحات مخطوطة بعضها يحمل ذكرى، وبعضها يحمل أحداثاً.

جننا لنتحتفل معاً بانقضاء عام مشحون بالأحداث وأبى العام أن ينقضي قبل أن يترك علامات فارقة على سطور الأحداث، لم تفتح خالتي سناء

المظروف واحتفظت به مغلقاً، ظلت أوراق أُمي بيدي لا أدري لم أحضرتها، وبقيت أوراق بهاء منشورة أمامنا.

فتحت سمية التلفاز تقطع بمتابعته صمت الجلسة، تابعنا احتفالات الأقباط في الكنائس بلبلة رأس السنة، صلوات وتراويل وترانيم ينقلها المراسلون من كنائس متعددة.

قطع الإرسال بأخبار عاجلة عند منتصف الليل، تجمدت جلستنا ونحن نتابع حادث التفجيرات بأحد الكنائس القريبة، هي ليست الكنيسة التي قرب نهاية شارعنا لكنها كنيسة في منطقة سيدي بشر القريبة منا.

تركت أوراقى وهممت بالنزول تبغني بهاء، استوقفتني سمية وأحضرت الكاميرا الخاصة بها ناولتني إياها.

لم نصل إلى المكان الذي أحيط برجال الشرطة وسياراتهم وتم إغلاق الطرق المؤدية إلى الكنيسة بسياح أُمى، توالى سيارات الاسعاف لنقل المصابين والموتى، يوم كأنه يوم الحشر، بينما انهال الفضوليون وبعض من أمثالي الإعلاميين لتقصي الخبر.

ليس هناك من أخبار حقيقية، كلها افتراضات وتحليلات، لا أحد يدري ما الذي حدث.

أبرزت بطاقتي الإعلامية لعلى أتمكن من الاقتراب من موقع الحدث، فلم يُسمَح لي، بقيت على أول المسافة المسموح بها، التقطت بعض الصور قبل

أن يمنعنا رجال الشرطة من التصوير، كما التقطت بعض الأحاديث المتناثرة حول المكان، عدت لأكتب للجريدة، ولم أنم ليلتي. هاتفتني خالتي سناء مبكرًا، أخبرتني أنهما تنتظراني، أسرع إليهما أحمل الكاميرا بما تحوي من صور التقطتها، لم أكن قد نقلتها على جهاز الحاسوب الخاص بي بل اخترت صورتين منها أرفقتهما بالتقرير الذي أرسلته للجريدة.

أحمل ذاكرة إلكترونية صغيرة، لتنقل لي سمية عليها الصور التي التقطتها، تبدأ بتفقد الصور قبل نقلها على الذاكرة بينما انشغلت بالحديث مع خالتي سناء عما رأيت وسمعت، تفاجئنا سمية بصيحة عالية تقطع حديثنا، تقوم بتكبير واحدة من الصور التي التقطتها وهي تصنع دائرة حمراء حول شاب بدا بحركة التفات بنصف وجه.

تتابع سمية تفقد الصور لتجده بشكل أوضح، حينها قامت سمية وواجهتنا مشيرة إلى الصورة تصيح بحسم قاطع:

- هو هو

- مين هو؟

- هو ابن أخيك يا عمتي

أخرستني المفاجأة، بينما اقتربت خالتي سناء لترى بشكل أوضح، ولا أستطيع أن أترجم ما ارتسم على ملامحها من ردود الأفعال، تراجعت خالتي سناء، وعادت لمقعدها بوجه جامد وفم مطبق.

كنت أتوقع أن تثور سمية مجنون، وتصيح أو تلقي بالأشياء من حولها، أن تحاول كسر قيودها لتخرج أو تقرر حمل الصور إلى أبيها، لكنها أكملت متابعة الصور ونقلها على الذاكرة الإلكترونية ثم ناولتها لي في صمت. تابعنا الأخبار بالتلفاز، كانت الصلوات والدعوات قبيل الحادث شجية وقفات الشموع والترانيم هادئة، ثم باغتهم التفجير فتناثرت كل التفاصيل، وعمت الصيحات، يقطع التلفاز عرض المقاطع المصورة، ليث بعض الأخبار واللقاءات حول الحادث، أحاديث وتحليلات وافتراسات.

.....

بدأ عامنا الجديد متوترًا وحزينًا، وكان لشارعنا نصيب من ضحايا حادث الكنيسة، حين أصاب الحادث ثلاث فتيات وشاب كانوا يرافقون أسرهم في احتفالات رأس السنة.

كعادة الحياة في شوارعنا عقب الحوادث الكبرى يسير الناس مهمومين شاردين، حتى يوقظهم حدث آخر قريب منهم. كنت أتابع الأخبار بالتلفاز، وأخرج إلى الشوارع ثم أعود، أسجل للذاكرة الموضوعات التي أكتب فيها.

قبيل منتصف يناير استدعتني السيدة منال رئيس التحرير لمناقشة بعض ما أرسلت من موضوعات، وجدتها فرصة لرؤية تبعات الأحداث ولأتلمس عن قرب تفاعلات العاصمة مع الأحداث.

قضيت جلستي مع السيدة منال بشكل جاد، ولم تراودني نزواتي عنها، لم أرها وقتها كأنتي، بدت كقائد يلقي أوامره، ويناقش خطط عمل مرؤوسيه، أتابعها بذهن صاف ووعي، وحين انتهت جلستنا كنت أعرف ماذا عليّ أن أفعل.

عدت إلى الفندق الذي اعتدته استلقيت على السرير بملابسي، فتحت التلفاز رغم ضوضاء الشارع الخلفي.

طالعني رجل يصيح وسط حشود الناس في تونس:
- لقد هرمننا من أجل هذه اللحظة.

اعتدلت جالسًا وانتبهت:

إذن فعلتها تونس، نعم بسم الله الرحمن الرحيم الإجابة تونس، جاءني صوت آخر من وسط الضوضاء

- فربن علي... فربن علي

نحن يا سادة في الرابع عشر من يناير من العام الحادي عشر بعد الألفية الثانية من التقويم الميلادي.

هل يصبح هذا التاريخ علامة في التقويم، أدور في الغرفة بلا هدف، أسمع نباح كلاب الشارع الخلفي في غير موعده، ربما هناك من أثارهم فأطلقوا نباحهم، أشعر بالملل يتسرب إلى نفسي من وجودي بالغرفة وحيدًا، أقرر النزول إلى الشارع. أسير في الشوارع القريبة، أطالع السائرين ووسائل النقل المكتظة بالركاب وجوههم تضج بالهموم والمتاعب، أجدني امام مبني نقابة الصحفيين من جديد.

امتلاً سلم النقابة المؤدي إلى الشارع بالواقفين، وكأن هذا السلم ما وجد منذ بداية إنشاء المبني إلا لهذا الغرض، انضمت للواقفين بإظهار بطاقة عضويتي النقابية. كلما مرت دقائق توافدت أعداد جديدة تنضم للواقفين،

شغلت بمتابعة الهتافات، وتوافد رجال من الشرطة وقد أحاطوا بالمكان، وحين التفت وجدتها بجاني.

كيف استطاعت سمية إقناع عمتها بالمجيء إلى القاهرة، أم تراها فرت في غفلة منها لتشارك في هذا الحراك، وهل يعلم والدها بوجودها هنا، وكيف حال عمتها الآن وهي تفتقدها؟ ربما لا تعلم إلى أين ذهبت، لم يكن الوقت مناسباً لطرح مثل تلك الأسئلة على سمية.

أخذتنا الهتافات والتفاعل، وعشت الحالة تارگًا كل ما عداها من مشاغل، كانت الهتافات داعمة لثورة الشعب التونسي، دافعة لسلوك نفس الدرب، رافضة للاضطهاد والظلم، مطالبة بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية. وجدت سمية أصدقاءً آخرين حولها، غنت فرددوا معها، أغنيات الثائرين المتجددة دومًا، أحفظ بعضًا منها سمعتها وأنا صغير ألهو في بيت الجد جمعة أبوناصر، رددت معهم ما أحفظ، حتى حل المساء، وتفرق الواقفون بالتدريج قبل أن تداهمهم أيدي رجال الأمن.

تركت سمية تحادث رفاقها وانتظرت حتى انتهت وتفرقوا، التقيتها فأخبرتني أنها فرت من البيت أثناء انشغال عمتها بعد أن أخبرها الأصدقاء بموعد الوقفة عقب أحداث ثورة تونس، وأنها طمأنت عمتها بالهاتف بعد الوصول.

سرنا بلا تحديد لوجهتنا حتى وصلنا إلى مقهى بوسط البلد، كنت أفكر كيف ستقضي سمية ليلتها وأين تبیت، وكيف ستتقبل خالتي سناء تغيبها

ليلة أو أكثر بعيداً في مكان لا تعرفه، وماذا لو اتصل والدها ليسأل، وماذا لو أن أحدهم صور الوقفة وبثها عبر مواقع التواصل وربما رآها والدها.

- سأبيت الليلة عند صديقة لي تعرفها عمتي وتحدث إليهما.

هكذا قطعت سمية تشابكات استفساراتي وقلقي، كنا نحتاج مثل تلك الجلسة كي نهدأ قليلاً من توترات الأحداث من حولنا، بدت حائراً في قطع صمت جلستنا بحديث مناسب، لكنها بدت الأسرع دوماً في أخذ زمام المبادرة.

- كلمني عن إسماعيل بغدادي

ما الذي يمكنني قوله حول عم إسماعيل، هل أحدثها عما قرأته عنهم جميعاً في مذكرات أمي؟ أم أحكي لها عن كنية (بغدادي) التي لحقت به بعد سفره إلى العراق، وألحق بذلك قصته مع حبيبته ليان، كنت أخشى أن تسألني عن حبه لأمي، ساد الصمت لحظات قطعتها هي:

- إزاي نقدر نخرج عم إسماعيل من محبسه

- محبسه؟

- نعم عم إسماعيل كده محبوس بشكل شيك ومقنن

لم أجد ما أقول سوى أننا سنفعل كل ما نستطيع كي نعيده إلى مكانه الطبيعي، فهو لم يعتد البقاء محدد الإقامة، واستطردت أحكي لها عن جولاته بالحي وجلساته مع أصحابه بالمقهى أو أمام الدكاكين الصغيرة، عن

حكايًا أسفاره وأحاديثه عن بغداد المدينة التي عشقها، عن حبيبة له تدعى
ليان لا تزال تحيا وربما تحمل جنسية أخرى تكفل لها متطلبات الحياة.
باغتتني بالسؤال عن أشرف، حينها رأيت بغداد تلك المدينة التي أضاعت
عشاقها.

انصف الليل كان علينا أن نعود كل منا إلى مبيته على وعد اللقاء للعودة
إلى الإسكندرية.

بتنا ليلة نقلتنا من مكانة الأبناء إلى كهولة آباء وأمّهات لوطن بأكمله،
عدنا وكل منا يحمل في عقله قضايا وفي قلبه همومًا وأسئلة، ولديه الكثير
من الواجبات والمهام، ولا وقت لنوم بلا توتر ولا وقت لرفاهية التسلية
واللعب، وكأننا همرنا في غفلة من الزمن.

.....

اشتدت قبضة الشرطة على الناس، بينما زادت الاحتجاجات وطالت فترة بعض الاعتصامات حول أماكن حيوية، فاختلطت الأحداث الصغيرة بالحوادث الكبرى، أخذتني الأمور العامة مما يحيط بي، لم أسأل سمية ولا خالتي سناء عن تبعات سفرها للقاهرة ولا عما حدث بشأن صورة شقيق سمية وقت الحادث، أصبحت مشغولاً بما كلفتني به السيدة منال من متابعة صحفية دقيقة للحوادث المحيطة وحوادث مدينتي بشكل عام. اعتدت أنا وبهاء أن نلتقي مبكراً بعد انتهائه من عمله نتجول أو نسير حتى الشاطئ نتناول الفطور ثم نعود.

في هذا الصباح عدنا، فاجأنا الزحام بشارعنا، تحلق الناس على ناصية شارع فرعي متصل بشارعنا، لم نفهم من ضوضاء حديثهم خبراً، اقتربت أكثر، حاولت اختراق الدائرة.

رأيت حسن، صاحب البرنس، والمتسبب في مشكلة أسرتي العروسين، وقف يقاوم رجال الشرطة الذين يصادرون مركبته، يتوسل لضابط الشرطة أن يترك له وسيلة رزقه ورزق أسرته، والضابط يعنفه بصوت غليظ ويكيل له السباب.

لا أحد يستطيع التدخل، حتى لا يواجه مصير هؤلاء الذين تم شحنهم في سيارة الشرطة دون تهمة واضحة، ولا أحد يدري متى يتم إطلاق سراحهم. خلا شارعنا حينها من مركبات (التوكتوك)، اختفى كل أربابه بعيدًا في الشوارع والأزقة الداخلية، وأطلقوا لهم عيونًا صغيرة تتابع متى ينتهي الأمر حتى يتمكنوا من ممارسة عملهم من جديد، بينما لا يزال السائرون يتوقفون يشاهدون توسل حسن للضابط حتى يترك مركبته، ورجال الشرطة يحاولون رفع المركبة الصغيرة برافعة، هدد حسن بإحراق نفسه لو لم تتم الاستجابة له بترك مركبته.

لا أدري كم كانت سريعة تلك اللحظات التي خطف فيها حسن زجاجة بنزين يحتفظ بها في ركن من مركبته لاستخدامها وقت الحاجة، سكبها وأشعل قداحة سجائره فالتهمت النيران ملابسه وسط الصراخ، وتسارع الناس يبتعدون حتى لا تطأهم النار.

وقت عصيب اختلطت فيه محاولات النجاة ومساعدات الإنقاذ بمحاولات الفرار، شق الزحام جسد الجد جابر مرارة يحمل غطاءً صوفياً ألقاه على الفتى بعد أن أوقعه أرضاً.

أفقت على صوت سيارة الإسعاف، تحمل جسد حسن ثم تنطلق، بعدها فض رجال الشرطة الزحام، فتناثر الناس على الأرصفة رافضين الانصراف بداية يوم عصيب آخر في تلك البقعة من شارعنا، تجمع رفاق حسن الذين لم يتمكنوا من اللحاق به حين حملته سيارة الإسعاف إلى المستشفى، أخفوا

مركباتهم الصغيرة في مكان غير معروف، وجاءوا من كل الأزقة والشوارع الفرعية واصطفوا معتصمين بالأرصفة، محتجين على ما حدث. لا نزال أنا وبهاء نقف بين المصطفين الذين شكلوا وقفة على جانبي الشارع لم ينظمها أحد، يلفها الصمت التام والثبات، وجوه لا تحتاج ملابس سوداء تعبيرًا عن الحزن، تمر بنا الحافلات ووسائل النقل المختلفة قادمة من الضواحي ومن المدينة، البعض يدفعه الفضول ليطل من نافذة السيارة ويتساءل، والبعض يترجل ليقترّب ويسمع وربما ينضم إلى الوقفة، وآخرون وقد اعتادوا على مثل تلك الأحداث يمضون دون التفات. أمر الجد جابر مرارة صبيانه أن يحملوا له كرسيه إلى الرصيف خارج المقهى، اعترض أكبر أحفاده وتعلل ببرودة الطقس، كان يرغب بعودة الجد إلى البيت للراحة وتبديل ملابسه بعد ما قام به من جهد أثناء الحادث، لكنه ابتلع اعتراضه بغضب أمام إصرار الجد. لا أحد يمكنه قراءة ما يدور بعقل الجد ويحرك أفعاله، هو الآن يجلس متجهماً، لأول مرة أرى عينيه تشتعلان شرراً، حاولت الاقتراب لمشاركته الجلسة فنهرني وطالبني بالعودة لصفوف المعتصمين. عاد أحد الذين صحبوا حسن بعد ساعة، أخبرنا أنهم طالبوهم بمغادرة المستشفى بعد أن ترك أحدهم رقم هاتفه للتواصل عند الحاجة.

انسحبت حزينًا عائداً إلى بيتي، أرسلت بالبريد الإلكتروني رسالة للسيدة منال رئيس التحرير مباشرة، هذه المرة كنت أحكي لها ما حدث، دون أن أرسل موضوعاً للنشر.

في وحدتي الحزينة تهدر الأحداث في مخيلتي كموج البحر، يتتابع يضرب الصخر ثم يتراجع ليأتي موج آخر، أراه مراوفاً وعنيداً يستنسخ نفسه ليبقى، تعاودني ذكرى أبي كيف رأى البحر حين عانقه ليبتلعه ومن معه، أقاوم الذاكرة الراجعة، أعبت بالأوراق بلا هدف، أجد صورة لي مع مهاب ونحن صغار نلعب على الشاطئ وخلفنا سيدتين في مستقبل العمر تشغلان من خيوط الوقت ثياباً صوفية للشتاء القادم.

هل تحتفظ خالتي رضوى ببعض الثياب من طفولة ولدها مهاب؟ سترة صوفية رمادية داكنة تلك التي شغلته خالتي رضوى لولدها بينما شغلت أُمِّي لي مثيلتها باللون الأحمر الداكن، حينها غضب مهاب، رافضاً سترته، فتبادلنا السترتين، ليكون الرمادي من نصيبي ولم أكن راضياً تماماً حتى شغلت لي أُمِّي واحدة أخرى بلون أحمر بدرجة مختلفة.

الآن أقف أمام الباب الذي تركته شهوراً، أتلمس الخشب الغافي تحت ذرات تراب دقيق، أمسح بكفي كأني أكفكف دموعه، أدير المفتاح برفق وأدفع الباب بهدوء يئن بصوت خفيض حتى ينفتح، كل الأشياء كما هي، مثل آخر مرة زرتها، كرسي واحد فقط يفصح مظهره عن جلوس شخص ببعض

الشنيات في فرشه، أتوقف أمامه متعجبًا، أحاول أن أتذكر: هل كنت أنا من
جلس على هذا المقعد؟

أسترجع تفاصيل الوقت الذي قضيته هنا، لعلني أعثر بذاكرتي على مشهد
جلوسي وماذا كنت أفعل، لا أجد صورًا بمخيلتي ترتبط بهذا المقعد،
كنت أهم بالجلوس لكنني تراجعت قبل أن ألمسه تاركًا المقعد محتفظًا بآخر
تفاصيله.

توجهت إلى خزانة الملابس بالغرفة التي ظلت تحتفظ بتفاصيل مهاب، تلك
هي غرفته التي لم ينعم بها ولم تكبر معه، كبرنا وبقيت تلك الغرفة
طفلة، لا تزال الملابس معلقة تتشابك خيوطها مع مسارات أيام طفولتي،
أحداثها وأحاديثها، ليلاتها ونهاراتها، أجلس على حافة سرير مهاب
الصغير، أغمض عيني لعلني أعيد نفسي طفلًا يلهو، لعلني أعيد براءة مهاب،
براءتنا معًا.

تطل من بين ثنايا الملابس حافة السترة القرمزية، أخلصها من بين زحام
الملابس حولها، أحررها من ضيق الخزانة وأحملها تاركًا ضلفة الخزانة
مفتوحة.

أخرج من غرفة مهاب، أعاود النظر إلى المقعد الذي لا يفصح عن سره،
ألقي السلام على تفاصيل المكان وأمضي يتبعني أنين الباب وخشونة همسات
الخشب وصرير المفتاح بدائرة الغلق.

لم يعد الجد جابر مرارة لجلسته داخل المقهى منذ إصراره على انتقال جلسته إلى رصيف المقهى بجوار الباب الكبير، لم يعد يغفو في جلسته ويفيق على ضجيج مشاهدي المباريات أو شجار أحد الزبائن، أو أصوات الصبية العاملين يلقنون صانع المشروبات طلبات الزبائن؛ منذ أفاق على أصوات الصباح الذي عم الشارع وقت حادثة حسن، لليوم الثالث على التوالي يجلس يقظًا خارج المقهى يتابع أحداث الشارع.

ينتقل المقعد الخيزران العتيق بوسائده وملحقاته إلى خارج المقهى كل صباح قبيل وصول الجد بقليل، ويزودون طاولته بوعاء الشاي الأزرق القديم وقد تحولت قاعدته إلى اللون الأسود، تفوح منه أبخرة الشاي المغلي جيدًا فوق قاعدة الرمل الساخن.

يجلس الجد جابر عاقدًا كفيه على عصاه مستندًا بذقنه فوقهما، يأتيه أحد الصبية ليقوم على خدمته، يصرفه الجد ويقوم بصب الشاي في كوب من الزنك صغير مزخرف مخصص له، ويعيد تشكيل جلسته كما كانت وكأنه تمثال حارس يتابع بعينه حركة الشارع، لا أحد يدري ما الذي يدور بعقله.

صباح اليوم الثاني والعشرين من يناير، فاجأني اتصال هاتفي من السيدة التي صادفتها في قسم الشرطة، تخبرني أنها تود مقابلتي لأمر هام، كنت قد نسيتها في زحام الحوادث، كما نسيت الكفيف رفيق البحر الذي رأيته بصحبته، واعدتها بمقابلة مساءً.

لم أجد بنفسني رغبة بالجلوس وحيداً فنزلت قبيل الموعد؛ استأذنت الجد لمشاركته الجلسة، حدثته عن عم إسماعيل بغدادي، هز رأسه بأسى، وبدا لي كمن يبتعد عن الحديث في هذه المشكلة الآن،

لم تمهلني الأحداث حتى المساء، حين عاد رفاق حسن من المشفى حاملين خبر وفاته، تجمع أصحابه وأرباب مهنته، وجيرانه جاءوا من الأزقة والشوارع الفرعية وشكلوا وقفة بشارعنا، بينما توجه بعض الأقارب إلى المشفى لإتمام الإجراءات الرسمية في مثل تلك الحالات.

غضب يعم الشارع وحزن على الوجوه، لم يبق بالناس قدرة على الصبر والاحتمال، فاض الكيل، بينما أخبار ثورة تونس، تحفز الدماء على رفض الظلم.

وماذا عني أنا؟ ما الذي يضيق به صدري؟

أود أن أفصح في نفسي مساحة للحزن على هذا الفتى الذي عرفته يوماً ووثق بي فأتمني على أسراره، نعم كنت أميناً ولم أبح.

الآن أصبحت أسرارهِ صخرة على صدري، وحزني اختلط بعصف وتوتر
وأسئلة تبدو مواجهتها كما مشرط الجراح يشق ويسيل الدم قبل أن
يكشف العطب.

هل كتبت عليه تلك النهاية قصاصًا لما فعل، هل كان يأكله الندم على
فعلته فزهّد الحياة، أم هو لم يجد من حياته شيئًا مبهِجًا وضّقت به
الأحداث حتى دفعته لإنهاء حياته؟

أفكر في لقاء بهاء أو سمية أو الجلوس بجانب خالتي سناء وأجادل نفسي
عمّا يمكن أن نفعله؛ هل نجلس نتحدث ونناقش ثم نحمل أوجاعنا
ونمضي، ماجدوى المناقشات واجترار تبعات الأحداث.

كتبت تقريرى عن الحدث وأرسلته للسيدة منال مباشرة على بريدها
الخاص، تلقيت ردها سريعًا برغبتها في توثيق الوقفة مصورة.

وكأننى وجدت ذريعة تحملى إليهم، أطرق باب خالتي سناء لأطلب
استعارة كاميرا الفيديو الخاصة بسمية، فتصحبني سمية لتوثيق الحدث.

على الجهة الأخرى في لقطة التصوير من خلف الكاميرا يظهر لى وجه
البرنس، بجوار بهاء.

بانتظار معرفة الوقت المحدد للجنازة، جاء فتى يحمل مكبر صوت يعلن
أن الجثمان سيخرج من مكان المستشفى الذي نقل إليه إلى المقابر مباشرة،
حدث هياج، كانت الشرطة قد استعدت له؛ ففرقت المجتمعين الذين
انصاعوا مسرعين ليلحقوا بموعد الجنازة.

لم أجد في نفسي رغبة بالمشاركة في هذه الجنازة فأنا بشكل عام لا أحب الجنازات التي تنهي أمام أعيننا حالة الوجود إلى العدم، ورغم رغبة سمية في عودتنا معاً إلى بيت خالتي سناء فإنني فضلت أن أكون وحيداً لبعض الوقت، فتواعدنا أن نلتقي في المساء.

عدت أتابع التلفاز وأكتب للجريدة حتى المساء، تذكرت موعد نادية سيدة قسم الشرطة مرافقة الكفيف، هاتفها أعذر لها عن الموعد، لكنها أخبرتني أنها تعرف أحداث الشارع، لذا ترغب أن نلتقي لوقت قصير.

عندما نزلت لمقابلتها بدا شارعنا مزدحماً بالناس الذين يروحون ويحيئون بينما امتلأت مقاعد المقاهي على الأرصفة بالغرباء، مررت بالجد جابر مرارة الذي لا يزال جالساً على رصيف المقهى رغم برودة الطقس، بينما اختفى الشاب الذي يحتل ناصية المقهى يبيع سجائر وتبغاً للعابرين، ورغم تحفظي في التعامل معه لكنني أجد نفسي منشغلاً بتفاصيله؛ ملابسه التي لا تنم عن انتماء، وجهه الميء بالتشكيل من قطع بالحاجب وخصلات شعر كثيف يختفي أحياناً تحت غطاء متغير بين القبعات الغريبة ولفافات الرأس الملونة، ستراته وما تحمل من علامات، حتى تشكيلات الوشم على ذراعه وجسده، أنا أبحث عنه بين زحام تفاصيله في كل مرة أقف لحظات لا تسعني لتكوين رؤية واضحة لذا كان غيابه لافتاً لانتباهي، تعللت برغبتي في شراء علبة سجائر وسألت عنه أحد الصبية العاملين بالمقهى، فهمهم بغموض وأسرع يلبي طلبات الزبائن.

جالست الجدة قليلاً دون حديث لم يكن كلانا يجد من الأحاديث ما يزاحم الحدث، استأذنته وقمت باحثاً عن وسيلة تحملني لآخر الشارع من الجهة البحرية، وقفت لبعض الوقت وقد خلا الشارع من كل المركبات ذوات الثلاث عجلات، فمضيت في طريقي سيراً.

- حصل تغيير على الجلسة الدينية في بيت مفيدة
هكذا بدأت نادية الحديث عندما التقيتها، وكنت أعلم أن جلسة الدرس الديني في بيت زوجة التاجر قد ضمت عناصر أخرى من سيدات المجتمع زوجات رجال الأعمال وجاء ذلك تمشياً مع طبقة الشيوخ الذين يؤمنون الجلسة.

- عارف طبعاً شيوخ الفضائيات لازم جمهورهم من سيدات المجتمع.. إيه الجديد؟

- لا يا أستاذ الجديد إن الدرس مبقاش في الدين بس، فيه درس دين وفيه جلسة مقفولة بيختاروا لها ناس.

- بتعرفي منين؟

- مصادري الخاصة يا أستاذ زي ما أنتوا الصحفيين بتقولوا

- تفتكري المعلومة دي هتفيدني بحاجة

- أنت صحفي لو عايزها تفيدك هتفيدك... سلام

وقبل أن أستفسر منها عن مغزى حديثها ألقى السلام ومضت.

على باب بيت خالتي سناء أسمع صوتها نائرة وغاضبة، قبل أن أدق الجرس، ترددت متوجساً من لقائها على هذه الحالة، تفاجئني سمية من حين لآخر بشخصية مختلفة تقفز من داخلها حسب الوقت والحدث.

هل طرقت الباب أم وقفت متردداً، حتى فُتِح الباب دون أن أطرقة، وجدتني أمامي بكل غضبها، دخلت على مهل، عادت من الداخل خالتي سناء، جلسنا في صمت لم أستطع قطعه حتى بادرتني خالتي بسؤال عن السفر لمشاركتي في الوقفات الاحتجاجية للصحفيين بالقاهرة، أخبرتها أنني مكلف بتغطية أحداث الإسكندرية، لذا فوجودي هنا أولى.

خمنت أن ثورة سمية بسبب رغبتها في السفر للمشاركة في الوقفات، وعدتها أن أصحابها في القريب إلى القاهرة، حينها دق الباب فاكتملت جلستنا بحضور بهاء.

لن تفتح الصيدلية التي يعمل بها بهاء أبوابها هذه الليلة، هكذا أمره مديرها ومالكها.

جاء بهاء بورقة مكتوبة ودون أية مقدمات، بدأ الحديث عن فن قيادة الهاتف، ثم انتقل إلى كيفية تفادي الاصطدامات، وتحرك التظاهرات بشكل سلمي لتمكين الراغبين في المشاركة من الانضمام.

تحدث بهاء بشكل حازم وجاد ونحن نستمع له كقائد، أخذت ثورة سمية في الهدوء تدريجياً، واستأذنت لتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، حينها أرسلت عدة رسائل إلكترونية لمقترحات المتابعة الصحفية.

قامت خالتي سناء وقت اذشغالنا، غابت في غرفتها ثم عادت حاملة بعض
الأردية المشغولة بالخيوط، وزعتها علينا.
- ستقضون أوقاتاً طويلة بالخارج، والطقس بارد
استأذنّا ليعود كل منا إلى بيته يتجهز، لم يكن لدينا وقت كاف، فتجمعنا
سيبدأ صباحاً من نهاية شارعنا عند الجهة القبلية ولسوف يتوقف لبعض
الوقت عند التفرعات لانضمام الراغبين في المشاركة.

.....

- يا أهالينا انضموا لينا
 هتفنا كلما مررنا بتفرع انضم إلينا المزيد من المتظاهرين، مرددين
 الهتافات التي تعلن عن مطالبهم العادلة
 - عيش حرية عدالة اجتماعية كرامة إنسانية
 تتصدى لنا قوات الشرطة في الشوارع الرئيسية فنلتف من الشوارع
 فتتفرق ونعود إلى تجمعنا في الشوارع الفرعية وقد قطعنا مسافة.
 تعددت ميادين الثوار بتعدد الأحياء من كل الجهات، وكان في ميدان
 التحرير بالقاهرة التجمع الأكبر، جاء تجمعنا الكبير بالإسكندرية في
 ميدان جامع القائد إبراهيم بمحطة الرمل منفتحاً على البحر تمتد إليه
 سلاسل الشوار القادمة من كافة الاتجاهات.
 نحمل معنا أجهزة هواتفنا، لتتواصل ونسجل الحدث، لكنها فجأة أصبحت
 بلا فائدة، قُطِعَتْ عنا وسائل التواصل عمداً، فازدنا صموداً، نتشارك في
 صنع اللافتات التي تعلن عن مطالبنا، نكتب بعض الهتافات فنمررها
 حتى تصل لقائد الهتافات يتخير منها.
 فتحت المقاهي المحيطة أبوابها لنا لقضاء الحاجة و تناوب الراحة ومتابعة
 الأخبار من خلال شاشات التلفاز، قدم لنا البعض الطعام والشراب،

حينما انتظمت وقفة الشوار امتدت شاشة كبيرة في جانب من الميدان تنقل الأخبار والصور، لا أحد يدري من قام بذلك وكيف فعلها؟ حين استقر اعتصامنا بالميدان جلست على حجر أنزلت حقيقتي الصغيرة عن ظهري، كانت تحتوي أوراقى وأقلامي وبعضاً من احتياجات صغيرة أعددتها من قطن وشاش ومطهرات للجروح وبعض الأدوية والإسعافات البسيطة.

ها أنا ذا ابن الجيل الذي لم يصبه الدور من قبل ليكون صاحب دور في الأحداث الكبرى، الآن أسجل دوري، من قلب الحدث مشاركاً فاعلاً، خرجت من قافلة الانتظارات، بل خرج الكثير من أبناء جيلي تاركين رصيف الانتظار، فاعلين في حدث كبير.

لم تكن مشاركة سمية معنا من مكاننا بالإسكندرية مرضية لها تماماً، وهي تتوق للسفر إلى القاهرة للمشاركة من هناك. أما أنا فلا وسيلة لإرسال كتاباتي ومتابعاتي إلى الجريدة بعدما انقطعت الوسائط.

في اليوم الثالث لخروجنا أصيب بهاء مجرح في ساقه نتيجة مواجهات مع مجهولين اعتدوا على المتظاهرين، حينها قمنا بالعودة إلى البيت بعدما نصحن طبيب من متطوعي الميدان بأن يلزم بهاء الراحة حتى يشفى جرحه.

لم ترغب سمية في العودة معنا واتخذت قرارًا بالسفر إلى القاهرة بصحبة مجموعة من الذين التقيناهم بالميدان، تركت معنا رسالة لعمتها وأخرى لوالدها تفتح في حال أن يحدث لها مكروه.

عندما وصلت إلى أول شارعنا رأيت البرنس وسط مجموعة من الشباب و النساء، يرفعون لافتات مختلفة، خرج البرنس من وسطهم وعرض أن يساعدني لنصل بصديقي بهاء إلى البيت، غاب في أحد الأزقة القريبة وعاد ليحملنا على مركبة توكتوك عندما توقفنا أمام مقهى مرارة كانت المفاجأة وجود عم إسماعيل بغدادي جالسًا بصحبة الجد جابر مرارة أمام المقهى.

أودعت بهاء لدى خالتي سناء لترعاه، عدت إلى بيتي، تحممت وبدلت ملابس، وحين كنت أهم بركوب المصعد انقطع التيار الكهربائي.

قررت النزول باستخدام الدرج، مررت بشقة خالتي رضوى فاجأتني بعض الأصوات والحوارات التي تخرج منها، كنت أحمل نسخة من مفتاح بابها ضمن سلسلة مفاتيح أحملها، لم أفكر في احتمالات أو عواقب ما يمكن أن يحدث، ولا من يمكن أن يكون قد اقتحم الشقة، أشعلت قداحة سجائري وأدريت المفتاح بالباب.

ثلاثة أشخاص يجلسون مستخدمين كشافات صغيرة قليلة الضوء، على المقعد الذي لفت انتباهي في المرة السابقة بآثار جلوس شخص، يجلس الشخص الذي كان يظهر لي مرات في أماكن متعددة، وحوله يجلس شيخ

الفضائيات وتلميذه الذي كان يؤم درس النساء في منزل الست مفيدة من بعده.

تسمرت في مكاني عند المدخل وأنا أرى عيونهم التي صوبت نحوي، لا يبدو ظهوري لهم مفاجأة، وكأنهم ينتظرون حدثاً مثل هذا. أسئلة كثيرة ومتخبطة راودتني قبل أن يقطع عليّ الشخص الجالس بين الشيخين خيالاتي وشكوكي.

- كنا ننتظرك... تعال... كما وعدتك مرات بأننا سنلتقي عن قرب - وعدتني؟

اقتربت منه دقت النظر في وجهه رغم الضوء الشحيح، هو ذلك الرجل الذي رأيته في قسم الشرطة بصحبة البرنس، وهو الذي كان بالسيارة الفاخرة يوم حادث البرنس. - من أنتم؟

- سؤال غريب يا صديقي، ألا تعرفنا؟

- أعرف الشيخين الذين يجلسان حولك كما يعرفهما سكان شارعنا ومن شهرتهما في البرامج التلفزيونية.

- لكنك تعرفني قبلهما وعن قرب

للحظات أحسست أنه هو ولكنني لم أر العلامة الفارقة التي تميزه، لا زلت واقفاً أمامهم، أحاول تبين ملامحهم جميعاً عن قرب.

- لماذا أنتم هنا؟

- هذا بيتي وهؤلاء ضيوفي
- بيتك؟
- أنت أيضًا ضيفي، تفضل اجلس لتتحدث
- عادت الكهرباء فاتضحت الرؤية، وعدت أتفحص وجهه فبادرني بإشارة إلى وجهه تعني علامة الجرح القديم.
- أنت تبحث عن جرح الطفولة الذي كان يربطنا معًا، ولم يعد ذلك الخط يميز وجهي، لقد أجروا لي عملية تجميل أو قل عملية تغيير أزالوا علامة الجرح.
- لكن أنا شفتك مرة بعلامة الجرح، أنا فاكرك
- كنت أفعلها بوسائل مصنوعة كي أشاغلك، وأذكرك بنفسي
- مكنتش ناسيك ولا والدتك نسيك يوم
- ها أنا ذا قد عدت
- لا أدري ما الذي يجب عليّ فعله الآن، هل أحتضنه لنبكي زمن الفرقة بدموع ممزوجة بفرحة اللقاء، أم أعامله كشخص غريب، والحقيقة أنني لم أشعر بقربه الذي كان ولم أجد في نفسي ذلك الحنين لأيام جمعتنا ونحن صغار كأننا شقيقان، كنت أمام رجل غريب ومريب حقًا، حديثه لا عاطفة فيه ولا إحساس، حتى هذا البيت الذي اقتحمه مدعيًا أنه بيته، لم أشعر الآن بحضور له بين تفاصيله، لا تراودني صور الماضي لنا معًا نتقافز على الأثاث أو نشتبك من أجل لعبة، هو حقًا ليس بنفس الجدران التي

جمعتنا، وليس نفس الأثاث الذي ضمتنا أسرته و مقاعده؛ لكنني لا أشعر بتواءم روحه مع فضاء المكان و عقب روح صاحبتة.
طال صمتي بلا رد فعل ينبئ عن أية مشاعر، كان الشيخان صامتين مثلي، يتابعان تفاعلي مع الحدث.
أين كل ما ادخرته لمثل هذه اللحظة؟ كيف لم تتحرك مشاعري! لماذا أرغب أن تعود عقارب الساعة للوراء، أو تتحرك عجلة الزمن لما فات وأكون في حالة بحث لا أدري متى تنتهي، أظل أدخر لها ما يفيض به قلبي من مشاعر، وما تجود به المشاعر من حنين، كأنه ليس هو هذا الذي يجلس الآن قريباً، نعم لقد مر بالقرب مني مرات، وشاغلني ليختبر ذاكرة المشاعر.

- كنت تعرفنا طوال السنين الي فاتت وسبيتنا للحزن على اختفائك
- دعك من هذه الذكريات الحزينة نحن اليوم معاً وهنا في هذا الوقت الذي نحتاج أن نكون معاً.
- لا مقدرش أكون معك إلا بشرط، أن تحكي لي إزاي وفين عشت كل السنين الي فاتت من وقت ما اختفيت واحنا بنلعب.
بدأ الرجل الجالس بالقرب مني يحكي عن مهاب الذي كان هو، وكأني أسمع حكاية ليست حكاية عمري حين يأتيني صوته تاركا اللهجة العامية الخاصة بنا نحن الذين نعيش بالإسكندرية منذ ولدنا، متحدثاً باللغة العربية الفصحى ومحاورني بها منذ بداية اللقاء وأنا أستمع إليه بحياد:

- أنت لا تزال واقفًا مغمض العينين، بقلب ينبض بشغف الطفولة عند نقطة انطلاقنا حين كنا نلعب (عسكر وحرامية)، وأنا أ تسلل لأختفي، مر شخص غير محدد المعالم يخفي وجهه، وأنا أحاول التسلل لداخل البيت، كتم صوتي وحملني داخل العباءة الواسعة ومر مسرعًا، كانت بالقرب سيارة تنتظرنا، رفع الغطاء عني تبينت أن هذا الشخص الذي حملني لم يكن رجلًا كانت سيدة.

بكيت قليلًا وأسكتتني ببعض الحلوى واللعب، قلت أريد أمي، قالت من الآن أنا أمك، بدأت حياة وتعليمًا مختلفًا وتدريبًا.

- فين عشت؟

- عشت بعيدًا عن الإسكندرية بين أناس قيل لي إنهم أخوالي، إخوة أمي الجديدة، التحقت بمدرسة هناك، كانت أمي تأتي إليّ بعض الأيام وتغيب بعضها.

- أنت بتتكلم عن السيدة الي تبنتك فقط، فين دور الأب؟ هل كان هناك أب؟

- نعم أصبح لي أب ثري، أراه من حين لآخر، يأتيني بكل ما أحتاج، أنت تعرفه وربما تعرف تلك السيدة.

- ربما.. فأخبرني إن شئت

- أنا ربيب التاجر غانم والست مفيدة، أحسنوا تربيتي وأرسلوني لأكمل تعليمي بالخارج، وها أنا عدت وأعلنت لك سري.

إلى هذا الحد كنت قد سئمت الحديث معه، ولم أشعر بأية روابط تجمعنا فقررت إنهاء الجلسة وطلبت أن يغادروا، فأبلغني إنه سوف يغادر مؤقتاً لكننا سوف نلتقي لقاء الأخوة في الأيام القادمة في نفس المكان، وهو يقدر وقع المفاجأة على نفسي.

مر الوقت الضائع تاركاً بصماته عليّ وعلى المكان، تبدلت أنفاس المكان، وعلا أنين فراشه بعدما فقد رونقه وأناقته التي تركته عليها صاحبة الدار. غرباء زاروا الدار دون إذن ودون أن يلقوا السلام، ويرفقوا بالمكان، فبعثوا وسائده، وأزاحوا المفارش دون رفق، وعبثوا بباقات الزهور المشغولة بيد صاحبها.

بقيت أحاول لملمة شعث المكان وأداوي أوجاعه بإعادة احتضان القطع الوثيرة للسند الصلب، ومهما فعلت فلن أستطيع استعادة ما كان بيد ربة المكان فاعتذرت وبرفق أغلقت الباب وانصرفت.

على المقهى كان الجد جابر لا يزال يجالس عم إسماعيل بغدادي، انضمت لهما بعد الاستئذان، وجلست ولا يزال عم إسماعيل بغدادي يواصل حكاياته عن بغداد وعن حبيبته وسألته كيف خرج من الدار، فشرع يحكي عن رجال ونساء مروا يهتفون (يا أهالينا انضموا لينا) فوصلت أصواتهم إلى داخل الدار وقت نزهة النزلاء الذين تناثروا في الحديقة، فاندفع القادرون منهم ناحية الباب، وهو لا يدري هل فتح القائمون على الدار أبواب الحديقة

أم فتحه المتظاهرون من الخارج، لكنه وجد الباب مفتوحًا فخرج، التقطته سيارة فاعل خير حين أشار له، أوصله حتى مقهى مرارة. عرضت عليه أن يأتي للإقامة في بيتي، لكن الجد جابر تحدث بشكل قاطع معلناً أن إسماعيل سيعود إلى بيته ولن يجروا أحد على إخراجه مرة أخرى.

مر أحد أحفاد الجد جابر فاستوقفه ليسأله عن أحوال العيادة، أخبره الحفيد بم حاجتهم لأربطة طبية ومطهرات، استوقف انتباهي ذكر العيادة وما تحتاجه، ولا أدري أي عيادة تلك التي يتحدثون عنها، وقفت واقتربت من الشاب، أخبرته أن ينتظرنى ولسوف آتية ببعض تلك الاحتياجات مؤقتًا وسريعًا من بيتي ومن بيت خالتي سناء، فنظر إلى جده يستشير، أوماً إليه الجد بالموافقة.

جئت بكل ما أمكن من احتياجات طبية من بيتي، ومن بيت خالتي سناء التي بدت متوترة وقلقة، حينها تسرب لي القلق مما يقلقها ولا أعرفه، وكنت أنتظر أن أجد عند الخالة أخباراً عن سمية، لكنها كانت مثقلة بالهموم، سألتها سريعاً عن بهاء فأومأت إنه بخير، حملت كل ما استطاعت من إسعافات أولية وصحبتني

قادنا الشاب للعيادة في الشارع الجاني، هناك في مساحة كانت مخزناً لبعض أدوات المقهى، قام الشباب من أحفاد الجد جابر بإعدادها لتكون عيادة يعالج فيها المصابين من أبناء الحي ويفد إليها بعض المرضى، يشرف

عليها طبيب الحي المسن الذي نذر نفسه لخدمة الأهالي بلا مقابل، فاجأني بهاء جالساً يضمّد جرح شاب، هو إذن لم يمكث في بيت الخالة سوى ساعة قام بعدها ليواصل خدمة المحتاجين.

توقفت قليلاً أتابع المشهد، وأحسم اختياري بين العودة للميدان أو البقاء هنا للخدمة في العيادة، حينها جاء البرنس حاملاً رجلاً مسناً جُرِحَتْ جبهته من أثر حجر قذفه أحد ركاب القطار الأشقياء عشوائياً، فكان من نصيب هذا المسن العابر.

اندفعت أعاون خالتي سناء في الاهتمام به، وأشرت للبرنس أن ينتظرني حتى أنتهي، بدت الخالة معتادة على هذا العمل، وكل من بالعيادة يعرفونها ويلبون أوامرهم، وهاهو بهاء يجد لنفسه دوراً يناسب حالته كما اعتاد، فلماذا أقف أنا هنا؟ أودعهم معلناً عزمي التوجه إلى الميدان.

بجوار البرنس أجلس على تلك المساحة الصغيرة التي اعتاد أن يتشاركها صديقان من سائقي تلك المركبات، نقطع المسافة بين مقهى مرارة وأول الشارع عند خط السكة الحديد في وقت لا يكفي لما أحمل من موضوعات وقضايا أود أن أتحدث فيها مع البرنس، أود أن أسأله عن أحواله، ولدي أسئلة واستفسارات عن مهاب الذي أفصح لي عن حقيقته، هل هو ممن كانوا يهددون البرنس حين حكى لي عنهم، كيف إذن أخرجه من محبسه في قسم الشرطة.

أسئلة كثيرة واستفهامات وقضايا تتشابك وتتفكك كلها عند نقطة واحدة، هل يدري هو تفاصيل ما يحيط به، وددت لو سألتها، وهو يبدو منهمكاً بجدية، يساهم في العمل العام في ظل ظروف متوترة. اكتفيت بأن أُنقل معه حتى الشارع العام لعلّي أتمكن من العودة للميدان ويبقى هو في خدمة الحي هنا، على وعد بقاء قريب نتناقش فيه، في صمت شغلت عيني وذهني بمتابعة مشاهد شارعنا وما طرأ عليه من تغييرات.

يبدو شارعنا مختلفاً عما كان عليه قبل الأحداث، الناس يتعاونون في تقديم الخدمة حتى للعابرين، على كل ناصية يقف رجال يحرسون ليلاً، ولم تسجل حالة سرقة أو تعدّ.

على أول الشارع وَقَفْتُ سيارة، أعلن سائقها الشاب أنه سوف يتوجه لميدان التحرير بالقاهرة لمن يرغب أن يصحبه، حينها قررت فوراً ودون تفكير توجهت للسيارة جلست في المقعد الأمامي، ولم ألتفت لمن جلسوا بالمقعد الخلفي، غاب صاحب السيارة قليلاً ثم عاد بزجاجات مياه وطعام لنبدأ رحلتنا.

عندما بدأنا التحرك ساد الصمت، حتى خرجنا من غلاف المدينة وصرنا على الطريق الصحراوي، كنا لا نزال نمر ببعض الأكشاك الصغيرة التي تباع سجائر ومشروبات وأطعمة، طلبت التوقف لأتزود ببعض احتياجاتي، لكن صاحب السيارة أخبرني إن التوقف على الطريق ليس مأموناً في تلك

الظروف، بعد أن قطعنا مسافة على الطريق مللت الصمت، بدأت بتعريف نفسي، فلم ألتقى سوى مهممات الترحيب، ثم عاد الصمت، حتى وصلنا مدينة أكتوبر، أخبرنا صاحب السيارة أننا سوف نترك السيارة هنا في مكان آمن، ثم نتحرك بعدة وسائل حتى نصل إلى ميدان التحرير.

ترجلت والتفت لصحبة المقعد الخلفي، فوجدته يقف بجانبني، الآن أعرفه هو مهاب يصحبه مساعد الشيخ ورجل آخر، وددت لو تركتهم جميعاً وسلكت طريقي بمفردي، هممت بالانصراف فأمسك ساعدي بقوة رجل تلقى تدريباً احترافياً.

- سنتحرك معاً

- أنا أعرف طريقي

- لكنك لا تملك وسيلة

تفقدت المكان من حولي فلم أتعرف على وجهة يمكنني أن أسلكها وبدا المكان خالياً إلا من بعض المارة، حينها لم يكن أمامي إلا التفكير العملي، وافقت على رفقتهم حتى أصل إلى هدي.

سرنا مسافات طويلة على الأقدام وتوقفنا بعد مسافة من السير لينضم إلينا آخرون، عند نقطة على الطريق وجدنا حافلة تنتظرنا؛ ركبنا لمسافة أخرى، لاحظت أننا دخلنا نطاق المدينة، العماير التي تزداد ارتفاعاً كلما أوغلنا، حواف الأهرامات التي تبدو عن بعد، ثم التف بنا الطريق وبدأت تفاصيل

المدينة، مباني الهيئات والعمائر ذات اللافتات، الفنادق وصفحة النيل، والكباري تعلوها.

توقفت الحافلة أسفل أحد الكباري، أنزلونا لنسير ما تبقى من مسافات، كلما اقتربنا زادت أعدادنا، لكن هؤلاء الذين جئنا بصحبته لم يتركوا لنا فرصة أن نتفرق ليختار كل منا وجهة، وربما كنت أنا الوحيد الذي يرغب في الانفلات منهم، لذا بقي مهاب دائماً بقربي، هذا الذي عشت عمراً أبحت عنه، الآن أود لو لم أجده وتظل صورته العالقة بخيالي كما هي، لا كما تجسد أمامي بعد زمن لا أدري ما الذي فعله خلاله وما الذي تعلمه وهو ربيب بيت مربب يتخذ الدين ستاراً، الآن يقلقني ارتياي في توجهاته، ويظل هو يشغلني في حكاياته عن الحياة التي عاشها بعدما ضاع منا، وددت لو أحكى له عن والدته، عما كانت تعانيه في بعده، لكنني وجدته يحكي لي عن رفاهية حياته وتكلفة تعليمه والبلاد التي تعلم بها والبلاد التي زارها، وكلما أضاف جديداً مما أجهله ازداد ثقل ما يضيف على قلبي، وددت لو أصارحه بوصية أمه، ولم أفعل، كل ما أفكر فيه الآن هو كيف أُفِلْتُ منه.

كلما اقتربنا من الميدان ازدادت الأعداد حولنا، توقفنا عند مدخل نهاية كوبري قصر النيل إذ هاجمتنا قوة مسلحة بالعصي، والغازات المسيلة للدموع، وجدتها فرصة، وفررت وحدي، جريت دون هدف، أصابني حجر، جرحت جبهي، وتعثرت كدت أدهس تحت أقدام المتلاحقين، حينها أدركني شاب حملني، نقلني إلى خيمة، تقوم فيها بعض الفتيات

بعلاج المصابين وتضميد الجروح، تولى طبيب شاب تضميد جرحي، وأوصاني أن أبقى لبعض الوقت لأنني معرض للدوار بسبب الجرح واستنشاق الغاز.

أجلس في زاوية من الخيمة متعباً مما عانيت في الانتقال وما بدأت به أولى ساعاتي في الميدان، أخرجت من حقيبتي أوراقاً وقلماً، سجلت بعض الأحداث، أحسست بدوار توقفت وأعدت أشياءي إلى الحقيبة خلف ظهري.

الأيام تمضي وأنا بين الجموع في الميدان أو داخل خيمة الإسعافات أعاونهم، في مثل تلك الحشود في هذا الوقت لا يمكنك توقع رؤية من تعرف أو التقاء بعض الذين ترغب في رؤيتهم، لكنك ربما صادفتك علاقات جديدة وأناس يشعرك قربهم كأنها ليست المرة الأولى للقائكم، وكأنكم كنتم من قبل أقارب ورفاق.

كل ما أرجوه ألا أصادف مهاب ورفاقه مرة أخرى، ولا تزال عيناى تبحثان عن سمية، وأعود لأعاتب نفسي؛ هل تحينت فرصة إصابة بهاء لأجيء بمفردي، هل جئت هنا من أجلها؟

توقفت وسط مجموعة ينشدون أشعاراً، بدت الوجوه مألوفة، وجدت بينهم زملاء لي بالجريدة، انضممت لهم، وهم يزدادون ويتناقصون بعضهم يغيب ثم يعود، حتى جاءت ترتدي بنطالاً (جينز) وسترة شتوية وتعد شعرها لأعلى، بدت بلا مساحيق تجميل، أجمل مما كنت أراها عليه بمكتبها في

الجريدة، كانت متحررة قريبة من الجموع، حيث مكانها لا يزال خاليًا، أفسحوا لها حتى تمر إليه، مما يوحي أنها غابت قليلاً لأمر ما ثم عادت، عندما أصبحت أُمّامي ابتسمت لها فابتسمت تلك هي منال رئيس التحرير. بتنا نعرف الأيام بوقائعها، لكل يوم مسمى حسب علاماته المميزة، البيانات الإعلامية واللقاءات المتلفزة تشعرنا أننا على طريق تحقيق الهدف.

قمت للتريّض بالتجول حول الميدان وجلب بعض الأطعمة وزجاجات المياه، على حواف الميدان هناك باعة لأشياء واحتياجات مختلفة من أطعمة ومشروبات، وباعة أعلام وسجائر، وبينهم من يدلونك عن أماكن قضاء الحاجة وصنابير مياه للوضوء أو غسل الوجه للانتعاش، أو الشرب لمن لا يملك رفاهية جلب زجاجات مياه معدنية، رغم يقيني أن هناك من يملئون الزجاجات بمياه الصنبور.

مجتمع متكامل يشكل الحياة في الميدان شباب وشيوخ نساء ورجال وفتيات وأطفال، طوائف مختلفة.

لم أقم بالبحث عن سمية بلا جدوى في مثل تلك الحالة، ولا أنكر أنني أتفحص الوجوه من حولي تاركًا أمر اللقاء للقدر، توقفت على عربة أطعمة، أتخير مما فيها، اخترت بعض الطعام وتوقفت حتى ينتهي البائع من إعدادها، أتلفت حولي أتابع الأنشطة التي تدور في الميدان، من هتافات وأشعار وتمثيل لبعض المشاهد، وأغان وموسيقى، جاءني صوتها عن بعد وسط زحام الأصوات وتداخلها، تلك الأغنيات أعرفها، عيَّ أن أتبع

مصدر الصوت، تحركت باتجاهات مختلفة لأحدد وجهتي، أسير وسط الجموع باتباع مصدر الصوت عبر الهواء، إلى حيث يرتفع الصوت تدريجياً، حتى يتحدد بمشاركة أصوات مختلفة يرددون خلفها، وصلت قبل أن تنتهي الأغنية.

تبدأ شاشة البث التلفزيوني الكبيرة بالميدان تعلن عن بيان هام للرئيس. توقفنا حتى عن رد فعل مفاجأة اللقاء وتبادل الحديث، جلست بجانبها في صمت كلانا ينتظر ما تأتي به اللحظات القادمة، لا أدري ما الذي سبق هذا الحديث من مؤثرات أو تقديم قبل أن يظهر الرئيس وحده يتحدث. جاء صوت الرئيس بنبذة حزينة ووجه يأس وحده من خلال (استوديو) التسجيل، لا يزال يحدثنا كأخوة وأبناء:

- أتوجه بحديثي اليوم لشباب مصر بميدان التحرير وعلى اتساع أرضها؛ أتوجه إليكم جميعاً بحديث من القلب، حديث الأب لأبنائه وبناته، أقول لكم إنني أعتز بكم رمزاً لجيل مصري جديد يدعو إلى التغيير إلى الأفضل ويتمسك به، ويحلم بالمستقبل ويصنعه.

أقول لكم قبل كل شيء أن دماء شهدائكم وجرحاكم لن تضيع هدراً، و أؤكد أنني لن أتهاون في معاقبة المتسببين عنها بكل الشدة والحسم، وسأحاسب الذين أجرموا في حق شبابنا، بأقصى ما تقرره أحكام القانون...

استطرد الرئيس يحدثنا عما قدمه للبلاد، وذكروا ببطولاته ودوره في حماية مصر، حديث يحرك المشاعر، وربما يبدو مؤثراً فيمن عاصروا أحداثه.

فجأة أطلقت سمية صيحة تبعها أنين، ثم صاحت رفيقتها بألم، ألتفت إليهما لأجد الدماء تسيل، طلقة صامته أصابت سمية، والثانية أصابت الفتاة التي تجاورها، تداخلت الأصوات والاستغاثات، أسرع شباب يحملونهما بسرعة، شاركتهم بذهول المفاجأة، وجدتني أعود معهم لخيمة الإسعافات، لم أكن أدري ما الذي حدث لهما، هل هما ما تزلان على قيد الحياة، لكن الصدمة قيدت كل التفكير في احتمالات أخرى.

في الخيمة فحصهما الطبيب وحاول إيقاف النزيف، ولا أدري كيف استطاع طلب سيارة إسعاف تحملهما ووافق الطبيب على أن أصحابهما بعد أن أخبرته بأنني قريب لهما.

عند الخروج من الخيمة توقف اثنان يتابعان المشهد، أحدهما كان مهاب والآخر كان الوجه الذي رأيته في الصور مع سمية ورأيت في المشهد المصور لموت صديقها ذلك هو وجه شقيقها.

اقترب مهاب مني وأنا أصعد وهمس في أذني:

- إنه شقيقها الذي فعلها بشجاعة ليظهر اسمه بدم شقيقة ناشز.

أرعبني قوله وأحسست بغضب جامح يحتاج كياني، وأسئلة متضاربة، تبدأ بكيف استطاع أخ أن يفعلها، وكيف حكم عليها بهذا المسمى، وكم من الذين يشاركوننا يحملون تلك الأفكار المريضة.

لم يكن لدي متسع من الوقت ولا بعض من الطمأنينة كي أتناقش معه، فقد انتهى المسعفون من حمل الجسدين إلى السيارة وأنا لا أدري حجم ما أصابهما.

أسرعت بالصعود وأنا أحمل قدمي الثقيلتين وقلبي المرتجف خوفاً من هول المفاجأة وعواقبها.

في الطريق إلى المشفى هدأ توتري قليلاً عندما لاحظت استمرار المسعفين في القيام بدورهم باهتمام، وسمعت أنيناً خافتاً، لم أتبين مصدره. أجلس في مقعد المرافق بسيارة الاسعاف أردد الدعوات وأقرأ آيات من القرآن، وسط زحام هواجسي واضطرابي، ومخاوف توقعاتي التي تصل لأعلى مستويات الخطر، مرت الأحداث كأنها تقود تحركاتي ولست أنا الذي أسير بها.

وها أنا الآن داخل المشفى الذي حملونا إليه، أتوقف خارج غرفة العناية في انتظار الأخبار، ولا أدري شيئاً عن الأحداث خارج المشفى.

خرج طبيب شاب أخبرني أنهما تحتاجان أكياساً من الدم، وبدون تفكير تحركت معه لاختبار عينة الدم، أحسست ببعض الارتياح عندما وافقت

عينة دمي دم سمية، وتطوع بعض من مرافقي المرضى لمنح رفيقتها الدم الذي سوف يتوافق معها.

عدت أقضي الوقت في استراحة الانتظار المزودة بشاشة تلفاز ينقل الأحداث عبر محطات فضائية مختلفة، أغفو وأستيقظ لا أحصي الساعات، تجئ ممرضة لتخبرني أن الرصاصة التي أخطأت هدف مطلقها قد أصابت كتف سمية الأيسر وليس القلب، ويبدو أن الجاني أراد التأكد من إصابة الهدف فأطلق رصاصة أخرى أصابت ذراع رفيقتها الأيمن.

حينها سمعت مذيع الأخبار يمهد لبيان رئاسي، أعقبه بيث مباشر لمشاهد المتظاهرين بالميدان في حالة تأهب لتلقي أخبار.

لا أدري ما الذي ينتظرنا وما الذي سوف تأتينا به البيانات الرئاسية، فقد سبقتها بيانات لم تغير من الأمر شيئاً.

الانتظار ليس سوى اجترار الأحداث، وعرض خيالي من التوقعات، تعلو وتهبط، تغلفه بكائيات حيناً وابتسامات أحياناً، تأتي الذاكرة بأفلام معدة ومخترنة ولا خيار لك في انتقاء الصور الدرامية التي ترغب في مشاهدتها.

الآن تغيرت رؤيتي لشريط حياتي، أبي الذي جاء وجهه مكبراً، ملامحه التي تغضنت مبكراً، كتفاه العريضتان كأنهما مخلوقتان للحمول، نظراته الجادة الآن أقشرها لتبدو كما اللوزات الحلوة داخل القشرة الصلبة، كلماته المختصرة الجادة، خطواته الثابتة.

تجئ أمي حاملة كوب الشاي، تحدثه تحكي وهو صامت يستمع، أقف بينهما
ترفعني أمي بجانبها، يقوم أي لا أدري هل قام ليترك لي الاستحواذ على أمي،
أم قام ليقضي بعض أعمال تخصه.

باب بيتنا وخطوات واثقة قربه، هرولة أمي لفتح الباب، عودته حاملاً
بعض الأشياء.

حقيبة صغيرة تعدها أمي أراقبها بلا مشاعر محددة، دموعها المنسابة،
صوته الشجي يتعجلها، وقوفي بينهما في لحظة فارقة، يرفعني أي يحتضني
ثم يعيدني إلى الأرض ويسرع بالخروج.

لا أنتظر، أرفع كفي للإمساك به، تلتقي كفي بكف ويطرق سمعي صوت
شاب، أعود من خيالاتي.

- حمدًا لله على سلامتهم، دلوقت تقدر تدخل تشوفهم

أتهياً للوقوف، فتواجهني شاشة التلفاز المعلق ببيان إخباري:

- بسم الله الرحمن الرحيم...أيها المواطنون؛ في هذه الظروف العصيبة، التي
تمر بها البلاد قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس
الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة؛ بإدارة شؤون البلاد
والله موفق والمستعان.

لم تكن سمية قد تعافت تمامًا حتى أتركها وأخرج أتابع ما يحدث في
الميدان، ولم أكن مطمئنا في ظل تلك الأحوال غير المستقرة إلى ضمان

أمانها، وعدم اقتحام المعتدي عليها للمكان أو الوصول لها بحجة أنها شقيقته، فلا أملك ما يدين من اعتدى عليها ولا يزال حرًا طليقًا، يتشدق بالشعارات ويخالط الأنقياء الحقيقيين، ويبيث سموه وأفكاره. بقيت بالمشفى أتابع الأحوال من خلال شاشة التلفاز، رأيت الميدان يتحول إلى خلية عمل، يقوم الشباب والشابات بتنظيفه وترك ذاكرة ملونة على جدارياته المتفرقة وجدران شوارعه الجانبية.

وددت لو شاركتهم، لو أني أملك أن أخرج لأسجل مشاركتي، كنت أحمل بحقيبتى الأوراق التي تضم توثيقي للأحداث وعلى هاتفي صور لبعض الوقائع. تحدثت إلى بهاء بعد انقطاع عن التواصل وسط الأحداث العصبية، ولم يكن يعلم بانتقالي إلى القاهرة، جاءني صوته مطمئنًا، سألته عن الحالة سناء أخبرني أن لديها الكثير من المفاجآت السارة، فلم أخبره بما حدث لسمية.

.....

تحتضن جداريات شوارعنا العريقة عيون وجباه وأياد تلون الحكايا،
خطوط وكلمات تستوقف العابرين تمنحهم قصصاً، وتسمعهم أشعاراً
وموسيقى وغناءً، تملأ خزائن آلات التصوير بالحياة، وأوراق وثائق
التسجيل بالوقائع والسير.

في طريقي إلى الجريدة أسير أنا وسمية بنفس الطرقات والشوارع التي
شهدت أحداث الأيام الفائتة، مر أكثر من أسبوع ربما عشرة أيام لم أر
الشوارع منذ تركت الميدان بسيارة الاسعاف بصحبة سمية وصديقتها،
هاهي الآن تسير معي وقد تماثلت للشفاء، تحملنا أقدامنا لنفس المكان،
نتوقف عند نفس الحجر الذي شهد الواقعة، تنحني سمية تتفحص بقعة دم
تلون طرف الحجر وتتساقط على حوافه.

هل هذه دماء سمية أم هي دماء أخرى سالت بعدها؟ وهل سيشهد الحجر
مزيداً من سيل الدماء؟

أيقظ شرود حيرتنا صوت خطوات حذاء ثقيل يقترب، انتبهنا فتحركنا
ببطء تاركين المزيد من الخطوات الثقيلة تنتشر فوق أرض المكان، عائدين
بذاكرتنا البصرية لما قبل حادث سمية، كل منا يقلب صفحاته، لم أكن

أعلم ما سجلته ذاكرة سمية منذ تركتنا بالإسكندرية، أسير بجانبها بصمت وهي تغني بعض ما غنته بالميدان.

في مقر الجريدة التقينا (منال) رئيس التحرير، لم تكن بقناعها الرسمي كما اعتدت رؤيتها من قبل، جلسنا تناقشنا في الأحداث الجارية، سلمتها بعض الموضوعات والصور، أصرت سمية على نشر قصة شقيقها، طالبتني منال بصياغة أدبية للقصة كما حكته سمية.

انتهت زيارتنا للجريدة، وبدا البقاء في القاهرة بلا هدف ولا مكان بعد أن خلا الميدان، الآن عليّ أن أواجه صعوبات في إقناع سمية بالعودة إلى الإسكندرية، أمام إصرارها على البقاء في القاهرة، جاءتنا دعوات للظهور والحديث في بعض القنوات الفضائية، وافقت سمية ولم أحدد أنا موقفًا من تلك المشاركات الاعلامية.

ويسرت لي تلك الحالة إقناع سمية بالعودة للإسكندرية على وعد بالرجوع للقاهرة للمشاركة في الأحاديث الإعلامية.

.....

على باب بيت خالتي سناء، صباح اليوم التالي لعودتنا، تطالعي بعض الوجوه، لم أعرف منهم سوى الشاب الكفيف بجانبه جارتنا نادية، تلك السيدة التي كانت يومًا ضحية من ضحايا الست مفيدة وزوجها. توقفت قليلًا أطالع الوجوه بدهشة، لم يكن بهاء ضمن الموجودين بالمكان، عادت خالتي سناء تحمل إفطارًا، تبعتها سمية ببعض المشروبات، ولا أزال واقفًا أنفحص المشهد الجديد، حينها أطل بهاء من خلفي يحمل خبزًا وفطائر.

انتبهت خالتي سناء لي معتذرة دعيتي للجلوس بينهم، عرفتني بهم، وعرفتهم بي، أخبرتنا أننا منذ الآن أصبحنا عائلة تجمعهم هي في بيتها يوم واحد في الأسبوع.

بعد الإفطار بدأت سمية طريقتها في التعارف، على أن يحكي كل منا شيئًا لم يعرفه أحد عنه.

لماذا اختارت خالتي سناء أن تكون هي البائدة بالبوح؟

بدأت سمية عزفها رغم آلام ذراعها الأيسر، لم تغمض عينيها بعصاة كما اعتادت، أحضرت عماتها الظرف المغلق الذي سلمه لها بهاء في إحدى جلساتها، كنا قد نسيناه في زحام الأحداث، أخبرتنا أنها تذكرته في ليلة

التنحي، عندما اختلت بنفسها بعدما هدأت الأمور في العيادة، فتحتته كان رسالة من أشرف قبيل وفاته، تاركاً لها وصية ووثائق رسمية، بدا بهاء على علم ببعض ما تحوي الرسالة.

بينما طلبت هي جهاز حاسوب محمول زودته بقرص مدمج، وقامت بتشغيله جاء صوت أشرف واهناً رغم محاولته التماسك:

- سناء...أنا كنت قاسي معاك... بس ما زلت منتظر منك العطاء...وصيتي إنك تاخدي ابني تربيته...أيوه يا سناء أنا عندي ابن...أمه سابته قبلي، وانا كمان معرض للخطر هنا وممكن أسيبه، وصيت ناس حواليا عليه لو حصل لي حاجة، وسلمتهم أوراقه الثبوتية، وزودتهم بالعناوين في مصر، يارب يوصلوا لكم في الوقت المناسب.

طريقة دوم على أصابع البيانو، أعقبها صمت تام بعد الرسالة الصوتية، لا شيء سوى خشخشة الأوراق بين أصابع العمة، وحركات فرك أصابع الترقب بين هؤلاء الذين يجلسون بيننا لأول مرة.

استدارت سمية في مواجهتنا، بانتظار معلومات جديدة، بينما انتقل الحديث إلى بهاء هو الذي يملك أطراف الخيوط.

- بعد معرفتنا بوفاة أشرف في بغداد، زارني ناس كانوا أصدقاء له هناك، سلموني أوراقاً وكلموني عن ابنه أنس، هو دلوقت في ضيافتهم بانتظار قرار منا.

ولو خالتي سناء لا ترغب في الي عرضة أشرف؛ فلها حرية الاختيار،
ويمكننا إنه يكون في بيت واحدة من عماته ترعاه
- عندي انا، أنا مش متزوجة ولا عندي أولاد

هكذا تداخلت نادية سيدة قسم الشرطة وصاحبة الكفيف، بينما بقيت
سمية صامته تنتظر قرار عمتها.

أعلنت خالتي سناء قرارها بتنفيذ وصية أشرف واستضافة ولده ليكون
ابنها، بينما بدت ملامح عدم الارتياح تجتاح وجه سمية، حينها قطعنا
التوتر بأحاديث جانبية للتعارف، واختلى بهاء بالخالة يفحصان أوراقاً.
انتقلت نادية إلى جانب الشاب الكفيف، ناولته آلة العود الخاصة به، بدأ
يعزف أغاني شجية.

فترة صمت الانتقال من أغنية لأخرى، انطلق صوت سمية بأغنية تراثية،
انتقلت عبر الأجيال، وهي لا تدري أن تلك الأغنية هي أيقونة ميلاد
أشرف الذي لقبت أمه باسم أم الغائب حتى بعد ميلاده.

- لما قالوا ده ولد اتشد ضهري واتسند

تركت سمية الجلسة وغابت في غرفتها، بينما بدا الجميع واجمين، لم يبد
أحد رغبة في البوح بعد خالتي سناء، نظر بهاء للساعة المعلقة وقام
بتشغيل جهاز التلفاز معلناً ان ذلك موعد برنامج يستضيفون فيه بعضاً
من شباب الذين شاركوا في الثورة.

نفس البرنامج الذي من المقرر أن نكون أنا وسمية من ضيوفه لتحدث عن تجربتنا.

أطل وجه مقدم البرنامج وأعلن عن ضيوفه، واجهنا مهاب باسم (مهاب غانم) بصحبة شيخ الفضائيات ومعهم شقيق سمية، بينما في مواجهتهم شخص من تيار يناقض أفكارهم.

حينها غامت الدنيا في وجهي وملأني شعور بالحزن، زادته ضوضاؤهم وتشابكهم وخلافاتهم، لم يكن بي رغبة لسماع ما يتشددون به، وخشيت من مفاجآت سمية لو خرجت لتري، أغلقت التلفاز وقررت ألا نشارك أنا وسمية كضيوف في هذا البرنامج.

ها أنا ذا في صبيحة يوم من أيامي العادية بعد مرور وقت لم أحسبه، أعود إلى طقوسي المعتادة، وحدتي وسجائري ومشاعباتي مع بهاء، ومشاهداتي عن شارعنا الذي تتبدل أحواله وضجيجهِ وحوادثه كل لحظة.

بينما تقضي سمية وقتها بين القاهرة والإسكندرية ويظل والدها يعيش معظم أيامه في بلده على أمل أن يلتقي ولده الذي لم يظهر مرة أخرى بعد اللقاء المتلفز مع مهاب.

تظل وصية خالتي رضوى معلقة فلا مهاب عاد ولدها ولا هو ظل غائبا، بينما الجديد المدهش أن نادية سيدة قسم الشرطة تزوجت من الشاب الكفيف فكانت رفيقته ومساعدته، يأتون إلينا بين الحين والحين يملئون وقتنا بهجة.

بحثت عن البرنس كثيرًا حتى أبلغني أحد رفاقه من سائقي التوكتوك أنه سافر إلى بلد عربي، بعد أن طلب من بعض الذين عمل معهم مؤخرًا أن يجد له فرصة سفر ففعل.

في طريقي إلى المقهى شاهدت غالبية تقود سيارة فاخرة تخرج من باب ساحة السيارات تحت المبنى القريب ولم يكن أمري غريباً أمام نفسي عندما لم تحرك مشاعري ومرت مرور الكرام ولم يكن بي حاجة لتتبع أخبارها. لم أجد الجد جابر مرارة على مقعده بالخارج، دخلت المقهى فوجدته في ركنه الأثير وبجواره عم إسماعيل بغدادي يتبادلان حكايا قديمة بين بغداد والقاهرة والإسكندرية، حتى يعرج عم إسماعيل على سيرة أمريكا حيث يعيش أولاده بجنسية أمريكية، يضحكان حيناً وتفيض دموعهما أحياناً، شربت قهوتي الصباحية بصحبتهما ثم هاتفته بهاء لنزور خالتي سناء وأنس.

في بيت الخالة سناء لمست عن قرب صعوبة التعامل مع طفل التشتت أنس، الذي أصبح طفلاً منظوياً بحكم الانتقال من بيت لبيت، ولم يكن أنسب له من حكمة وصبر الخالة سناء حتى يتم تأهيله لوضعه الجديد. عادت سمية لزيارة عمتها، فاقترحنا أن نخصص يوماً ننطلق فيه مع أنس في مكان عام مثل الحدائق والمنتزهات.

أسافر القاهرة وأعود، وتجيئ سمية إلى الإسكندرية وترحل، ويظل بهاء صامتًا بشأن مشاعره نحو سمية، وأعرف أنها ربما تبادله نفس المشاعر، أما أنا فقد عادت حواسي تتحرك تجاه منال.

عامن من غياب المعالم عن الحقيقة، لم يتبق لنا سوى روابطنا التي أوجدتها الحالة، بينما هناك الآخرون على الجانب الآخر يتربصون بأمننا وأماننا.

أنتظر أنس على باب المدرسة لنلحق ببهاء وسمية وهما ينتظراننا في حديقة قريبة؛ تهاتفني خالتي سناء كي نعود إلى البيت بسرعة، كانت تتابع التلفاز عندما شاهدت تفجيرات قريبة.

.....

السيرة الذاتية

سعدية عبد الحليم خليفة....الشهرة سعدية خليفة
عضو عامل اتحاد كتاب مصر
حاصلة على منحة التفرغ في مجال الرواية من وزارة الثقافة
حاصلة على ليسانس آداب قسم تاريخ 1977
حاصلة على ليسانس آداب قسم الدراسات المسرحية شعبة إخراج
عملت أخصائية أولى تربية مسرحية حتى عام 93
كتبت وأخرجت العديد من مسرحيات الأطفال للمسرح المدرسي
عملت كاتبة ومخرجة للرسوم المتحركة باستوديو علاء الدين لانتاج الرسوم
المتحركة بدولة قطر من 1993 حتى 2003
كتبت وأخرجت العديد من أفلام الرسوم المتحركة وبرامج الأطفال
شاركت بأفلام من تأليني وإخراجي في مهرجان القاهرة الدولي لسينما
الأطفال لعدة سنوات
وكذلك شاركت بمهرجان الشاشة العربية المستقلة

من أفلامي للأطفال: (دعوة من الديك فصيح- الرحالة- سيوف الحق -
يحق لنا- بيب ييب في عالم عجيب)
عملت مديرة شركة إمج للانتاج الفني بدولة قطر حتى 2013
صدر لي من المجموعات القصصية والرواية ما يلي:
وشم الهناجر 2010 (مجموعة قصصية)
أيقونة العشوائي 2012 (مجموعة قصصية)
صوم البنفسج (رواية) 2018 عن دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
الفقراء لا يشربون موكا 2019 (قصائد نثر)
عذارى أوراق التوت (رواية) 2020 عن دار ليفانت للدراسات الثقافية
والنشر
أجنحة الجسور قصة للأطفال عن المركز القومي للطفل





dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.